

لفضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد أيوب القرشي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين أجمعين



الإعجاز البياني

في الخِطابِ الرَّبَّانِي



الإِعْجازُ البيَانِيُّ
فِي الخطابِ الربَّانِيِّ

تأليف فضيلة الشيخ:

أبي عبدِ اللّه محمَّد أيُّوب القرشيِّ

غفر اللّهُ له ولوالديه وللمؤمنين أجمعين

1437 هـ | 2016 م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا، وسيِّئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70، 71].

أمَّا بعد:

فإنَّ القارئ لكتاب الله تعالى قد يمرُّ على آيات يلتبس عليه معناها، ويستشكل عليه فَهمها، فيظنُّها متناقضة فلا يفهمها، خاصَّة في عصر بعدنا فيه عن لسان العرب السليق، ولهذا نبَّه سبحانه على هذا بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]؛ أي: لوجدوا فيه تناقضًا كما في كلام البشر، أو لوجدوا فيه تفاوتًا في الفصاحة، لكنَّ القرآنَ منزَّهٌ عن ذلك لمن تدبَّره، فدلَّ أنَّه كلام الله تعالى، لأنَّه لا اختلاف فيه، فإن عرضت لأحد شبهة وظنَّ اختلافًا في شيء من القرآن، فالواجب أن يتريَّث ويسأل أهلَ العلم، ويطالع تآليفهم حتى يعلم أنَّ ذلك ليس من الاختلاف في شيء.

فإنَّ العلماء ﭫ قديمًا وحديثًا، قد أَلَّفوا في تفسير القرآن، وتفنَّن كلُّ واحد منهم فيما برع فيه، بل لكثرة التفاسير وأنواعها اكتفى شيخ الإسلام ابن تيمية ﭬ بتفسير آيات أشكلت على المفسِّرين، ولم يجهد نفسه على تفسيره كله، علمًا أن الله تعالى قد فتح عليه من العلم، وأفاض عليه من الفهم، ما تحار معه العقول، وقد ذكر تلميذُه الحافظ أبو عبد الله محمد المقدسي ﭬ عنه، أنه: "كان ﭬ -أي شيخ الإسلام ابن تيمية- يقول: "ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل الله الفهم وأقول: يا معلم آدم وإبراهيم علمني. وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرِّغ وجهي في التراب وأسأل الله تعالى وأقول: يا معلِّم إبراهيم فهمني"[1].

لهذا أردت أن أجمع في هذا الكتاب بعض ما يلفت نظر القارئ المتدبِّر لآي القرآن، ويثير انتباهه إلى عجيب الخطاب الرباني، والأسلوب البياني، فيزداد عندئذ إيمانُه، ويرسخ إيقانُه، فجرَّدت آياتٍ معدوداتٍ، من كلِّ سور القرآن، مما تكلَّم في لطائفها وبيانها بعضُ مَن مضى من علماء التفسير، نقلتُ أكثرها من كتاب "التسهيل لعلوم التنزيل" لمؤلفه أبي القاسم الكلبي الغرناطي ﭬ[2]، وقد تتبعت أغلبَ ما فيه من الآيات المشكلات، التي أوضحها المؤلف تارةً بحلِّ عقدها المقفلات، وتارةً بحسن العبارة ورفع الاحتمالات، وبيان المجملات، وسميته: "**الإِعْجازُ البَيانِيُّ في الخِطابِ الرَّبَّانِيِّ**".

وسيلاحظ القارئ أني اكتفيت في الغالب بذكر أجوبةٍ من سلف من الأئمة والعلماء، كما أضفت آياتٍ استخرجت لطائفها بطرح تساؤلات، قد تخطر على بعضنا وقد لا تخطر، وذكرت لها جوابًا ومخرجًا، وهي التي أذكر عندها: "**قلتُ** أو **قال مقيِّدُه**"، وذلك للفصل بين كلام الأئمة ﭫ وبين كلامي، ثم ما كان تفسيرًا أو فائدةً أو جوابًا مما استفدته من العلماء، عزوتُه إليهم، من باب الأمانة العلمية.

والله أسأل أن يبارك في هذا الجهد، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، وينفع به، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.

---

(1) العقود الدرية من مناقب أحمد بن تيمية (ص 42 – 43).

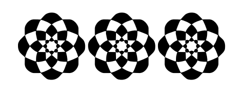
(2) اختيار هذه الكتاب دون غيره لم يكن عن قصد، وإنما لكونه الكتاب الوحيد الذي كان بيدي في السجن عند كتابة المسودة، حتى يسر الله الفرج، فأضفت مراجع أخرى.

وكتبه أسير ذنبه، الرَّاجي عفو ربه:

أبو عبدِ اللّه محمَّد أيُّوب القرشيِّ

غفر اللّه له ولوالديه ولسائر المؤمنين

وذلك عام 1427 **هـ الموافق** 2006 **م، بسجن**...



بواعث تأليف الكتاب

الحمدُ لله الذي مَنَّ علينا بأشرفِ كتبه، وجعله معجزةً من معجزات نبيه، لا يغسله الماء، ولا تمَلُّه العلماء، محفوظ في الصدور، ومكتوب في السطور، وأصلِّي وأسلِّم على من كان خلقه القرآن، رتَّله ترتيلًا، وقام به قيامًا طويلًا، محمد بن عبد الله، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أمَّا بعد: فإنه لم يكن يخطر على قلبي تأليف كتاب في الإعجاز البياني والخطاب الرباني، لعلمي أن الإحاطة به دونه خرطُ القتاد، ولن يستوفي أحدٌ حقَّه ولو اجتمع له كلُّ العباد، فالحديث عنه لا ينتهي، والبحث فيه لا ينقضي، وإنما الذي قدَّره الله تعالى لي -وفي كلِّ ما يقدره خير- أنِّي كنت بعيدًا عن الأهل والولد، سجينًا في بلاد الرُّوم وغريبًا عن البلد، فلما أهلَّ عليَّ شهر رمضان لعام 1427 هـ آليتُ على نفسي أن أجمع اللطائف البيانية، وأقضي شهر رمضان في تدبر تلك الآيات القرآنية، منفردًا في زنزانتي وحيدًا، مطمئنًا بخلوتي وسعيدًا، فاعتزلت البعيد والقريب، وذاك شيءٌ مقدَّر وعصيب، ولكنَّه قدر الله وما شاء فعل، سبحانه ﷻ.

فاعتكفت طيلةَ الشهر على النظر في القرآن، وتلك نعمةٌ من اللَّطيف الرَّحمن، لعلمي أنَّ أفضل ما يشتغل به العبد في هذا الشهر الكريم هو تلاوة وتدبر القرآن العظيم، فكان أنيسي في الوحشة، وجليسي في الخلوة، أقرأ فيه ليلَ نهار، رجاء أن أكون من الصَّالحين الأبرار.

وكان الكتاب الوحيد -في التفسير- الذي بين يدي، هو كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم ابن جزي الكلبي الغرناطي(3)، وقد كنت قرأته من قبل مرتين، لكن هذه المرة الثالثة، عزمتُ على استخراج

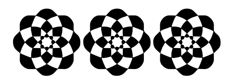
(3) قال الزركلي في الأعلام (5 / 325): "ابن جزي الكلبي محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي، أبو القاسم (ولد عام 693 - وتوفي 741 هـ = 1294 - 1340 م): فقيه من العلماء بالأصول واللغة، من أهل غرناطة، من كتبه "القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية" طبع بتونس، و"تقريب الوصول إلى علم الاصول" و"الفوائد العامة في لحن العامة" و"التسهيل لعلوم التنزيل" تفسير القرآن، و"الأنوار السنية في الألفاظ السنية" و"وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم"، و"البارع في قراءة نافع" و"فهرست" كبير اشتمل على ذكر كثيرين من علماء المشرق والمغرب. وهو من شيوخ لسان الدين ابن الخطيب. قال المقريزي: "فقد وهو يحرض الناس يوم معركة طريف".

أسلوب القرآن وفصاحته، ونظمه وجزالته[4]، فاخترت من كلِّ سورةٍ بعضَ آياتها، إذ الوقوفُ على بلاغةِ كلِّ آيةٍ يعجز المرءُ على عدِّها أو إحصائها، فاستخرتُ اللهَ -تبارك وتعالى-، وشرعت في جمعِ آياتٍ قام المؤلِّفُ رحمه الله بفكِّ مبهمها، وحلِّ مشكلها، فرتَّبتها وعلقت على بعضها، وأضفت آيات أُخر، تتميمًا للفوائد والعبر، فاكتمل هذا الجمع خلالَ ثلاثة أشهر وأربعة أيام، من ليلة واحد رمضان إلى الرابع من شهر الله ذي الحجة من عام 1427هـ الموافق لعام 2006م، بسجن...

ثم لما أكملت مدَّة السجن، وأخرجني ربِّي بصحة وعافية، سنة 1431هـ، أخرجت معي المسوَّدة، وكنت بين الفينة والأخرى، أمكث في المسجد بعد الصلاة، فيسألني سائلٌ عن آية أشكل عليه تركيبها، أو نظمها أو فهمها، فأقول له: "الحمد لله، عندي فيها جواب".

وعندئذ قرأتُ بعض الأجوبة من المسودة على بعض المشايخ فاستحسنوها، وعلى بعض الطلبة فأعجبوا بها، وحينها قذف ربِّي سبحانه في رُوعي نشاطًا وهمَّة، فكان ذلك من البواعث على تبييضِ الكتاب وتحريره، وتكميل ما بقي منه إلى أخيره، فأضفت إليه نقولاتٍ من تفاسير أخرى، مثل تفسير الزمخشري[5]، والطبري، وابن كثير، وابن عاشور، والرازي، وغيرهم، فراجعته من جديد، وأضفت إليه من النقولات العديد، حتى أخرجته -فيما أحسب- أحسن مما كان عليه وأفضل، وحبَّرته تحبيرًا، وبالغت في تهذيبه تقريرًا وتحريرًا، فللَّه الحمدُ والمنَّةُ على ما يسَّر، ولِلهِ الشكرُ على ما قضى وقدَّر.

واللهَ تعالى أسألُ، أن ينفعَ به من يقرأُه، وأن يفتحَ لنا وله الفَهم عنه -جلَّ وعلا-، وأن يجعل القرآنَ ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا، وشفاءَ أمراضنا، وجلاءَ أحزاننا، وذهابَ همومنا، إنَّه قريبٌ مجيبُ الدُّعاء.



(4) كلام جزل أي: قويٌّ شديد. واللفظ الجزل خلاف الرَّكيك. ورجل جزل: ثقف عاقل أصيل الرَّأي. (لسان العرب 109/11).

(5) معلوم أن الزمخشري كان داعية لمذهب المعتزلة، لكن من باب الإنصاف، فإن تفسيره لا يُستغنى عنه. وكما قال الإمام الذهبي رحمه الله عن تفسيره: "وأما التفسير فقد أولع الناس به وبحثوا عنه وبينوا دسائسه وأفردوها بالتصنيف، ومن رسخت قدمه في السنة وقرأ طرفًا من اختلاف المقالات انتفع بتفسيره ولم يضره ما يخشى من دسائسه". (لسان الميزان تحقيق أبي غدة (8/ 9)).

فضلُ الاشتغالِ بالقرآن

قال الإمام السيوطي ﷺ: "قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن، بيان ذلك: أن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها، مثل الصياغة، فإنها أشرف من الدباغة، لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة. وإما بشرف غرضها، مثل صناعة الطب، فإنها أشرف من صناعة الكناسة، لأن غرض الطب إفادة الصحة، وغرض الكناسة تنظيف المستراح. وإما لشدة الحاجة إليها كالفقه، فإن الحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الطب، إذ ما من واقعة من الكون في أحد من الخلق إلا وهي مفتقرة إلى الفقه، لأن به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدين، بخلاف الطب فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات.

إذا عرف ذلك، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث: أما من جهة الموضوع، فلأن موضوعه: كلام الله تعالى، الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، (فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه)[6].

وأما من جهة الغرض، فلأن الغرض منه هو: الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى، وأما من جهة شدة الحاجة، فلأن كلَّ كمال ديني أو دنيوي عاجلي أو آجلي مفتقرٌ إلى العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، وهي متوقِّفة على العلم بكتاب الله تعالى"[7] ا.هـ.

لا إله إلا الله، ما أعظمها من فائدة تُكتَب بماء الذَّهَب!

---

(6) يروى حديثًا، لكنَّه ضعيف، قال الترمذي بعد أن ساقه بسنده: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال". سنن الترمذي (5/ 173).

(7) الإتقان في علوم القرآن (2/465– 466) ما بين قوسين ورد حديثًا مرفوعًا عن علي ﷺ، رواه أحمد والترمذي والدارمي في سننه والسيوطي في جامعه. قال الإمام ابن كثير ﷺ: "وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي ﷺ، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ (مقدمة تفسير ابن كثير 21/1). وقد ضعفه الشيخ الألباني ﷺ في الجامع الصغير (3 / 87).

لقد حثَّ ﷻ على العلم وأوجب طلبه، في غير ما آية، وكان أوَّل ما أنزل على قلب رسوله ﷺ قوله – جلَّ وعلا–: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: 1 – 5]، وقال سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: 122]، وأثنى سبحانه على العلماء في غير ما آية، وحسبك قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: 18]، فقد استخرج الإمام ابن القيم ؒ من هذه الآية ثلاثة وخمسين ومائة دليلٍ على فضل العلم وأهله[8].

والعلماء هُم ورثةُ الأنبياء، كما ورد في حديث أبي الدرداء ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[9].

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود البدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**»[10].

فقدَّم في الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة.

---

(8) ينظر مفتاح دار السعادة (1 / 48 إلى 180).

(9) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه (1/ 289)، والبيهقي، وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1 / 17)، وصححه عند ابن ماجه.

(10) صحيح مسلم (1/ 465) برقم 673.

قال ابن القيم رحمه الله: "ولما كان العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة"[11].

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره: "ولقد أحسن القائل في نظمه في فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسنة الغرَّاء:

إنَّ العلوم وإن جلت محاسنها	فتاجها ما به الإيمان قد وجبا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه	وبعد ذلك علم فرج الكربا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه	نور النبوة سن الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها	فاختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده في معادنه	يا أيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
واتل بفهم كتاب الله فيه أتت	كل العلوم تدبره ترى العجبا
واقرأ هديت حديث المصطفى وسل	مولاك ما تشتهي يقضى لك الأربا
من ذاق طعمًا لعلم الدين سرَّ به	إذا تزيَّد منه قال وا طربا[12]

وقال عزَّ من قائل: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: 28]، وقال -جلَّ وعلا-: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: 9].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فصلٌ قولُه تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: 11] خصَّ سبحانه رفعه بالأقدار والدَّرجات الَّذين أوتوا العلم والإيمان وهم الَّذين استشهد بهم في قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: 18] وأخبر أنَّهم هم الَّذين يرون ما أنزل إلى الرَّسول هو الحقَّ بقوله تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا**

(11) مفتاح دار السعادة (1 / 74).

(12) تفسير القرطبي (1 / 41).

الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: 6] فدلَّ على أنَّ تعلُّم الحجَّة والقيام بها يرفع درجات من يرفعها كما قال تعالى: **﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾** [الأنعام: 83] قال زيد بن أسلم: بالعلم"[13].

فالعلماء الربانيون -الذين مدحهم الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ-، هم الذين يعكفون على كتاب ربهم، تلاوةً وتدبرًا وتفهمًا، فيستخرجون منه الأحكام الشرعية، والفوائد العلمية، التي تقرّبهم إلى مرضات ربهم، امتثالًا لقوله -جلّ وعلا-: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾** [النساء: 82]، قال ابن منظور: "دبَّر الأمر وتدبَّره: نظر في عاقبته. واستدبره: رأى في عاقبته ما لم ير في صدره. وعرف الأمر تدبُّرًا أي: بأخرةٍ.

قال جرير يمدح هلال بن أحوز المازني، ويفخر بأبناء إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ويهجو الفرزدق وبني طهية:

ولا تتَّقون الشَّرَّ حتى يصيبكم ولا تعرفون الأمر إلا تدبُّرا

والتَّدبير في الأمر، أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته. والتَّدبُّر: التفكر فيه"[14].

وقال السجستاني: "يتدبرون القرآن: يقال: تدبرت الأمر، أي نظرت في عاقبته، والتّدبير هو قياس دبر الكلام بقبله لينظر هل يختلف؟ ثمّ جعل كل تمييز تدبيرًا"[15].

وهذه الصيغة فيها إنكار وتوبيخ لمن أعرض عنه جملةً وتفصيلًا، أو يقرؤه بلسانه دون تدبر، كما جاء في الصحيحين وغيرهما في وصف الخوارج الذين خرجوا عن علي رضي الله عنه: **«يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»**[16].

(13) مجموع فتاوى ابن تيمية (3 / 399).
(14) لسان العرب (4 / 268).
(15) غريب القرآن للسجستاني (1 / 524).
(16) جزء من حديث رواه الشيخان: صحيح البخاري (6/ 2541) برقم 6535، صحيح مسلم (2/ 741) برقم 1064.

قال ابن القيم رحمه الله: "وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع، والتفهم والتبين. وسمي استبصارًا وهو استفعال من التبصر، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة. وكل من التذكر والتفكر، له فائدة غير فائدة الآخر.

فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة، والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب، فالتفكر يحصله، والتذكر يحفظه"[17].

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: "وأمَّا في "باب فَهم القرآن" فهو دائم التَّفكُّر في معانيه والتَّدبُّر لألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام النَّاس، وإذا سمع شيئًا من كلام النَّاس وعلومهم عرضه على القرآن فإن شهِد له بالتَّزكية قبله وإلَّا ردَّه، وإن لم يشهد له بقبول ولا ردٍّ وقفه، وهمَّته عاكفة على مراد ربِّه من كلامه، ولا يجعل همَّته فيما حجب به أكثر النَّاس من العلوم عن حقائق القرآن إمَّا بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنَّطق بالمدِّ الطَّويل والقصير والمتوسِّط وغير ذلك؛ فإنَّ هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرَّبِّ من كلامه وكذلك شغل النُّطق بـ (أأنذرتهم) وضمُّ الميم من (عليهم) ووصلها بالواو وكسر الهاء أو ضمُّها ونحو ذلك. وكذلك مراعاة النَّغم وتحسين الصَّوت. وكذلك تتبُّع وجوه الإعراب واستخراج التَّأويلات المستكرهة الَّتي هي بالألغاز والأحاجيِّ أشبه منها بالبيان"[18].

واعلم -علَّمَني اللهُ وإيَّاك- أنَّ مراد الله تعالى من إنزال كتابه هو الاهتداء به، واتِّباع أحسن ما فيه، وذلك بفَهم كلامه فَهمًا صحيحًا، ولا يتأتَّى ذلك إلا لمن اطَّلع على علوم القرآن، وهي خمسة وعشرون بابًا، كما قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري في كتاب التنبيه: "من أشرف علوم القرآن، علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية،

(17) مفتاح دار السعادة (1 / 183).

(18) مجموع الفتاوى (16 / 50).

وما نزل ليلًا، وما نزل نهارًا، وما نزل مشيعًا، وما نزل مفردًا، والآيات المدنيات في السور المكية، والآيات المكيات في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملًا، وما نزل مفسرًا، وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي، فهذه خمسة وعشرون وجهًا، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى". انتهى[19].

قال الإمام الزركشي رحمه الله: "وقد روى عبد الرزاق في تفسيره: حدثنا الثوري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قسم التفسير إلى أربعة أقسام: "قسم تعرفه العرب في كلامها، وقسم لا يعذر أحد بجهالته –يقول: من الحلال والحرام[20]–، وقسم يعلمه العلماء خاصة، وقسم لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه فهو كاذب". وهذا تقسيم صحيح، فأما الذى تعرفه العرب فهو الذى يرجع فيه إلى لسانهم، وذلك شأن اللغة والإعراب.. إلخ[21]".

وقال الإمام السيوطي رحمه الله: "وقال بعضهم: اختلف الناس في تفسير القرآن، هل يجوز لكل أحد الخوض فيه؟ فقال قوم: لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن وإن كان عالِمًا أديبًا متسعًا في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار، وليس له إلا أن ينتهي إلى ما روي عن النَّبي ﷺ في ذلك. ومنهم من قال: يجوز تفسيره لمن كان جامعًا للعلوم التي يحتاج المفسر إليها وهي خمسة عشر علمًا"[22].

واعلم –فتحَ اللهُ لي ولك– أنَّ الناس في مسائلهم رجلان: إمَّا جادٌّ باحثٌ عن الحق، وإمَّا زائغٌ قد باض الشيطان في رأسه وفرخ، فراح يسأل تعجيزًا عما لا سبيل له لإدراك كنهه.

فأما الأول: فممدوح أمره، كما جاء عن المنهال بن عمرٍو، عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، قال سعيد: "يا ابن عبّاسٍ، إنِّي أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، فقد وقع في صدري، فقال ابن عبّاسٍ: تكذيب؟

(19) الإتقان في علوم القرآن 34/1.

(20) أي أن الحلال بين والحرام بين، إلا في حالات قد يخفى الحلال من الحرام فلا يؤثم العبد فيها إذا تحرى الصواب. والله أعلم.

(21) البرهان في علوم القرآن (2 / 164).

(22) الإتقان في علوم القرآن (2 /477).

فقال الرّجل: ما هو بتكذيبٍ، ولكن اختلاف، قال ابن عبَّاسٍ: فهلمَّ ما وقع في نفسك.

فقال له الرَّجل: أسمع الله يقول: ﴿**فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون: 101]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [الصافات: 27]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿**وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا**﴾ [النساء: 42]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: 23]، فقد كتموا في هذه الآية، وفي قوله: ﴿**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ [النازعات: 27 – 30]، فذكر في هذه الآية خلق السّماوات قبل خلق الأرض، ثمَّ قال في هذه الآية الأخرى: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت: 9 – 11]، فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل خلق السّماء، ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾، ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾، فكأنَّه كان ثمَّ مضى.

فقال ابن عبَّاسٍ: هات ما في نفسك.

قال السَّائل: إذا أنبأتني بهذا فحسبي.

فقال ابن عبَّاسٍ: قوله: ﴿**فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾، فهذا في النَّفخة الأولى، ينفخ في الصُّور، فصعق من في السَّموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثمَّ إذا كان في النَّفخة الأخرى قاموا فأقبل بعضهم على بعضٍ يتساءلون، فأمَّا قوله: ﴿**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾، وقوله: ﴿**وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا**﴾، فإنَّ الله ﷻ يغفر يوم القيامة لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركًا، فلمَّا رأى المشركون ذلك، قالوا: إنَّ ربَّنا يغفر الذُّنوب، ولا يغفر الشِّرك، فقالوا: نقول: إنَّما كنَّا أهل ذنوبٍ، ولم نكن مشركين، فقال الله ﷻ: أمَّا إذ كتمتم الشِّرك فاختموا على أفواههم، فختم على أفواههم فتنطق أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند

ذلك عرف المشركون أنَّ الله لا يكتم حديثًا، فعند ذلك ﴿**يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا**﴾ [النساء: 42].

وأمَّا قوله: ﴿**أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾، فإنَّه خلق الأرض في يومين قبل خلق السَّماء، ثمَّ استوى إلى السَّماء فسوَّاهنَّ في يومين آخرين، ثمَّ نزل إلى الأرض فدحاها، ودحاها أن أخرج فيها الماء والمرعى، وشقَّ فيها الأنهار، فجعل فيها السُّبل، وخلق الجبال والرِّمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾، وقوله: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ**﴾، فجعلت الأرض وما فيها من شيءٍ في أربعة أيَّامٍ، وجعلت السَّماوات في يومين.

وأمَّا قوله: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾، ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾؛ فإنَّ الله ﷻ سمَّى نفسه ذلك، ولم ينحله غيره، وكان الله أي لم يزل كذلك، ثمَّ قال للرَّجل: احفظ عنِّي ما حدَّثتك، واعلم أنَّ ما اختلف عليك من القرآن أشياء ما حدَّثتك، فإنَّ الله ﷻ لم ينزل شيئًا إلا قد أصاب به الَّذي أراد، ولكنَّ النَّاس لا يعلمون، فلا يختلفنَّ عليك، فإنَّ كلًّا من عند الله"[23].

وأما الثاني: فمذموم فعله، وحاله كحال صبيغ، فقد أخرج الدارمي في مسنده عن سليمان بن يسار: "أن رجلًا يقال له صبيغ، قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر -وقد أعد له عراجين النخل- فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن صبيغ، فأخذ عمر عرجونًا من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه.

(23) رواه الطبراني في المعجم الكبير (9/ 104) برقم 10448، وأصله في صحيح البخاري في باب تفسير سورة فصلت.

وفي رواية عنده: "فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة، ثم تركه حتى برأ ثم عاد، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود فقال: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلًا جميلًا، فأذن له إلى أرضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري ﷺ: لا يجالسه أحد من المسلمين"(24).

وأخرج الدارمي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "إنه سيأتيكم ناس يجادلونكم بمشتبهات القرآن فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنة أعلم بكتاب الله"(25).

القصد: أن الاشتغال بالقرآن تعلمًا وتعليمًا، ودراسة وتدريسًا، وترتيلًا وتفسيرًا؛ هو اشتغال بأفضل العلوم وأرفعها قدرًا، وأجلها خطرًا، وأعظمها أجرًا، وأشرفها ذكرًا، إذ كلما ازداد المؤمن معرفة بالقرآن؛ ازداد معرفة بالمتكلم به، فيزداد تعظيمًا لربه، وإصغاء، ومحبة، وهيبة، وإجلالًا، وتقديرًا، وخشية، وإعراضًا عن كل كلام، إلا كلام ربه أو مستمدًا منه، كأحاديث النبي ﷺ.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "يا من يعاتبه القرآن وقلبه غافل، وتناجيه الآيات وفهمه ذاهل، اعرف قدر المتكلم وقد عرفت الكلام، وأحضر قلبك الغائب وقد فهمت الملام"(26).

وأمَّا إذا لم يكن للمرء حظٌّ من علوم القرآن، ولم يطالع كتب التفسير، مع ما هو عليه من جهل بلسان العرب، وقلب مفتون بشهوات الدنيا وزينتها، فسيكون حاله مع القرآن كحال الغريب، مهما ادعى الإيمان به، وحبه وتعظيمه.

أمَّا الصَّحابة ﷺ فقد كان لهم شأنٌ عجيب مع القرآن، فقد روى الطحاوي بسنده عن القاسم بن عوفٍ، قال: سمعت عبد الله بن عمر، يقول: "لقد عشنا برهةً من دهرٍ وأحدنا يرى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السُّورة على محمَّدٍ ﷺ فنتعلَّم حلالها وحرامها، وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن نوقف عنده منها، كما

(24) سنن الدارمي (66/1 -67) برقم 144، 147، وينظر الإتقان 9/2.
(25) سنن الدارمي (1/ 62) برقم 119.
(26) التبصرة لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي 371/1.

تعلَّمون أنتم اليوم القرآن، ثمَّ لقد رأيت اليوم رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ولا يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه وينثره نثر الدَّقَل"(27).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "قال تعالى: ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾ [الأنعام: 83] قال زيد بن أسلم: بالعلم. فرفع الدَّرجات والأقدار على قدر معاملة القلوب بالعلم والإيمان فكم ممَّن يختم القرآن في اليوم مرَّةً أو مرّتين، وآخر لا ينام اللَّيل، وآخر لا يفطر، وغيرهم أقلُّ عبادةً منهم، وأرفع قدرًا في قلوب الأمّة. فهذا كرز بن وبرة وكهمس وابن طارقٍ يختمون القرآن في الشَّهر تسعين مرَّةً، وحال ابن المسيّب وابن سيرين والحسن وغيرهم في القلوب أرفع"(28).

ويروى أنه مكتوب في التوراة: "يا عبدي أما تستحي مني؟ يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبره حرفًا حرفًا حتى لا يفوتك شيء منه، وهذا كتابي أنزلته إليك، انظر كم فصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه لتتأمل طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه. أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟ يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن: كف. وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني، أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك؟"(29).

ففي هذا الأثر الإسرائيلي –وهو لا يُصدَّق ولا يُكذَّب– إشارة إلى أن الواجب على العبد والأجدر به إذا سمع آيات الله تتلى أن يقبل إليها إقبالًا، ويصغى إليها إصغاء، ويتدبرها بقلبه وهو شاهد، كما روى ابن أبي حاتم بسنده أن رجلا أتى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فقال: اعهد إلي. فقال: "إذا سمعت الله يقول: **(يا أيّها الّذين آمنوا)** فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(30).

---

(27) أحكام القرآن للطحاوي (1 / 245) رواه البيهقي في السنن الكبرى (3/ 171) ومصنف ابن أبي شيبة (2/ 256).

(28) مجموع الفتاوى (16 / 48 - 49).

(29) إحياء علوم الدين (1 / 284).

(30) تفسير ابن أبي حاتم.

وأما عجائب القرآن وعلومه، وغرائبه وفنونه، فقد حال بيننا وبين فهمها وتذوق حلاوتها، حجاب الذنوب، وكثرة العيوب، وإلا لأطلعنا ربنا على ما يحير القلوب، كما روى أبو نعيم بسنده في حلية الأولياء، عن سفيان بن عيينة قال: قال عثمان بن عفان ﷺ: "لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام الله، وما أحب أن يأتي علي يوم ولا ليلة إلا أنظر في كلام الله –يعني في المصحف–"[31].

وقال ابن مسعود ﷺ: "من أراد العلم فليثوِّر القرآن؛ فإن فيه علم الأوَّلين والآخرين"[32].

وقال أبو يوسف الفولي سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: "لقيت عابدًا من العباد قيل أنه لا ينام الليل، فقلت له: لم لا تنام؟ فقال لي: منعتني عجائب القرآن أن أنام"[33].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس ﷺ قال: "إنَّ القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء"[34].

وقال أسلم بن عبد الملك: صحِبت رجلًا شهرين، وما رأيته نائمًا بليل ولا نهار، فقلت: ما لك لا تنام؟ قال: "إنَّ عجائب القرآن أطرْنَ نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى"[35].

وروى ابن نصر بسنده من طريق أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا مأدبته ما استطعتم، وإن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع، عصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي

---

(31) حلية الأولياء (7 / 300).

(32) المعجم الكبير للطبراني (8 / 43) شعب الإيمان للبيهقي (4 / 470) قال شمر: تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه. انتهى. وثورت الأمر بحثت فيه، وثور القرآن بحث عن معانيه وعن علمه (ينظر لسان العرب (4 / 108)).

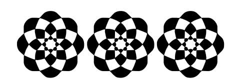
(33) حلية الأولياء (3 / 360).

(34) ذكره السيوطي في الإتقان (487/2).

(35) صفة الصفوة (2 / 34) مواعظ ابن الجوزي (1 / 3).

عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول بـ (ألم) ولكن بألف عشرًا وباللام عشرًا وبالميم عشرًا"(36).

وأخرج الآجري بسنده عن ابن مسعود ﷺ قال: "لا تنثروه نثرَ الدَّقَل، ولا تهذوه هذَّ الشِّعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخرَ السورة"(37).



(36) كتاب "مختصر قيام الليل" (ص: 171) لابن نصر المروزي. قال ابن كثير رحمه الله: "يحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم". تفسير ابن كثير (1 / 22). وقال الشيخ الألباني رحمه الله: وهذا إسناد لا بأس به في المتابعات، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير الهجري واسمه إبراهيم بن مسلم وهو لين الحديث. (سلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 265)).

(37) أخلاق أهل القرآن ص5.

تنبيهٌ وإرشادٌ

هناك تنبيهان أود أن أذكِّر بهما نفسي والقارئ لهذا الكتاب، حتى لا يُفهم هذا الموضوع فهمًا خاطئًا.

التنبيه الأول: إن كل الأجوبة واللطائف والفوائد التي ذكرتها هنا -سواء منها المنسوبة إلى العلماء، أو التي من بنات صدري ومما فتحه اللهُ علي- إنما هي ظنٌّ راجحٌ وليست يقينًا قاطعًا -خاصَّة فيما ليس له علاقة بلسان العرب- ومن ثَمَّ فقد تأتي مسألة ولها أكثر من جواب، ولكن مع تدبُّر أسلوب القرآن، ومعرفة لسان العرب، وأساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بُلَغائهم، والاستئناس بالأحاديث النبوية، يتمكَّن العالم من استنباط الجواب، وحلِّ المسألة، فيرجح الأقرب لفهمه، ثم يبقى العلم عند الله تعالى.

التنبيه الثاني: إن مثل هذه الدراسات القرآنية، والتي يطلق عليها: الإعجاز العلمي، أو الإعجاز البياني، أو ما شابه ذلك، إنما هي وسيلة لأمرين فقط، وليست غاية:

الأمر الأول: تثبيت قلب المؤمن، وازدياد إيمانه ويقينه، إذ كلما ازداد المؤمن معرفة بالقرآن؛ ازداد علمًا بمنزله -جل وعلا-، فيزداد حبًّا وخشيةً وتعظيمًا وهيبةً له ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا**﴾ الآية [المدثر: 31]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ [التوبة: 124].

الأمر الثاني: تحصيل الزاد العلمي لدى الداعية، إذ معلومٌ أن من صعِد المنبر وتصدَّى للدعوة إلى الله تعالى عليه أن يراعي مراتبَ نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقتنع إلَّا بالحجة والدليل، ومنهم المجادل الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهِّب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله تعالى، ومنهم المكابر المعاند، الذي لا يقلعه عن شغبه إلَّا القوارع والزواجر.

ومن ثم ينبغي له أن يحصل على قدر عالٍ من العلوم الشرعية، وثقافة تزيدُ على العلم الضروري لعامَّة المسلمين، خاصَّة في عصر طغت عليه السُّرعة، وانتشرت فيه وسائل العلم بشكل يحير العقول!

فإذا ما خلت أي دراسة للقرآن من هذين الأمرين، وانحصرت في استخراج ما يسمى بـ"الإعجاز" -سواء منها العلمي أو الطبي أو الفلكي أو البياني أو العددي أو ما شابه ذلك؛ صارت -تلك الدراسة- مضيعة للوقت ليس إلَّا، خاصَّة في زمانٍ كزماننا، وواقعٍ كواقعنا، حيث إنَّ الأمَّة الإسلاميَّة في حاجة إلى من يربِّي جيلها على الزُّهد في الدنيا، وعلى حب الموت والقتال، ليعود لها مجدها وعزها، إذ حب الدنيا وكراهية الموت، هما الداءان المهلكان للأمة الإسلامية، ففي الحديث عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ:«**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**»، فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**»، فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[38].

والعِلَّة في ذلك، أنَّ الله تعالى إنما أنزل القرآن لعبادته، وجعل تدبره وسيلة لذلك، كما قال سبحانه: ﴿**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (1) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**﴾ [هود: 1، 2]، قال الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: "هذه الآية الكريمة فيها الدِّلالة الواضحة على أنّ الحكمة العظمى الّتي أنزل القرآن من أجلها: هي أن يعبد الله جلَّ وعلا وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء"[39].

وقال سبحانه: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [ص: 29]، قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما تدبَّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: "قرأت القرآن كله" ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل". رواه ابن أبي حاتم[40].

فإذن: العبادة -بمفهومها الشرعي الشامل- هي الغاية من إنزال القرآن، والتدبر وسيلتها، والعبرة في العلم: العمل به.

---

(38) رواه أبو داود (4/ 184) برقم 4299، والبيهقي في شعب الإيمان (7/ 297) برقم 10372. (ينظر: مشكاة المصابيح (3/ 1474)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 647)).

(39) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2 / 168).

(40) تفسير ابن كثير (7 / 64).

قال معاذ بن جبل ﷺ: "اعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجرَكم الله حتى تعملوا"[41].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ عُلَمَاؤُهُ كَثِيرٌ وَخُطَبَاؤُهُ قَلِيلٌ مَنْ تَرَكَ فِيهِ عُشَيْرَ مَا يَعْلَمُ هَوَى أَوْ قَالَ هَلَكَ وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَقِلُّ عُلَمَاؤُهُ وَيَكْثُرُ خُطَبَاؤُهُ مَنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بِعُشَيْرِ مَا يَعْلَمُ نَجَا**»[42].

قال الخطيب البغدادي ﷺ في مقدمة كتابه (اقتضاء العلم العمل): "ثم إني موصيك -يا طالب العلم- بإخلاص النية بطلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، **وليس يعد عالمًا من لم يكن بعلمه عاملًا**،...، فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصرًا في العمل، ولكن اجمع بينهما، وإن قل نصيبك منهما" انتهى باختصار[43].

وقال صاحب الظِّلال ﷺ: "**إنَّ هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرَّك به، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع، لا لمن يقرؤونه لمجرد التبرُّك! ولا لمن يقرؤونه لمجرَّد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبُّع الأداء البياني فيه! إنَّ هؤلاء جميعًا لن يدركوا من هذا القرآن شيئًا يذكر، فإنَّ هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو، إنَّما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه**"[44].

(41) رواه الدارمي في سننه (باب العمل بالعلم وحسن النية فيه) والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (1 / 21) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ص: 361). قلت: لكن معناه صحيح، والله أعلم. وقد رأيت الحافظ العراقي يقول عن هذا الأثر في تخريج أحاديث الإحياء (1 / 151): علقه ابن عبد البر وأسنده ابن عدي وأبو نعيم والخطيب -في كتاب اقتضاء العلم للعمل- من حديث معاذ فقط بسند ضعيف ورواه الدارمي موقوفا على معاذ بسند صحيح.

(42) رواه أحمد من حديث أبي ذرٍّ (35/ 299) برقم 21372، والترمذي من حديث أبي هريرة (4/ 530) برقم 2267، وصححه الشيخ الألباني ﷺ في السلسلة الصحيحة رقم الحديث (2510) ويروى أيضًا عن ابن مسعود موقوفًا.

(43) ينظر اقتضاء العلم العمل (ص/14).

(44) في ظلال القرآن (4 / 1948).

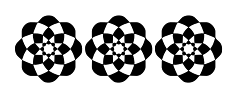
فالقصد من هذا التنبيه، إرشاد المؤمن لأن يكون همُّه -وهو يقرأ أو يستمع لموضوع الإعجاز في القرآن- امتثالَ أمر الله تعالى، واجتناب نهيه، والإيمان بما أخبر به، والتزوُّد بالحجج الدامغة لدحض شبه المنحرفين، ونسف دعاوى المبطلين، حتى يكون خير خلف، لخير سلف، فقد كان الصحابة ﷺ يقرؤون القرآن من أجل العمل.

روى الطحاوي بسنده عن ابن مسعودٍ ﷺ، قال: "كنَّا نتعلَّم من رسول الله ﷺ عشر آياتٍ، فما نتعلَّم العشر بعدهنَّ حتَّى نتعلَّم ما أنزل في هذا العشر من العمل"[45].

وقال محمَّد بن الفضل رحمه الله[46]: "ذهاب الإسلام من أربعة: أولها: لا يعملون بما يعلمون. والثاني: يعملون بما لا يعلمون. والثالث: لا يتعلَّمون ما لا يعلمون. والرابع: يمنعون الناس من التعلم".

فاللهمَّ إنِّي أعوذ بك من قلبٍ لا يخشع، ومن دعاءٍ لا يسمع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن علمٍ لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع.

ولعلَّ في هذا القدر كفاية، وهذا أوانُ الشُّروع في المقصود، والله المستعان وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



(45) أحكام القرآن للطحاوي (1 / 245).

(46) هو محمَّد بن الفضل بن العبَّاس البلخيُّ، الواعظ، نزيل سمرقند. قال الذهبي في ميزان الاعتدال (4 / 9): لا أعرفه. قال ابن النجار: ضعفه أبو بكر بن أبي الدنيا. وروى هذا الأثر البيهقي في شعب الإيمان (2/ 293) برقم 1817.

سورة الفاتحة

قال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الآية: 3].

إن قيل كيف جر (ملك)، وملك صفة للمعرفة، وإضافة اسم الفاعل غير محضة؟

قال الإمام أبو البقاء العكبري رَحِمَهُ اللهُ: "ويقرأ بالألف والجر، وهو على هذا نكرة، لأن اسم الفاعل إذا أريد به الحال أو الاستقبال لا يتعرف بالإضافة فعلى هذا يكون جره على البدل لا على الصفة، لأن المعرفة لا توصف بالنكرة. وفي الكلام حذف مفعول تقديره: "مالك أمر يوم الدين"، أو "مالك يوم الدين الأمر". وبالإضافة إلى (يوم) خرج عن الظرفية، لأنه لا يصح فيه تقدير "في" لأنها تفصل بين المضاف والمضاف إليه.."[47].

وقال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قلت: ما هذه الإضافة؟ قلت: هي إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع، جرى مجرى المفعول به كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، والمعنى على الظرفية. ومعناه: مالك الأمر كله في يوم الدين، كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: 16].

فإن قلت: فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقة فلا تكون معطية معنى التعريف، فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة؟ قلت: إنما تكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال أو الاستقبال، فكان في تقدير الانفصال، كقولك: مالك الساعة، أو غدًا. فأمَّا إذا قصد معنى الماضي، كقولك: هو مالك عبده أمس، أو زمان مستمرٍّ، كقولك: زيد مالك العبيد، كانت الإضافة حقيقية، كقولك: مولى العبيد، وهذا هو المعنى في (مالك يوم الدين)، ويجوز أن يكون المعنى: ملك الأمور يوم الدين، كقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 44]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: 48]، والدليل عليه قراءة أبي حنيفة: ﴿ملك يوم الدين﴾، وهذه الأوصاف التي أجريت على الله سبحانه من كونه ربًّا مالكًا للعالمين لا يخرج منهم شيء من ملكوته وربوبيته، ومن كونه منعمًا بالنعم كلها الظاهرة والباطنة والجلائل والدقائق، ومن كونه مالكًا

(47) التبيان في إعراب القرآن (1/ 6).

للأمر كله في العاقبة يوم الثواب والعقاب بعد الدلالة على اختصاص الحمد به وأنه به حقيق في قوله: (الحمد لله) دليل على أنّ من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه بالحمد والثناء عليه بما هو أهله"[48].

قلت: فإن سأل سائل: "ما الفرق بين (مالك يوم الدِّين) وهي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب وخلف، وبين قراءة الجمهور (ملك يوم الدِّين)؟

فالجواب: قال البغوي رحمه الله: "قال قوم: معناهما واحد مثل فرهين وفارهين، وحذرين وحاذرين ومعناهما الرب يقال رب الدار ومالكها. وقيل المالك والملك هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود ولا يقدر عليه أحد غير الله.

قال أبو عبيدة: مالك أجمع وأوسع لأنه يقال: مالك العبد والطير والدواب. ولا يقال ملك هذه الأشياء. ولأنه لا يكون مالكًا لشيء إلا وهو يملكه، وقد يكون ملك الشيء ولا يملكه.

وقال قوم: ملك أولى لأن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكًا، ولأنه أوفق لسائر القرآن مثل قوله تعالى: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ [طه: 114] [المؤمنون: 116]، ﴿**الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ**﴾ [الحشر: 23]"[49].

وقال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "وقد تصدَّى المفسِّرون والمحتجُّون للقراءات لبيان ما في كلٍّ من قراءة (ملك) -دون ألفٍ- وقراءة (مالك) -بالألف- من خصوصيَّاتٍ بحسب قصر النَّظر على مفهوم كلمة ملك ومفهوم كلمة (مالك)، وغفلوا عن إضافة الكلمة إلى يوم الدِّين، فأمَّا والكلمة مضافة إلى يوم الدِّين فقد استويا في إفادة أنَّه المتصرف في شؤون ذلك اليوم دون شبهة مشاركٍ، ولا محيص عن اعتبار التَّوسُّع في إضافة (ملكٍ) أو (مالكٍ) إلى (يوم) بتأويل شؤون يومِ الدِّين.

---

(48) تفسير الكشاف (1 / 12).

(49) معالم التنزيل البغوي (1 / 53).

على أنّ (مالك) لغة في (ملك) ففي "القاموس": "وكأميرٍ وكتفٍ وصاحبٍ ذو الملك"[50].

قلت: فإن قيل: أليس الله ﷻ ملك الدنيا والآخرة، فلم قال: (ملك يوم الدِّين)؟

الجواب: بلى، ولكنه سبحانه لما قال قبلها: (رب العالمين) دخل ملكه ضمنيًّا في الدنيا، ولذلك ورد في الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ**»[51].

وعن عبد الله بن مسعود قال: كان نبي الله ﷺ إذا أمسى قال: «**أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ أُرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ: لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ**»[52]، ولكن لما تقلد الملك بعض البشر، حصر الحق سبحانه الملك يوم الدين في نفسه، لأنه الملك الحق، ولأن الناس يأتون يوم القيامة لا يملكون لأنفسهم شيئا، بل يأتون حفاة عراة غرلا، لا فرق بين من كان ملكا ومن كان مملوكًا، ولذلك قال ﷻ: ﴿**يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾ [غافر: 16]، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**»[53]، وفي رواية عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**

(50) التحرير والتنوير (1 / 175).

(51) صحيح مسلم (1/ 521) برقم 758، والترمذي في سننه وأحمد في مسنده.

(52) رواه مسلم (4/ 2088) برقم 2723، وأبو داود والترمذي في سننيهما، وابن حبان في صحيحه (3/ 243)، وغيرهم.

(53) **متفق عليه**: صحيح البخاري (4/ 1812) برقم 4534، صحيح مسلم (4/ 2148) برقم 2787.

السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ»(54). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الآية: 4].

إن قيل: ما الحكمة في تقديم المفعول على الفعل؟

قيل له: قدم اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهم. يذكر أن أعرابيا سب آخر فأعرض المسبوب عنه، فقال له الساب: "إياك أعني"، فقال له الآخر: "وعنك أعرض"، فقدما الأهم. وأيضا لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود، فلا يجوز نعبدك ونستعينك، ولا: نعبد إياك ونستعين إياك، فيقدم الفعل على كناية المفعول، وإنما يتبع لفظ القرآن.

وقال العجاج:

إيَّـــاك أدعـــو فتقبـــل ملقـــي   واغفـر خطايـاي وكثـر ورقـي(55)

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "فإن قيل: فما معنى النون في قوله: (**إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين**) فإن كانت للجمع فالداعي واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب: بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها، وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كأن العبد قيل له: إذا كنت في العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل: (**إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين**)، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا، ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لافتقار الجميع إلى الله عز وجل. ومنهم من قال: ألطف في التواضع من إياك أعبد، لما في الثاني من تعظيمه نفسه من جعله نفسه وحده

(54) رواه مسلم في صحيحه (4/ 2148) برقم 2788، وابن ماجه في سننه وكذلك أبو داود.

(55) تفسير القرطبي (1 / 145) قوله: ملقي: أي دعائي وتضرعي. وأما: وكثر ورقي: أي مالي من الإبل والغنم.

أهلا لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يثني عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

لا تـــدعني إلا بيـــا عبـــدها فإنَّـــه أشـــرف أسمـــائي

وقد سمى الله رسوله بعبده في أشرف مقاماته"[56].

قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (5) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية: 5، 6].

إن قيل: كيف يطلب المؤمنون الهدى وهو حاصل لهم؟

فالجواب: أن ذلك طلب للثبات عليه إلى الموت أو الزيادة منه، فإن الارتقاء في المقامات لا نهاية له[57].

قال مقيده: قال ابن القيم ﷺ: "ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من يقول: "إذا كنا مهتدين فكيف نسأل الهداية؟"، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلًا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى وهي آخر مراتبها، وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصل إليها، فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط، فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبوا

---

(56) تفسير ابن كثير (1/ 135- 136).

(57) قاله ابن جزي في التسهيل.

حبوا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في النار[58]، فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة جزاءً وفاقًا ﴿**هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [النمل: 90]"[59].

وإن قيل: ما الحكمة في تقديم صفة (الرحمن الرحيم) على (ملك يوم الدين)؟

فالجواب: قدم (الرحمن الرحيم) على (ملك يوم الدين) لأن رحمة الله سبقت غضبه[60]، وكذلك قدم إياك نعبد على إياك نستعين، لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة.

وإن قيل: لم افتتح السورة بالحمدلة؟

فالجواب: لأن من شأن الطلب أن يأتي بعد المدح، ولذلك كان من سنة الدعاء تقديم الحمد والثناء، قبل الطلب والرجاء[61].

قال مقيده: وقد روى الترمذي من حديث عبد الله أنه قال: "كنت أصلِّي والنَّبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وعمر معه، فلمَّا جلست بدأت بالثَّناء على الله ثمَّ الصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ ثمَّ دعوت لنفسي فقال النَّبيُّ ﷺ: «**سَلْ تُعْطَهْ سَلْ تُعْطَهْ**»"[62].

وإن قيل: لم عدل ﷻ عن طريق الغيبة إلى الخطاب، بعد قوله: (إياك نعبد وإياك نستعين)؟

فالجواب: أن ذلك يسمى الالتفات، وفيه إشارة إلى أن العبد إذا ذكر الله تقرب منه، فصار من أهل الحضور فناداه بصيغة الخطاب[63].

---

(58) أخرجه البخاري في صحيحه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو من الأحاديث الطوال، وهذا طرف منه. ورواه كذلك أحمد في مسند عائشة، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

(59) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1 / 7 – 8).

(60) في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي، واللفظ للبخاري.

(61) قاله ابن جزي في التسهيل 64/1.

(62) رواه الترمذي في سننه (2 / 467). والتبريزي في مشكاة المصابيح (1 / 203) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (1/ 294).

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ**﴾ [يونس: 22]. وقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ**﴾ [فاطر: 9]. وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفاتات في ثلاثة أبيات:

تطـــــاول ليلـــــك بالأثمـــــد	ونـــــام الخلـــــيّ ولم ترقـــــد
وبـــــات وباتـــــت لـــــه ليلـــــة	كليلـــــة ذي العـــــائر الأرمـــــد
وذلـــــك مـــــن نبـــــإ جـــــاءني	وخبَّرتـــــه عـــــن أبي الأســـــود"[64]

قوله تعالى: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الآية: 7].

قال مقيده –عفا الله عنه–: إن قيل لم عطف (ولا الضالين) على (غير المغضوب عليهم)؟

فالجواب: قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "ارتقاء في التّعوّذ من شرّ سوء العاقبة لأنّ التّعوّذ من الضّلال الّذي جلب لأصحابه غضب الله لا يغني عن التّعوّذ من الضّلال الّذي لم يبلغ بأصحابه تلك الدّركات، وذلك وجه تقديم (المغضوب عليهم) على (ولا الضَّالِّين)، لأنّ الدّعاء كان بسؤال النّفي، فالتّدرّج فيه يحصل بنفي الأضعف بعد نفي الأقوى، مع رعاية الفواصل"[65].

قال مقيده: فإن قيل لم دخلت (لا) على (الضَّالِّين) فهلا قال: غير المغضوب عليهم والضالين؟

=

(63) التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 64 – 65).

(64) الكشاف 14/1 العائر: هو القذي يقع في العين وقيل: هو نفس الرمد.

(65) التحرير والتنوير (1/ 196 – 197).

فالجواب: قال العلامة ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال مكّيّ ابن أبي طالبٍ[66]: إنّ دخول (لا) لدفع توهّم عطف (الضّالّين) على (الّذين أنعم عليهم)، وهو توجيه بعيد فالحقّ أنّ (لا) مزيدة لتأكيد النّفي المستفاد من لفظ (غير) على طريقة العرب في المعطوف على ما في حيّز النّفي نحو قوله: (أن تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ) [المائدة: 19] وهو أسلوب في كلام العرب. وقال السّيّد[67] في «حواشي الكشَّاف»: "لئلّا يتوهّم أنّ المنفيّ هو المجموع فيجوّز ثبوت أحدهما"، ولما كانت غير في معنى النّفي أجريت إعادة النّفي في المعطوف عليها، وليست زيادة (لا) هنا كزيادتها في نحو: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾ [الأعراف: 12] كما توهّمه بعض المفسّرين، لأنَّ تلك الزّيادة لفظيّة ومعنويّة لأنَّ المعنى على الإثبات، والَّتي هنا زيادة لفظيّة فحسب، والمعنى على النّفي".ا.هـ[68].

قلت: فإن قيل: لم جعلت سورة الفاتحة في مقدمة السور، وهلا قدمت عليها سورة البقرة، التي هي أطول سورة في القرآن، أو سورة العلق التي هي أول ما نزل؟

فالجواب: إن كان ترتيب السور توقيفيًّا، فلا مجال للخوض في هذا السؤال، اللهم أن يكون السؤال لمعرفة بعض الحكم من الافتتاح بها دون غيرها.

---

(66) مكي ابن أبي طالب واسمه محمد ويقال له حموس، ابن مختار القيسي، وأصله من القيروان، نزيل قرطبة أبو محمد المقرئ المالكي. (355- 437 هـ / 965 - 1045 م)، كان راوية مقرئا اديبا متفننا، ألف ما يربو على تسعين كتابا في علوم القرآن منها: (الكشف عن وجوه القراءات السبع)، وكتاب (مشكل اعراب القرآن)، و(الإبانة عن معاني القراءات)، و(والرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة).أخذ عنه أبو الوليد الباجي بالأندلس. (التعديل والتجريح (1 / 72 - 73) ترتيب المدارك وتقريب المسالك (2/ 47).

(67) هو العلامة السيد الشريف علي بن محمد أبو الحسن الجرجاني، المحقق الحنفي، من كبار علماء اللسان العربي، ولد بجرجان سنة 740 وتوفي بشيراز سنة 816، وله مؤلفات تزيد على الخمسين، منها شرح المواقف، وشرح المفتاح، وشرح السراجية وحاشية البيضاوي، وحاشية على الكشاف وصل فيها إلى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها). ينظر ديوان الإسلام لابن الغزي (1 / 50).

(68) المصدر نفسه (1 / 198- 199).

وإن كان ترتيب السور من اجتهاد الصحابة ﷺ -وهو كذلك- كما قال الإمام السيوطي ﷺ: "قال ابن فارس: جمع القرآن على ضربين، أحدهما: تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا هو الذي تولته الصحابة، وأما الجمع الآخر -وهو جمع الآيات في السور- فهو توقيفي، تولاه النبي كما أخبر به جبريل عن أمر ربه. ومما استدل به لذلك اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور، فمنهم من رتبها على النزول، وهو مصحف علي ﷺ، كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم (ن) ثم المزمل ثم تبت -أي المسد- ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكي والمدني، وكان أول مصحف ابن مسعود ﷺ البقرة ثم النساء ثم آل عمران على اختلاف شديد وكذا مصحف أبي وغيره"[69]. والله أعلم.

وقال الإمام الزركشي ﷺ: "وترتيب بعضها -أي السور- بعد بعض، ليس هو أمر أوجبه الله، بل أمر راجع إلى اجتهادهم واختيارهم -أي الصحابة- ولهذا كان لكل مصحف ترتيب، ولكن ترتيب المصحف العثماني أكمل[70]، وإنما لم يكتب في عهد النبي ﷺ مصحف لئلا يفضى إلى تغييره كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ، فكتب أبو بكر والصحابة بعده ثم نسخ عثمان المصاحف التي بعث بها إلى الأمصار"[71].

فافتتاح المصحف بالفاتحة لعلمهم -والله أعلم- أنها أعظم سورة في القرآن، كما أخرج البخاري في صحيحه[72] بسنده عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: "كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي"، فَقَالَ: «**أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ** ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ ثُمَّ قَالَ لِي: **لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ**

(69) الإتقان 171/1.

(70) قلت: وذلك لأنه ثبت في الحديث: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين من بعدي.." الحديث رواه الحاكم والترمذي وأحمد وغيرهم، وأيضا قوله ﷺ: "لا يجمع الله أمتي على ضلالة أبدا". رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ﷺ، وله شاهد عند الترمذي (2093) وأبي نعيم في الحلية (37/3) وعبد بن حميد (1220)، وابن ماجه (3940) من حديث أنس ﷺ. وصححه الشيخ الألباني ﷺ في صحيح الجامع رقم 1848

(71) البرهان 162/1.

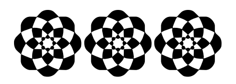
(72) صحيح البخاري (4/ 1623) حديث رقم 4204.

الْمَسْجِدِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ**».

قال الإمام السيوطي ﷺ: "وقال الإمام فخر الدين: المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر لله تعالى. فقوله (الحمد لله رب العالمين) يدل على الإلهيات، وقوله (مالك يوم الدين) يدل على المعاد، وقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) يدل على نفي الجبر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره، وقوله (اهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله وعلى النبوات. فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة وهذه السورة مشتملة عليها سميت أم القرآن.

وقال البيضاوي: هي مشتملة على الحكم النظرية والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء"[73]. انتهى.

قلت: فهذه بعض أسرار انفراد قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة دون غيرها، وكون الصلاة خداجًا إذا ما لم يقرأ بها، ناهيك عما ورد في فضلها وشأنها، فتنبه.



(73) الإتقان في علوم القرآن 420/2.

سورة البقرة

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الآية: 2].

إن قيل: فهلَّا قدَّم "فيه" على ريب، كقوله تعالى في موضع آخر: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: 45 - 47]؟

فالجواب: قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "إنما قصد -في قوله: (ذلك الكتاب لا ريب فيه) - نفي الريب عنه، ولو قدم (فيه) لكان إشارة إلى أنَّ ثم كتابًا آخر فيه ريب، كما أن (لا فيها غول) إشارة إلى أن خمر الدنيا فيها غول، وهذا المعنى يبعد قصده فلا يقدم الخبر"[74].

وقال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "وتقديم الظرف المسند على المسند إليه لإفادة التخصيص، أي هو منتفٍ عن خمر الجنة فقط دون ما يعرف من خمر الدنيا، فهو قصر قلب. ووقوع (غول) وهو نكرة بعد (لا) النافية أفاد انتفاء هذا الجنس من أصله، ووجب رفعه لوقوع الفصل بينه وبين حرف النفي بالخبر.

وجملة (ولا هم عنها ينزفون) معطوفة على جملة (لا فيها غول). وقدّم المسند عليه على المسند، والمسند فعل ليفيد التقديم تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي، أي بخلاف شاربي الخمر من أهل الدنيا"[75].

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: 8].

إن قيل: كيف جاء قولهم: (آمنا) جملة فعلية، (وما هم بمؤمنين) جملة اسمية، فهلا طابقتها؟

فالجواب: أن قولهم (وما هم بمؤمنين) أبلغ وآكد في نفي الإيمان عنهم من لو قال: ما آمنوا، فإن قيل: لم جاء قولهم: آمنا، مقيدًا بالله واليوم الآخر، و (وما هم بمؤمنين) مطلقًا؟

(74) التسهيل لعلوم التنزيل (1/ 67- 68).
(75) التحرير والتنوير (23 / 113 - 114).

فالجواب: أنه يحتمل وجهين:

التقييد: فتركه لدلالة الأول عليه. والإطلاق: وهو أعم في سلبهم من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [الآية: 14].

إن قيل: لم وصلت "خلوا" بـ "إلى" وعرفها أن توصل بالباء؟

قيل له: "خلوا" هنا بمعنى ذهبوا وانصرفوا، ومنه قول الفرزدق:

كيف تراني قاليًا مجنِّي   قد قتل الله زيادا عني[76]

قال مقيده: وهذا يسمونه التضمين، قال سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله في كتابه «مجاز القرآن» "التضمين: هو أن يضمن اسم معنى آخر لإفادة معنى الاسمين، فتعديه تعديته في بعض المواضع، كقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: 105] فيضمّن "حقيق" معنى حريص، ليفيد أنه حريص عليه، ويضمن معنى فعل، فتعديه تعديته في بعض المواضع، كقول الشاعر "قد قتل الله زيادا عنّي" ضمن "قتل" معنى صرف، لإفادة أنه صرفه حكما بالقتل دون ما عداه من الأسباب، فأفاد معنى القتل والصرف جميعًا"[77].

فإن قيل ما وجه تشبيه المنافقين بصاحب النار التي أضاءت ثم أظلمت؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن منفعتهم في الدنيا بدعوى الإيمان شبيه بالنور، وعذابهم في الآخرة شبيه بالظلمة بعده.

والثاني: أن استخفاء كفرهم كالنور، وفضيحتهم كالظلمة.

(76) تفسير القرطبي (1 / 206).
(77) ينظر إعراب القرآن وبيانه (3 / 307).

والثالث: أن ذلك فيمن آمن منهم ثم كفر، فإيمانه نور، وكفره بعده ظلمة. ويرجح هذا قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: 3].

فإن قيل: لم قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [الآية: 17] ولم يقل: أذهب الله نورهم مشاكلة لقوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾؟

فالجواب: أن إذهاب النور أبلغ، لأنه إذهاب للقليل والكثير، بخلاف الضوء فإنه يطلق على الكثير. قاله العلامة ابن جزي[78].

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "والفرق بين أذهبه وذهب به، أن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهبًا. ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه. وذهب السلطان بماله: أخذه (فلما ذهبوا به)، ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: 91]. ومنه: ذهب به الخيلاء. والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه، ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر: 2] فهو أبلغ من الإذهاب."[79].

قال مقيده: وإن قيل: كيف قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الآية: 17] بصيغة الجمع؟

فالجواب: قال الماوردي في النكت والعيون[80]: "فيه وجهان: أحدهما: نور المستوقد، لأنه في معنى الجمع، وهذا قول الأخفش. والثاني: بنور المنافقين، لأن المثل مضروب فيهم، وهو قول الجمهور".

قوله تعالى: **﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** [الآية: 19].

إن قيل لم قال: (رعد وبرق) بالإفراد ولم يجمعه كما جمع ظلمات؟

---

(78) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 74).
(79) الكشاف 74/1.
(80) النكت والعيون 80/1.

فالجواب: أن الرعد والبرق مصدران، والمصدر لا يجمع. ويحتمل أن يكونا اسمين وجمعهما لأنهما في الأصل مصدران[81].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الآية: 21].

إن قيل: لم قصر الخطاب بقوله: (لعلكم تتقون) على المخاطبين دون الذين من قبلهم، مع أنه أمر الجميع بالتقوى؟

فالجواب: أنه لم يقصره عليهم، ولكنه غلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمراد الجميع. فإن قيل: هلا قال: لعلكم تعبدون، مناسبة لقوله: اعبدوا؟

فالجواب: أن التقوى غاية العبادة وكمالها، فكان قوله: (لعلكم تتقون)، أبلغ وأوقع في النفوس[82].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [الآية: 23].

إن قيل: كيف قال: إن كنتم في ريب، ومعلوم أنهم كانوا في ريب وفي تكذيب؟

فالجواب: أنه ذكر حرف إن، إشارة إلى أن الريب بعيد عند العقلاء في مثل هذا الأمر الساطع البرهان، فلذلك وضع حرف التوقع والاحتمال في الأمر الواقع ليعد وقوع الريب وقبحه عند العقلاء[83].

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [الآية: 26].

---

(81) التسهيل (1 /75).
(82) المصدر نفسه (1 / 77).
(83) المصدر نفسه (1 / 77- 78).

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: لم وصف المهديون بالكثرة، والقلة صفتهم، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: 24]. «**الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة**»[84]، (وجدت الناس أخبر تقله)[85]؟

قلت –القائل الزمخشري-: أهل الهدى كثير في أنفسهم، وحين يوصفون بالقلة إنما يوصفون بها بالقياس إلى أهل الضلال. وأيضًا فإنّ القليل من المهديين كثير في الحقيقة وإن قلّوا في الصورة، فسمّوا ذهابًا إلى الحقيقة كثيرًا:

إنَّ الكرام كثير في البلاد وإن ... قلُّوا، كما غيرهم قلَّ وإنْ كثروا[86]

وقال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "وكون كلا الفريقين من المضلّل والمهديّ كثيرًا في نفسه، لا ينافي نحو قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13] لأنَّ قوّة الشُّكر الَّتي اقتضاها صيغة المبالغة، أخصُّ في الاهتداء"[87].

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [الآية: 37].

إن قيل: لم قال (فتاب عليه) ولم يقل: عليهما، وحواء مشاركة له في الذنب بإجماع وقد قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35] و ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]؟

فالجواب: أن آدم عليه السلام لما خوطب في أول القصة بقوله: (اسكن) خصه بالذكر في التلقي فلذلك كملت القصة بذكره وحده.

---

(84) رواه مسلم في صحيحه (4/ 1973) برقم 2547، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

(85) قلت: يروى بلفظ: "أخبر تقله، وثق بالناس رويدًا"، قال بقية: "يعني أنك إذا اختبرت الناس، بدا لك من أكبرهم ما لا ترضى منهم حتى تقلاهم". قلت: الحديث ضعفه الشيخ الألباني في "السلسلة الضعيفة والموضوعة" (128/5)، لكن معناه صحيح، يشهد له الحديث الذي قبله، ويشهد له الواقع.

(86) الكشاف 1/ 118.

(87) التحرير والتنوير (1 / 365).

وأيضا: فلأن المرأة حرمة ومستورة، فأراد الله الستر لها. ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾ [طه: 121].

وأيضا: لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تذكر. كما لم يذكر فتى موسى مع موسى في قوله: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكَ**﴾ [الكهف: 75].

وقيل: إنه دل بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها، إذ أمرهما سواء، قاله الحسن.

وقيل: إنه مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا**﴾ [الجمعة: 11] أي التجارة، لأنها كانت مقصود القوم، فأعاد الضمير عليها، ولم يقل: إليهما، والمعنى متقارب[88].

قوله تعالى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ [الآية: 36].

إن قيل: إذا كانت جنة آدم التي أسكنها في السماء -كما يقوله الجمهور من العلماء-، فكيف يمكن إبليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طردًا قدريًّا، والقدري لا يخالف ولا يمانع؟

قال ابن كثير رحمه الله: "إن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، وقد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها: أنه منع من دخول الجنة مكرما، فأما على وجه الردع والإهانة، فلا يمتنع؛ ولهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة،... إلخ"[89].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "و "الجنّة" الّتي أسكنها -الله عز وجل- آدم وزوجته عند سلف الأمّة وأهل السنّة والجماعة: هي جنّة الخلد ومن قال: إنّها جنّة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدّة أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين أو من إخوانهم المتكلّمين المبتدعين فإنّ هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة

(88) تفسير القرطبي (1 / 325).

(89) تفسير ابن كثير (1/ 238).

والمعتزلة. والكتاب والسّنّة يردّ هذا القول وسلف الأمّة وأئمّتها متّفقون على بطلان هذا القول. قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ وقال سبحانه: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة﴾ إلى قوله: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حينٍ﴾ فقد أخبر أنّه سبحانه أمرهم بالهبوط وأنّ بعضهم عدوّ لبعضٍ ثمّ قال: ﴿ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حينٍ﴾. وهذا يبيّن أنّهم لم يكونوا في الأرض وإنّما أهبطوا إلى الأرض؛ فإنّهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا إلى أرضٍ أخرى كانتقال قوم موسى من أرضٍ إلى أرضٍ لكان مستقرّهم ومتاعهم إلى حينٍ في الأرض قبل الهبوط وبعده؛ وكذلك قال في الأعراف لما قال إبليس ﴿أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ﴾ ﴿**فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾ [الأعراف: 13]، فقوله: ﴿**فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾ يبيّن اختصاص السّماء بالجنّة بهذا الحكم؛ فإنّ الضّمير في قوله: ﴿منها﴾ عائد إلى معلومٍ غير مذكورٍ في اللّفظ، وهذا بخلاف قوله: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ**﴾ [البقرة: 61] فإنّه لم يذكر هناك ما أهبطوا فيه وقال هنا: ﴿اهبطوا﴾ لأنّ الهبوط يكون من علوٍّ إلى سفلٍ، وعند أرض السّراة حيث كان بنو إسرائيل حيال السّراة المشرفة على المصر الّذي يهبطون إليه. ومن هبط من جبلٍ إلى وادٍ قيل له: هبط.

وأيضًا فإنّ بني إسرائيل كانوا يسيرون ويرحلون والّذي يسير ويرحل إذا جاء بلدةً يقال: نزل فيها؛ لأنّ في عادته أنّه يركب في سيره فإذا وصل نزل عن دوابّه. يقال: نزل العسكر بأرض كذا ونزل القفل بأرض كذا؛ لنزولهم عن الدّوابّ. ولفظ النّزول كلفظ الهبوط فلا يستعمل هبط إلّا إذا كان من علوٍّ إلى سفلٍ. وقوله: ﴿**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الأعراف: 23] ﴿قال اهبطوا﴾ الآيتين.

فقوله هنا بعد قوله: ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ [البقرة: 36] يبيّن أنّهم هبطوا إلى الأرض من غيرها وقال: ﴿**فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ**﴾ [الأعراف: 25] دليل على أنّهم لم يكونوا قبل ذلك بمكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون وإنّما صاروا إليه لما أهبطوا من الجنّة. والنّصوص في ذلك كثيرة وكذلك كلام السّلف والأئمّة. وفي الصّحيحين عن أبي

هريرة ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**احتجّ آدم وموسى فقال موسى: يا آدم، أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته فلماذا أخرجتنا وذرّيّتك من الجنّة؟ فقال له آدم: أنت موسى الّذي اصطفاك الله برسالته وكلامه فهل تجد في التّوراة: وعصى آدم ربّه فغوى؟ قال نعم قال: فلماذا تلومني على أمرٍ قدّره الله عليّ قبل أن أخلق؟ فقال: "فحجّ آدم موسى**»[90]. وموسى إنّما لام آدم لما حصل له وذرّيّته بالخروج من الجنّة من المشقّة والنّكد فلو كان ذلك بستانًا في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوّض عنه.

وآدم عليه السلام احتجّ بالقدر؛ لأنّ العبد مأمور على أن يصبر على ما قدّره الله من المصائب ويتوب إليه ويستغفره من الذّنوب والمعائب. والله أعلم"[91].

قوله تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا**﴾ [الآية: 58].

إن قيل: لم قال هنا: (فكلوا) في حين قال في "الأعراف": (وكلوا)؟

فالجواب: جاء هنا بالفاء التي للترتيب لأن الأكل بعد الدخول، وجاء في الأعراف بالواو بعد قوله: اسكنوا، لأن الدخول لا يتأتى معه السجود[92].

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "وهذه الآية نظير ما في سورة البقرة سوى اختلافٍ بضميري الغيبة هنا وضميري الخطاب هناك لأنّ ما هنالك قصد به التّوبيخ. وقد أسند فعل (قيل) في قوله: ﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ**﴾ [الأعراف: 161] إلى المجهول وأسند في سورة البقرة [58] إلى ضمير الجلالة: (وإذ قلنا) لظهور أنّ هذا القول لا يصدر إلّا من الله تعالى.

(90) **متفق عليه**: صحيح البخاري (3/ 1251) برقم 3228، صحيح مسلم (4/ 2042) برقم 2652.

(91) مجموع فتاوى ابن تيمية (1 / 373).

(92) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 91).

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (161) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (162)** ﴾ [الأعراف: 161، 162].

هذه الآية أيضًا نظير ما في سورة البقرة إلّا أنّه عبّر في هذه الآية بقوله: (اسكنوا) وفي سورة البقرة [58] بقوله: (ادخلوا) لأنّ القولين قيلا لهم، أي قيل لهم: ادخلوا واسكنوها ففرّق ذلك على القصّتين على عادة القرآن في تغيير أسلوب القصص استجدادًا لنشاط السّامع. وكذلك اختلاف التّعبير في قوله هنا: (وكلوا) وقوله في سورة البقرة [58] (فكلوا) فإنّه قد قيل لهم بما يرادف فاء التّعقيب، كما جاء في سورة البقرة، لأنّ التّعقيب معنًى زائد على مطلق الجمع الّذي تفيده واو العطف، واقتصر هنا على حكاية أنّه قيل لهم، وكانت آية البقرة أولى بحكاية ما دلّت عليه فاء التّعقيب، لأنّ آية البقرة سيقت مساق التّوبيخ فناسبها ما هو أدلّ على المنّة، وهو تعجيل الانتفاع بخيرات القرية، وآيات الأعراف سيقت لمجرّد العبرة بقصّة بني إسرائيل.

ولأجل هذا الاختلاف ميّزت آية البقرة بإعادة الموصول وصلته في قوله: ﴿**فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا**﴾ [البقرة: 59] وعوّض عنه هنا بضمير الّذين ظلموا، لأنّ القصد في آية البقرة بيان سبب إنزال العذاب عليهم مرّتين أشير إلى أولاهما بما يومئ إليه الموصول من علّة الحكم، وإلى الثّانية بحرف السّببيّة، واقتصر هنا على الثّاني.

وقد وقع في سورة البقرة [59] لفظ: (فأنزلنا) ووقع هنا لفظ: (فأرسلنا)، ولما قيّد كلاهما بقوله: (من السّماء) كان مفادهما واحدًا، فالاختلاف لمجرّد التّفنّن بين القصّتين.

وعبّر هنا (بما كانوا يظلمون) وفي البقرة [59] (بما كانوا يفسقون) لأنّه لما اقتضى الحال في القصّتين تأكيد وصفهم بالظّلم وأدّي ذلك في البقرة [59] بقوله: (فأنزلنا على الّذين ظلموا)، استثقلت إعادة لفظ الظّلم هنالك ثالثةً، فعدل عنه إلى ما يفيد مفاده، وهو الفسق، وهو أيضًا أعمّ، فهو أنسب بتذييل التّوبيخ، وجيء هنا بلفظ (يظلمون) لئلّا يفوت تسجيل الظّلم عليهم مرّةً ثالثةً، فكان تذييل آية البقرة أنسب بالتّغليط في ذمّهم، لأنّ مقام التّوبيخ يقتضيه.

ووقع في هذه الآية ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ ولم يقع لفظ منهم في سورة البقرة، ووجه زيادتها هنا التّصريح بأنّ تبديل القول لم يصدر من جميعهم، وأجمل ذلك في سورة البقرة لأنّ آية البقرة لما سيقت مساق التّوبيخ ناسب إرهابهم بما يوهم أنّ الّذين فعلوا ذلك هم جميع القوم، لأنّ تبعات بعض القبيلة تحمل على جماعتها.

وقدّم في سورة البقرة [58] قوله: ﴿**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**﴾ على قوله ﴿**وَقُولُوا حِطَّةٌ**﴾ وعكس هنا وهو اختلاف في الإخبار لمجرّد التّفنّن، فإنّ كلا القولين واقع قدّم أو أخّر. وذكر في البقرة [58]: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا**﴾ ولم يذكر وصف رغدًا هنا، وإنّما حكي في سورة البقرة، لأنّ زيادة المنّة أدخل في تقوية التّوبيخ"[93].

قوله تعالى: ﴿**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيئِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [الآية: 61].

قال مقيده: إن قيل: لم جاء ذكر "الحق" هنا معرفا بالألف واللام، ثم جاء نكرة في "آل عمران" عند قوله تعالى: ﴿**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيئِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ [آل عمران: 21]؟

الجواب: جاء قوله: (بغير الحق) بالتعريف باللام للعهد، لأنه قد تقررت الموجبات لقتل النفس، وقال في الموضع الآخر من آل عمران (بغير حق) بالتنكير، لاستغراق النفي، لأن تلك نزلت في المعاصرين لمحمد ﷺ. قاله العلامة ابن جزي[94].

وقال الإمام الزركشي في البرهان: "والحكمة فيه، أن الجملة في آل عمران خرجت مخرج الشرط وهو عام، فناسب أن يكون النفي بصيغة التنكير حتى يكون عاما. وفي سورة البقرة جاء عن أناس معهودين، وهو قوله تعالى: ﴿**بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [البقرة: 61] فناسب أن يؤتى بالتعريف، لأن الحق الذي كان يستباح به قتل الأنفس عندهم كان معروفا، كقوله تعالى: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ**

---

(93) التحرير والتنوير (9 / 144- 146).

(94) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 92).

فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45] الآية. فالحق هنا الذي تقتل به الأنفس معهود معروف، بخلاف ما في سورة آل عمران[95]".

قوله تعالى: **﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾** [البقرة: 95].

إن قيل: لم قال هنا: **﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾** في حين قال في "الجمعة": **﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾** [الجمعة: 7]؟

قال صاحب التسهيل رحمه الله: "قال أستاذنا الشيخ أبو جعفر بن الزبير الجواب: أنه لما كان الشرط في المغفرة مستقبلا وهو قوله: إن كانت لكم الدار الآخرة خالصة جاءت جوابه ب: (لن) التي تخلص الفعل للاستقبال، ولما كان الشرط في الجمعة حالًا وهو قوله: **﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾** [الجمعة: 6] جاء جوابه ب: (لا) التي تدخل على الحال أو تدخل على المستقبل"[96].

قوله تعالى: **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [الآية: 125].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: "وقال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك. ثم أورد سؤالًا فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟

وأجاب بوجهين: أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنّة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إمامًا يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد: (أن طهِّرا بيتي) قال: من الأصنام التي يعبدون، التي كان المشركون يعظمونها.

(95) البرهان (3 / 219).

(96) التسهيل لعلوم التنزيل 102/1.

قلت –القائل ابن كثير–: وهذا الجواب مفرّع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمّد ﷺ.

الجواب الثاني: أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهرًا من الشرك والرّيب، كما قال جل ثناؤه: ﴿**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ**﴾ [التوبة: 109] قال: فكذلك قوله: ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ**﴾ [البقرة: 125] أي: ابنيا بيتي على طهر من الشرك بي والريب، كما قال السدي: (أن طهّرا بيتي) ابنيا بيتي للطائفين.

وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [الحج: 26]"[97].

قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا**﴾ [الآية: 126].

إن قيل: لم نكر البلد في سورة البقرة فقال: (بلدا آمنا) وعرفه في سورة "إبراهيم" فقال ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم: 35]؟

قال صاحب التسهيل: "أجيب عن ذلك بثلاثة أجوبة الجواب:

الأول قاله أستاذنا الشيخ أبو جعفر بن الزبير، وهو: أنه تقدم في البقرة ذكر البيت في قوله: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ**﴾ [البقرة: 127] وذكر البيت يقتضي بالملازمة ذكر البلد الذي هو فيه، فلم

(97) تفسير ابن كثير (1 / 320) وعبد الرحمن هذا، هو ابن زيد بن أسلم: متأخر، من أتباع التابعين، مات سنة 182. ضعيف جدا. (ينظر تهذيب التهذيب (6 / 162)).

يحتج إلى تعريف، بخلاف آية "إبراهيم" فإنها لم يتقدم قبلها ما يقتضي ذكر البلد ولا المعرفة به، فذكره بلام التعريف.

الجواب الثاني قاله السهيلي، وهو: أن النبي ﷺ كان بمكة حين نزلت آية إبراهيم لأنها مكية، فلذلك قال فيه: (البلد) بلام التعريف التي للحضور، كقولك: هذا الرجل. وهو حاضر، بخلاف آية "البقرة" فإنها مدنية، ولم تكن مكة حاضرة حين نزولها، فلم يعرفها بلام الحضور، وفي هذا نظر، لأن ذلك الكلام حكاية عن إبراهيم عليه السلام، فلا فرق بين نزوله بمكة أو المدينة.

الجواب الثالث، قاله بعض المشارقة: أنه قال: (هذا بلد آمنا) قبل أن يكون بلدا، فكأنه قال: اجعل هذا الموضع بلدا آمنا، وقال (هذا البلد) بعد ما صار بلدا، وهذا يقتضي أن ابراهيم دعا بهذا الدعاء مرتين، والظاهر أنه مرة واحدة حكى لفظه فيها على وجهين"[98].

قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الآية: 177].

قلت: إن قيل: كيف نصب (والصّابرين) والأصل أن تكون مرفوعة، لأنها معطوفة على (والموفون)؟

فالجواب: أخرج (والصابرين) منصوبًا على الاختصاص والمدح، وإظهارًا لفضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال. قاله الزمخشري[99].

وقال الأستاذ اللغوي عباس حسن رحمه الله: "نصبت كلمة: "الصابرين" بسبب "القطع" ولو كانت معطوفة لرفعت كسائر المعطوفات المرفوعة التي قبلها، ومثل كلمة: "المقيمين" من قوله في سورة النساء: ﴿لَكِنِ

(98) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 109- 110).
(99) الكشاف 1/ 220.

الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 162]"(100).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186].

قال الإمام السيوطي ﷺ: "إن قيل: كيف جاء (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) وعادة السؤال يجيء جوابه في القرآن بـ (قل)؟

قلنا: حذفت للإشارة إلى أن العبد في حال الدعاء في أشرف المقامات لا واسطة بينه وبين مولاه"(101).

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [الآية: 203].

إن قيل: الأيام واحدها يوم، والمعدودات واحدها معدودة، واليوم لا يوصف بمعدودة لأن الصفة هنا مؤنثة والموصوف مذكر، وإنما الوجه أن يقال أيام معدودة فتصف الجمع بالمؤنث؟

أجاب الإمام أبو البقاء العكبري ﷺ: "أنه أجرى (معدودات) على لفظ (أيام)، وقابل الجمع بالجمع مجازا، والأصل معدودة كما قال: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]. ولو قيل: إن الأيام تشتمل على الساعات، والساعة مؤنثة، فجاز الجمع على معنى ساعات الأيام، وفيه تنبيه على الأمر بالذكر في كل ساعات هذه الأيام أو في معظمها لكان جوابا سديدا، ونظير ذلك: الشهر والصيف والشتاء، فإنها يجاب بها عن كم، وكم إنما يجاب عنها بالعدد، وألفاظ هذه الأشياء ليست عددا، وإنما هي أسماء لمعدودات، فكانت جوابا من هذا الوجه"(102).

قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [الآية: 238].

---

(100) النحو الوافي (3 / 661).

(101) الإتقان (1 / 364).

(102) ينظر إملاء ما من به الرحمن للإمام النحوي البارع أبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (1 / 88).

قال مقيده: إن قيل: ما المناسبة بين الأمر بالمحافظة على الصلوات وبما قبلها؟ فالجواب – والله أعلم –: أنه سبحانه لما أرشد المؤمنين لما أوجبه عليهم عند حصول الطلاق، وعند موت الزوج، وغير ذلك من الوصايا، أمرهم بعد ذلك وأوصاهم بالحفاظ على الصلوات، والمناسبة في ذلك، كأنه – والله أعلم – يقول: "حافظوا على هذه الوصايا والأوامر التي أوصيتكم بها، وأمرتكم بها، عند وقوع الطلاق، حافظوا على الحقوق الواجبة فيما بينكم، كما أمرتم أن تحافظوا على صلاتكم أيضا، فليست محافظتكم على ما يتعلق بالحقوق بينكم، بأهون من محافظتكم على الصلوات"، ولذلك ختمت آية الطلاق بقوله: (ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير)، وضد النسيان الذكر والحفظ، أي: تذكروا واحفظوا الفضل بينكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه: 14]، وقد صح في الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلاَةِ أَوْ غَفَلَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى**»[103]، ومن ثم قال ههنا: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾ [البقرة: 238]، فالمناسبة بين ما سبق، وآية الحفاظ على الصلوات، هي كون كل ذلك داخلا في أوامر الله تعالى ووصاياه، وأن شأن الحقوق بين الزوجين ليس بأهون من شأن الصلاة، ألا ترى أنه سبحانه لما ذكر الطلاق وأحكامه، أوعد بقوله: (ولا تتخذوا آيات الله هزؤا) فعظم سبحانه شأن الطلاق وما يتفرع عنه من أحكام، حتى وصف تلك الأوامر والنواهي بـ: (آيات).

وأيضا مجيء هذه الآية بعد ذكر الحقوق الواجبة بين الزوجين، يدل على أن دين الله تعالى شامل لكل جوانب الحياة وجزئياتها، وأن مفهوم العبادة في الإسلام أكبر وأوسع من حصره وتضييقه في الشعائر التعبدية، من صلاة وزكاة وصوم وحج، فقد قال سبحانه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56] وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: 162، 163] الآية، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**كُلُّ سُلاَمَى عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ**

(103) **متفق عليه:** صحيح البخاري (1/ 215) برقم 572، صحيح مسلم (1/ 471) برقم 680، واللفظ لمسلم.

يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»[104] واللفظ للبخاري. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»**[105].

قال صاحب الظلال رحمه الله عن هذه الآيات: "إنها العبادة.. عبادة الله في الزواج، وعبادته في المباشرة والإنسال. وعبادته في الطلاق والانفصال.

وعبادته في العدة والرجعة. وعبادته في النفقة والمتعة. وعبادته في الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان.

وعبادته في الافتداء والتعويض. وعبادته في الرضاع والفصال.. عبادة الله في كل حركة وفي كل خطرة.

ومن ثم يجيء –بين هذه الأحكام– حكم الصلاة في الخوف والأمن: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 238، 239].

يجيء هذا الحكم في ثنايا تلك الأحكام وقبل أن ينتهي منها السياق. وتندمج عبادة الصلاة في عبادات الحياة، الاندماج الذي ينبثق من طبيعة الإسلام، ومن غاية الوجود الإنساني في التصور الإسلامي. ويبدو السياق موحيا هذا الإيحاء اللطيف.. إن هذه عبادات. وطاعة الله فيها من جنس طاعته في الصلاة. والحياة وحدة والطاعات فيها جملة. والأمر كله من الله. وهو منهج الله للحياة"[106].

قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ [الآية: 194].

---

(104) صحيح البخاري (3/ 1059) برقم 2734.

(105) صحيح مسلم (1/ 498) برقم 720.

(106) في ظلال القرآن (1 / 238).

قلت: إن قيل كيف قال: (فاعتدوا عليه) والعدوان محرم؟ فالجواب: ليس هذا أمرا بالاعتداء، وإنما من باب تسمية للعقوبة باسم الذنب أي قاتلوا من قاتلكم ولا تبالوا بحرمة من صدكم عن دخول مكة. ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] سمى العقوبة باسم الذنب وجعلها مثلها تحرزا من الزيادة عليها. قاله العلامة ابن جزي[107].

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [الآية: 143].

إن قيل: ما الحكمة في تقديم المجرور في قوله: (عليكم شهيدا)، وأخَّره في قوله: (شهداء على الناس)؟

فالجواب: أن تقديم المعمولات يفيد الحصر، فقدم المجرور في قوله: عليكم شهيدا، لاختصاص شهادة النبي ﷺ بأمته، ولم يقدمه في قوله: شهداء على الناس، لأنه لم يقصد الحصر[108].

قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [الآية: 186].

قال مقيده: إن قيل: فما بال كثير من الناس يدعون ولا يستجاب لهم؟ أو يقول قائلهم: قد دعوت ودعوت، ولم أر جوابًا؟

فالجواب: أن إجابة الدعاء مقيدة بمشيئة الله تعالى، وموافقة قدره سبحانه، ومع ذلك فإنه سبحانه لا يرد من دعاه مخلصا ومستجمعا شروط الإجابة. ففي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: **«يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»**[109].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَقَالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ**

(107) ينظر التسهيل 137/1، والبرهان (2 / 261) وأحكام القرآن للجصاص (2 / 156).
(108) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 112).
(109) صحيح البخاري (5/ 2335) برقم 5981.

أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»[110].

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ مرفوعًا: «ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٍ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا مَالَهُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5]»[111].

وقال ابن عطاء الله السكندري: "لا يكن تأخُّر أمد العطاء مع الإلحاح في الدُّعاء موجبًا ليأسك؛ فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد". والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ [الآية: 189] ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [الآية: 215]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [الآية: 217]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [الآية: 219].

إن قيل: لم جاءت الآيات: (يسئلونك) أربع مرات بغير واو العطف، وجاء بعدها (ويسئلونك ماذا ينفقون)، (ويسئلونك عن اليتامى)، (ويسئلونك عن المحيض) ثلاث مرات بالواو؟

فالجواب: قال الكرماني في العجائب: "لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقًا، وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد، فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك"[112].

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [الآية: 217].

---

(110) صحيح مسلم (2/ 703) برقم 1015.

(111) رواه ابن شاذان في "المشيخة الصغرى" (57 / 1)، والحاكم (2 / 302)، والبيهقي في السنن الكبرى (10/ 146) برقم 21022، وصححه الشيخ الألباني ﷺ في "السلسلة الصحيحة" 4 / 420.

(112) ذكره السيوطي في الإتقان (2 / 302).

قلت: "قتال" بدل اشتمال، لأن السؤال اشتمل على الشهر وعلى القتال، فإن قيل: كيف تقدم ذكر الشهر على القتال، وكان الأنسب أن يقدم ذكر القتال على الشهر لأنه الأهم؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "قيل: السّؤال لم يقع منهم إلّا بعد وقوع القتال في الشّهر وتشنيع أعدائهم عليهم انتهاكه وانتهاك حرمته وكان اهتمامهم بالشّهر فوق اهتمامهم بالقتال فالسّؤال إنّما وقع من أجل حرمة الشّهر فلذلك قدّم في الذّكر وكان تقديمه مطابقًا لما ذكرنا من القاعدة. فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر القتال بلفظ الظّاهر وهلّا اكتفى بضميره فقال: هو كبير؟ وأنت إذا قلت: "سألته عن زيد هو في الدّار"، كان أوجز من أن تقول: أزيد في الدّار؟

قيل: في إعادته -أي القتال- بلفظ الظّاهر بلاغة بديعة وهو تعليق الحكم الخبريّ باسم القتال فيه عمومًا ولو أتى بالمضمر فقال: هو كبير لتوهّم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه وليس الأمر كذلك؛ وإنّما هو عامّ في كلّ قتالٍ وقع في شهرٍ حرامٍ. ونظير هذه القاعدة قوله ﷺ وقد سئل عن الوضوء بماء البحر فقال: «**هو الطَّهورُ ماؤه**»[113] فأعاد لفظ الماء ولم يقتصر على قوله: "نعم توضّئوا به" لئلّا يتوهّم اختصاص الحكم بالسّائلين لضرب من ضروب الاختصاص فعدل عن قوله: "نعم توضّئوا" إلى جوابٍ عامٍّ يقتضي تعليق الحكم والطّهور به بنفس مائه من حيث هو فأفاد استمرار الحكم على الدّوام وتعلّقه بعموم الأمّة وبطل توهّم قصره على السّبب فتأمّله فإنّه بديع. فكذلك في الآية لما قال: (قتال فيه كبير) فجعل الخبر بـ (كبير) واقعًا عن (قتالٍ فيه) فيتعلّق الحكم به على العموم؛ ولفظ "المضمر" لا يقتضي ذلك"[114].

قال العلامة ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنّما اختير طريق الإبدال هنا -وكان مقتضى الظّاهر أن يقال: يسألونك عن القتال في الشّهر الحرام- لأجل الاهتمام بالشّهر الحرام تنبيهًا على أنّ السّؤال لأجل الشّهر أيقع فيه قتال؟ لا لأجل القتال هل يقع في الشّهر وهما متآيلان، لكنّ التّقديم لقضاء حقّ الاهتمام، وهذه نكتة

---

(113) رواه الأربعة، سنن أبي داود (1/ 31) برقم 83.

(114) مجموع الفتاوى 14/ 88-89.

لإبدال عطف البيان تنفع في مواقع كثيرةٍ، على أنّ في طريق بدل الاشتمال تشويقًا بارتكاب الإجمال ثمّ التّفصيل "[115].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [الآية: 253].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: "استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال: أي خبيث، وعلى محمد ﷺ!"فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء**»[116]، وفي رواية لهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لا تخيروا بين الأنبياء**»[117].

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل وفي هذا نظر.

الثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر.

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية.

(115) التحرير والتنوير (2 / 325).

(116) **متفق عليه**: صحيح البخاري (3/ 1251) برقم 3227، صحيح مسلم (4/ 1843) برقم 2373.

(117) **متفق عليه**: صحيح البخاري (2/ 850) برقم 2281، صحيح مسلم (4/ 1845) برقم 2374.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله ﷻ، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به"[118].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [الآية: 258].

إن قيل: لم انتقل إبراهيم عليه السلام عن دليله الأول إلى هذا الدليل الثاني، والانتقال علامة الانقطاع؟

فالجواب: أنه لم ينقطع، ولكنه لما ذكر الدليل الأول وهو الإحياء والإماتة كان له حقيقة، وهو فعل الله، ومجازا وهو فعل غيره. فتعلق نمروذ بالمجاز غلطا منه أو مغالطة، فحينئذ انتقل إبراهيم إلى الدليل الثاني لأنه لا مجاز له، ولا يمكن الكافر عدول عنه أصلا[119].

وقال الإمام أبو البقاء العكبري: "قوله تعالى: (فإنّ اللّه يأتي): دخلت الفاء إيذانًا بتعلّق هذا الكلام بما قبله، والمعنى إذا ادّعيت الإحياء والإماتة ولم تفهم، فالحجّة أنّ اللّه يأتي بالشّمس، هذا هو المعنى"[120].

قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الآية: 266].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "فإن قيل الواو في قوله تعالى: (وأصابه الكبر) واو الحال أم واو العطف؟ وإذا كانت للعطف فعلام عطفت ما بعدها؟

قلت: فيه وجهان، أحدهما: أنه واو الحال، اختاره الزمخشري. والمعنى أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا في حال كبره وضعف ذريته. والثاني: أن تكون للعطف على المعنى، فإن فعل التمني وهو قوله:

---

(118) تفسير ابن كثير (1 / 671).
(119) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 164).
(120) التبيان في إعراب القرآن (1 / 207).

(أيود أحدكم) لطلب الماضي كثيرا، فكان المعنى أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب وأصابه الكبر، فجرى عليها ما ذكر.

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان بالصفوان الذي عليه التراب. فإنه لم ينبت شيئا أصلا، بل ذهب بذره ضائعا لعدم إيمانه وإخلاصه. ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصا بنيته لله، ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها، ثم سلط عليها الإعصار الناري فأحرقها. فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ثم احترق، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق، فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب، وشفاء للصدور وهدى ورحمة"[121].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [الآية: 275].

إن قيل: هلا قالوا: "إنما الربا مثل البيع"، لأنهم قاسوا الربا على البيع في الجواز؟

الجواب: أن هذا مبالغة، فإنهم جعلوا الربا أصلا حتى شبهوا به البيع[122].

قال الإمام السيوطي في الإتقان: "الأصل دخول أداة التشبيه على المشبه به، وقد تدخل على المشبه إما لقصد المبالغة فتقلب التشبيه وتجعل المشبه هو الأصل نحو (قالوا إنما البيع مثل الربا) كأن الأصل أن يقولوا: إنما الربا مثل البيع، لأن الكلام في الربا لا في البيع، فعدلوا عن ذلك وجعلوا الربا أصلًا ملحقًا به البيع في الجواز وأنه الخليق بالحل"[123].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [الآية: 282].

---

(121) طريق الهجرتين (1 / 551 - 552).
(122) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 174).
(123) الإتقان (2 /118).

أمر منه تعالى بالكتابة –والحالة هذه– للتوثقة والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ**..»[124] الحديث، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟

فالجواب: أن الدّين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلا؛ لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضًا محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب، كما ذهب إليه بعضهم[125].

قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [الآية: 282].

قلت: إن قيل: فهل التقوى شرط للحصول على العلم؟

فالجواب: ليس شرطًا، وإنما العلم النافع يقترن بالتقوى. ولذلك قال الإمام الزركشي رحمه الله: "ظن بعض الناس أن التقوى سبب التعليم، والمحققون على منع ذلك، لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل: "واتقوا الله يعلمكم" ولا قال: "فيعلمكم الله". وإنما أتى بواو العطف وليس فيه ما يقتضي "إن" إلا وسبب للثاني، وإنما غايته الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك، فقال: "وسلم علينا ونسلم عليك"، ونحوه، مما يقتضي اقتران الفعلين والتعارض من الطرفين، كما لو قال لسيده: اعتقني ولك علي ألف، أو قالت المرأة لزوجها: طلقني ولك ألف. فإن ذلك بمنزلة قولها: بألف أو على ألف. وحينئذ فيكون متى علم الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك الآية"[126].

قوله تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ [الآية: 286].

---

(124) **متفق عليه**: صحيح البخاري (2/ 675) برقم 1814، صحيح مسلم (2/ 759) برقم 1080.

(125) تفسير ابن كثير (1 / 723).

(126) البرهان (4 / 143).

قال مقيده: إن قيل: لم قال عن الحسنات (لها ما كسبت)، وأما عن السيئات فقال: (وعليها ما اكتسبت)؟

فالجواب -والله أعلم-: لأن الحسنات ينتفع العبد بها، ولذلك عد الكسب باللام، أي لصالح النفس، أما السيئات فعدت بـ: "على" التي تحمل معاني الشقاء والشر، كما أن فعل: كسب، فيه من اليسر واللطف، ما ليس في فعل: اكتسب، الذي فيه من العسر والمشقة ما فيه، فالزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، والله أعلم.

قال الإمام أبو البقاء العكبري رحمه الله: "قوله تعالى (كسبت) وفي الثانية (اكتسبت) قال قوم: لا فرق بينهما، واحتجوا بقوله: (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) وقال: (ذوقوا ما كنتم تكسبون) فجعل الكسب في السيئات كما جعله في الحسنات: وقال آخرون: اكتسب افتعل بدل على شدة الكلفة، وفعل السيئة شديد لما يؤول إليه"[127].

وقال الأصفهاني في غريب القرآن: "وقوله: (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فقد قيل خص الكسب ههنا بالصالح والاكتساب بالسيئ، وقيل عنى بالكسب ما يتحراه من المكاسب الأخروية، وبالاكتساب ما يتحراه من المكاسب الدنيوية، وقيل عنى بالكسب ما يفعله الإنسان من فعل خير وجلب نفع إلى غيره من حيثما يجوز، وبالاكتساب ما يحصله لنفسه من نفع يجوز تناوله، فنبه على أن ما يفعله الإنسان لغيره من نفع يوصله إليه فله الثواب، وأن ما يحصله لنفسه -وإن كان متناولا من حيثما يجوز على الوجه- فقلما ينفك من أن يكون عليه، إشارة إلى ما قيل: "**من أراد الدنيا فليوطن نفسه على المصائب**"[128].

وقال الإمام السيوطي في الإتقان: "وقوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) أتى بلفظ الاكتساب المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها"[129].

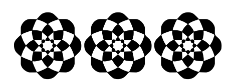
(127) إملاء ما من به الرحمن (1 / 122).
(128) غريب القرآن (1 / 431).
(129) الإتقان (237/2).

قوله تعالى: (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) الآية.

إن قيل: هذه ألفاظ متقاربة، فما الفرق بينها؟

فالجواب: أن العفو ترك المؤاخذة بالذنب، والمغفرة تقتضي مع ذلك الستر، والرحمة تجمع ذلك مع التفضل بالإنعام. والله أعلم[130].

فاللهمَّ اعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.



(130) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 181).

سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الآية: 7].

قال الإمام الزركشي رحمه الله: "إن قيل ما الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد لعباده البيان والهدى؟

قلنا إن كان ممن يمكن علمه فله فوائد، منها: ليحث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائق معانيه، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب وحذرا مما قال المشركون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22] وليمتحنهم ويثيبهم كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: 27] الآية، وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [يونس: 4] فنبههم على أن أعلى المنازل هو الثواب، فلو كان القرآن كله محكمًا لا يحتاج إلى تأويل لسقطت المحنة، وبطل التفاضل واستوت منازل الخلق، ولم يفعل الله ذلك بل جعل بعضه محكما ليكون أصلا للرجوع إليه، وبعضه متشابها يحتاج إلى الاستنباط والاستخراج ورده إلى المحكم، ليستحق بذلك الثواب الذي هو الغرض، وقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142] ومنها: إظهار فضل العالم على الجاهل، ويستدعيه علمه إلى المزيد في الطلب في تحصيله، ليحصل له درجة الفضل، والأنفس الشريفة تتشوف لطلب العلم وتحصيله.

وأما إن كان ممن لا يمكن علمه، فله فوائد منها: إنزاله ابتلاء وامتحانا بالوقف فيه، والتعبد بالاشتغال من جهة التلاوة وقضاء فرضها، وإن لم يقفوا على ما فيها من المراد الذي يجب العمل به، اعتبارا بتلاوة المنسوخ من القرآن وإن لم يعجز العمل بما فيه من المحكم، ويجوز أن يمتحنهم بالإيمان بها حيث ادعوا وجوب رعاية الأصلح، ومنها إقامة الحجة بها عليهم، وذلك إنما نزل بلسانهم ولغتهم ثم عجزوا عن الوقوف على ما فيها

مع بلاغتهم وإفهامهم، فيدل على أن الذي أعجزهم عن الوقوف هو الذي أعجزهم عن تكرر الوقوف عليها وهو الله سبحانه"[131].

وقال الإمام السيوطي رحمه الله في الإتقان: "وقال الإمام فخر الدين: من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات. وقال: إنكم تقولون أن تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنا نراه بحيث يتمسك به صاحب كل مذهب على مذهبه، فالجبري متمسك بآيات الجبر كقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾ [الأنعام: 25]، والقدري يقول: هذا مذهب الكفار بدليل أنه تعالى حكى ذلك عنهم في معرض الذم في قوله: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ**﴾ [فصلت: 5] وفي موضع آخر: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾ [البقرة: 88]، ومنكر الرؤية متمسك بقوله تعالى: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: 103]، ومثبت الجهة ممتسك بقوله تعالى: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل: 50] ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: 5]. والنافي متمسك بقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: 11] ثم يسمي كل واحد الآيات الموافقة لمذهبه محكمة، والآيات المخالفة له متشابهة، وإنما آل في ترجيح بعضها على البعض إلى ترجيحات خفية ووجوه ضعيفة، فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذي هو المرجوع إليه في كل الدين إلى يوم القيامة هكذا؟ قال:

"والجواب: أن العلماء ذكروا لوقوع المتشابه فيه فوائد. منها: أنه يوجب مزيد المشقة في الوصول إلى المراد، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب. ومنها: أنه لوكان القرآن كله محكمًا لما كان مطابقًا إلا لمذهب واحد، وكان بصريحه مبطلًا لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفر أرباب سائر المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه والانتفاع به، فإذا كان مشتملًا على المحكم والمتشابه طمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يؤيد مذهبه وينصر مقالته، فينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه صاحب كل مذهب، وإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات، وبهذا الطريق يتخلص المبطل من باطله ويتصل إلى الحق. ومنها: أن القرآن إذا كان مشتملًا على المتشابه افتقر إلى العلم بطريق التأويلات وترجيح بعضها إلى

(131) البرهان (2 / 75 - 76).

بعض، وافتقر في تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو والمعاني والبيان وأصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يحتج إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة، وكان في إيراد المتشابه هذه الفوائد الكثيرة"(132).

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الآية: 18].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "فإن قيل: فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة فيقول: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل"، وهم أعظم شهادة من أولي العلم؟

قيل في ذلك عدة فوائد:

إحداها: أن أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أن في ذكر أولي العلم في هذه الشهادة وتعليقها بهم ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته، وأن من كان من أولي العلم فإنه يشهد بهذه الشهادة، كما يقال: "إذا طلع الهلال واتضح". فإن كل من كان من أهل النظر يراه، وإذا فاحت رائحة ظاهرة فكل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة. قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: 36] أي كل من له رؤية يراها حينئذ عيانا.

ففي هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة، فهو من أعظم الجهال وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره فهو من أولي الجهل لا من أولي العلم. وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة ويؤدها على وجهها إلا أتباع الرسل أهل الإثبات فهم أولو العلم وسائر من عداهم أولو الجهل وإن وسعوا القول وأكثروا الجدال"(133).

---

(132) الإتقان 2/30 – 31.

(133) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (4 / 7 – 8).

قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ [الآية: 49].

إن قيل: لم ذكَّر الضمير هنا، فقال: (فيه)، وأنثه في "سورة المائدة"، فقال: (فتنفخ فيها)؟

فالجواب: (فتنفخ فيها) الضمير المؤنث عائد على الكاف، لأنها صفة للهيئة. وكذلك الضمير في (تكون) وكذلك الضمير المذكور في قوله في آل عمران: (فينفخ فيه) عائد على الكاف أيضا، لأنها بمعنى: مثل. وإن شئت قلت: هو في الموضعين عائد على الموصوف المحذوف الذي وصف بقوله: (كهيئة) فتقديره في التأنيث: صورة. وفي التذكير: شخصا أو خلقا وشبه ذلك. وقيل: المؤنث يعود على الهيئة، والمذكر يعود على الطير والطين وهو بعيد في المعنى. قاله العلامة ابن جزي[134].

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: 84].

إن قيل: لم تعدى الفعل هنا بـ"على"، وعدي في "البقرة" بـ"إلى" فقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136]؟

فالجواب: قال الإمام السيوطي رحمه الله: "لأن الأولى ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ خطاب للمسلمين، والثانية: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، خطاب للنبي ﷺ، و (إلى) ينتهي بها من كل جهة، و (على) لا ينتهي بها إلا من جهة واحدة وهي العلو، والقرآن يأتي المسلمين من كل جهة يأتي مبلغه

---

(134) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (1 / 340).

إياهم منها، وإنما أتى النبي ﷺ من جهة العلو خاصة فناسب قوله (علينا)، ولهذا أكثر ما جاء في جهة النبي ﷺ بعلى وأكثر ما جاء في جهة الأمة بـ (إلى)"[135].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية: 140].

قلت: إن قيل: كيف قال: (وليعلم الله) وقد علم سبحانه الذين آمنوا والذين كفروا قبل أن يخلقهم؟

فالجواب: أن العلم -هنا- يراد به العلم الظاهر للناس، الذي تقوم به الحجة، لأن الله جل وعلا لا يحاسب الناس بما علمه عنهم، وإنما يحاسبهم بأعمالهم التي علمها قبل أن يخلقهم، بل كان على علم بها قبل أن يخلق السموات والأرض، فعلم ما كان وما يكون وما لم يكن كيف كان يكون، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: 28]، فمعنى الآية -إذًا-: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ليعلم علما يظهر في الوجود، لأن الله قد كان علم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الآية: 80].

قال ابن عرفة ﷀ صاحب التفسير: "إن قيل نفي الأمر أعمُّ من النَّهي فهلَّا قيل وينهاكم. والجواب: أنَّ ذلك باعتبار دعواهم وتقوُّلهم على الرُّسل"[136].

قال العلامة ابن عاشور ﷀ: "لعلَّ التَّعبير بلا يأمركم مشاكلة لقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 79] لأنَّهم زعموا أنّ المسيح قال: إنَّه ابن الله، فلمَّا نفي أنّه يقول ذلك نفي ما هو مثله، وهو أن يأمرهم

(135) الإتقان 2/ 307.

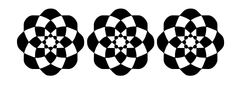
(136) قال الحافظ: الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي أبو علي البغدادي صدوق من العاشرة مات سنة سبع وخمسين ومائتين وقد جاز المائة. تقريب التهذيب (1 / 162).

باتِّخاذ الملائكة أربابًا، أو لأنَّهم لما كانوا يدّعون التّمسّك بالدّين، كان سائر أحوالهم محمولةً على أنّهم تلقّوها منه، أو لأنّ المسيح لم ينههم عن ذلك في نفس الأمر، إذ هذا ممّا لا يخطر بالبال أن تتلبّس به أمّة متديّنة فاقتصر، في الرّدّ على الأمّة، على أنّ أنبياءهم لم يأمروهم به، ولذلك عقّب بالاستفهام الإنكاريّ، وبالظّرف المفيد مزيد الإنكار على ارتكابهم هذه الحالة، وهي قوله: ﴿**أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾"[137].

قوله تعالى: ﴿**أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ [الآيات: 124، 125].

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية -على هذا القول- وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: 9، 10]؟

فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم. قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف[138].



(137) التحرير والتنوير (3 / 296).

(138) قاله ابن كثير في تفسيره (2 / 112). وفي قراءة (مردفين) بفتح الدال أي يردفهم غيرهم من الملائكة

سورة النساء

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [الآية: 11].

إن قيل: لم نكَّر الوصيةَ والدَّين؟

فالجواب: ليدلَّ على أنهما قد يكونان وقد لا يكونان، فدل ذلك على وجوب الوصية.

فإن قيل: ما الحكمة في تكرير قوله تعالى: (من بعد وصية) مع ميراث الزوج وميراث الزوجة، ولم يذكره قبل ذلك إلا مرة واحدة في ميراث الأولاد والأبوين؟

فالجواب: أن الموروث في ميراث الزوج هو الزوجة، والموروث في ميراث الزوجة هو الزوج، وكل واحدة قضية على انفرادها، فلذلك ذكر ذلك مع كل واحدة، بخلاف الأولى، فإن الموروث فيها واحد ذكر، حكم ما يرث منه أولاده وأبواه، وهي قضية واحدة، فلذلك قال فيها: (من بعد وصية) مرة واحدة. قاله العلامة ابن جزي[139].

وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: ما معنى أو؟ قلت: معناها الإباحة: وأنه إن كان أحدهما أو كلاهما، قدم على قسمة الميراث، كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين. فإن قلت: لم قدّمت الوصية على الدين والدين مقدم عليها في الشريعة؟ قلت: لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها مأخوذة من غير عوض، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاظمهم ولا تطيب أنفسهم بها، فكان أداؤها مظنة للتفريط، بخلاف الدين فإنّ نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدمت على الدين بعثًا على وجوبها والمسارعة إلى إخراجها مع الدين، ولذلك جيء بكلمة "أو" للتسوية بينهما في الوجوب، ثم أكد ذلك ورغب فيه بقوله: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الآية"[140].

---

(139) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 236 - 237).

(140) الكشاف 1 / 483.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [الآية: 42].

إن قيل: كيف هذا، مع قولهم في موضع آخر: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]؟ فالجواب: من وجهين أحدهما: أن الكتم لا ينفعهم لأنهم إذا كتموا تنطق جوارحهم، فكأنهم لم يكتموا، والآخر: أنهم طوائف مختلفة، ولهم أوقات مختلفة، وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ عطف على ﴿تُسَوَّى﴾، أي يتمنون أن لا يكتموا، لأنهم إذا كتموا افتضحوا. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله[141].

قال الجصَّاص في معنى الآية:

"فيه وجوه: أحدها: أنّ الآخرة مواطن فموطن لا تسمع فيه إلّا همسًا أي صوتًا خفيا، وموطن يكذبون فيه فيقولون ما كنّا نعمل من سوءٍ والله ربّنا ما كنّا مشركين، وموطن يعترفون فيه بالخطإ ويسألون الله أن يردّهم إلى الدّنيا؛ وروي ذلك عن الحسن. وقال ابن عبّاسٍ: إنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ داخل في التّمنّي بعدما نطقت جوارحهم بفضيحتهم وقيل: إنّ معناه أنّه لا يعتدُّ بكتمانهم؛ لأنّه ظاهر عند الله لا يخفى عليه منه شيء، فكان تقديره أنّهم غير قادرين هناك على الكتمان؛ لأنّ الله يظهره.

وقيل: إنّهم لم يقصدوا الكتمان؛ لأنّهم إنّما أخبروا على ما توهّموا، ولا يخرجهم ذلك من أن يكونوا قد كتموا، والله تعالى أعلم"[142].

وقال الإمام الزركشي في البرهان: "والجواب من وجهين أحدهما: أن للقيامة مواطن، ففي بعضها يقع منهم الكذب وفي بعضها لا يقع كما سبق. والثاني: أن الكذب يكون بأقوالهم والصدق يكون من

(141) التسهيل 256/1.
(142) أحكام القرآن للجصاص (3 / 164).

جوارحهم، فيأمرها الله تعالى بالنطق فتنطق بالصدق، وكقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 164] مع قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]"[143].

وقال الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: "ووجه الجمع في ذلك هو ما بيّنه ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما لما سئل عن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ مع قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، وهو أنَّ ألسنتهم تقول: (والله ربّنا ما كنّا مشركين) فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

فكتم الحقّ باعتبار اللّسان وعدمه باعتبار الأيدي والأرجل، وهذا الجمع يشير إليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65].

وأجاب بعض العلماء بتعدّد الأماكن فيكتمون في وقتٍ ولا يكتمون في وقتٍ آخر، والعلم عند الله تعالى"[144].

قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: 46].

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: كيف قيل هاهنا ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ وفي المائدة ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 41]؟

قلت: أمّا (عن مواضعه) فعلى ما فسرناه من إزالته عن مواضعه التي أوجبت حكمة الله وضعه فيها بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه. وأمّا (من بعد مواضعه) فالمعنى: أنه كانت له مواضع هو قمن بأن يكون فيها، فحين حرفوه تركوه كالغريب الذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارّه"[145].

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 79].

---

(143) البرهان 2 / 56.
(144) ينظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (1 / 64- 63).
(145) الكشاف (1 / 517).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قيل: إذا كانت الطّاعات والمعاصي مقدّرةً، والنّعم والمصائب مقدّرةً. فلم فرّق بين الحسنات، الّتي هي النّعم، والسّيّئات، الّتي هي المصائب؟ فجعل هذه من الله، وهذه من نفس الإنسان؟

قيل: لفروق بينهما: الفرق الأوَّل: أنّ نعم الله وإحسانه إلى عباده يقع ابتداءً بلا سببٍ منهم أصلًا. فهو ينعم بالعافية والرّزق والنّصر، وغير ذلك على من لم يعمل خيرًا قطّ. وينشئ للجنّة خلقًا يسكنهم فضول الجنّة. وقد خلقهم في الآخرة لم يعملوا خيرًا. ويدخل أطفال المؤمنين ومجانينهم الجنّة برحمته بلا عملٍ. وأمّا العقاب: فلا يعاقب أحدًا إلّا بعمله. الفرق الثّاني: أنّ الّذي يعمل الحسنات. إذا عملها، فنفس عمله الحسنات: هو من إحسان الله، وبفضله عليه بالهداية والإيمان، كما قال أهل الجنّة ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾ [الأعراف: 43] وفي الحديث الصّحيح «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[146]، فنفس خلق الله لهم أحياءً، وجعله لهم السّمع والأبصار والأفئدة: هو من نعمته ونفس إرسال الرّسول إليهم، وتبليغه البلاغ المبين الذي اهتدوا به: هو من نعمته. وإلهامهم الإيمان، وهدايتهم إليه، وتخصيصهم بمزيد نعمةٍ حصل لهم بها الإيمان دون الكافرين: هو من نعمته. كما قال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً**﴾ [الحجرات: 7، 8] فجميع ما يتقلّب فيه العالم من خيري الدّنيا والآخرة: هو نعمة محضة منه بلا سببٍ سابقٍ يوجب لهم حقًّا. ولا حول ولا قوّة لهم من أنفسهم إلّا به. وهو خالق نفوسهم، وخالق أعمالها الصّالحة، وخالق الجزاء. فقوله ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ حقّ من كلّ وجهٍ، ظاهرًا وباطنًا على مذهب أهل السّنّة. وأمّا "السّيّئة" فلا تكون إلّا بذنب العبد. وذنبه من نفسه. وهو لم يقل: إنّي لم أقدّر ذلك ولم أخلقه. بل ذكر للنّاس ما ينفعهم"[147].

(146) أخرجه مسلم (4/ 1994) برقم 2577.

(147) مجموع فتاوى ابن تيمية (259/14 -261).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ..﴾ [الآية: 135].

إن قيل: كيف قدّم هنا قوله: (بالقسط) في حين أخره في "المائدة" فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ**..﴾[المائدة: 8] فما وجه ذلك؟

قال الإمام أبو جعفر الغرناطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الجواب عنه والله أعلم: أن الآيات المتصلة بآية سورة النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط قال تعالى: ﴿**مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ الآية [النساء: 123]. وقال بعد: ﴿**وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ**﴾ [النساء: 127] ثم قال ﴿**وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ**﴾ وتوالت الآي بعدُ على هذا المعنى، فقدم قوله: (بالقسط) ليناسب ما ذكر.

وأما آية المائدة: فثبت قبلها الأمر بالطهارة، ثم تذكيره سبحانه بتذكر نعمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده، والأمر بتقواه، فناسبه قوله: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ**﴾ ثم أتبع بما بنى على ذلك من الشهادة بالقسط. فتأمل ما بني على هذه وما بني على آية النساء يتضح لك ما قلته، والله أعلم بما أراد"[148].

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [الآية: 147].

إن قيل: ما الحكمة في تقديم الشكر على الإيمان، علما أن الإيمان أفضل من الشكر؟ فالجواب: قدم الشكر على الإيمان لأن العبد ينظر إلى النعم فيشكر عليها، ثم يؤمن بالمنعم. فكان الشكر سببًا للإيمان متقدم عليه، ويحتمل أن يكون الشكر يتضمن الإيمان، ثم ذكر الإيمان بعده توكيدًا واهتمامًا به[149].

قال مقيده: الاحتمال الثاني أقرب للصواب، فإن الله جل وعلا كثيرا ما يذكر الكفر في مقابل الشكر، كما في قوله: ﴿**إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ [الزمر: 7]، وقوله تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: 152]، وقوله تعالى:

---

(148) ملاك التأويل القاطع (1/ 111).

(149) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 285).

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40]، وأما القول الأول ففيه نظر، إذ ليس كل من ينظر إلى النعم يشكر عليها، ويؤمن بالمنعم، بل الغالب على الناس كفران النعم، والبطر بها إلا من رحم الله، والنادر لا حكم له، والله أعلم.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: "ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان، ولذلك كان أرفعها وأعلاها وهو فوق الرضا، وهو يتضمن الصبر من غير عكس، ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له، ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرا، والشاكرون هم أقل العباد كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13]"[150].

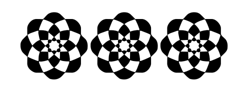
قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [الآية: 176].

قلت: إن قيل لم جاء هنا (يستفتونك) من غير واو، وقبلها صدرت الآية بالواو عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ [النساء: 127]؟

فالجواب: أن الأولى التي بالواو، جاءت في معرض السؤال، لأن السؤال كان من أجل معرفة ما يجب عليهم في أمر النساء، فأجابهم بأن أمرهن متلو عليهم في الكتاب -يعني القرآن- ثم بين لهم ما يتعلق بالقسط في يتامى النساء اللاتي لا يؤتونهن ما كتب لهن، ثم أمرهم بالقسط في اليتامى، فكانت الواو إشارة إلى تعداد الأوامر، والإرشادات، بخلاف (يستفتونك) الثانية، فإنها كانت في أمر واحد وهو الكلالة، ومنفصلة عن الأسئلة السابقة، بدليل ما رواه الترمذي وغيره من حديث محمد بن المنكدر، سمع جابر بن عبد الله يقول: "مَرِضْتُ فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُنِي فَوَجَدَنِي قَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ فَأَتَى وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَهُمَا مَاشِيَانِ فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَبَّ عَلَيَّ مِنْ وَضُوئِهِ فَأَفَقْتُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَقْضِي فِي

(150) مدارج السالكين 1 / 131.

مَالِي أَوْ كَيْفَ أَصْنَعُ فِي مَالِي فَلَمْ يُجِبْنِي شَيْئًا وَكَانَ لَهُ تِسْعُ أَخَوَاتٍ حَتَّى نَزَلَتْ آيَةُ الْمِيرَاثِ يَسْتَفْتُونَكَ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ الْآيَةَ قَالَ جَابِرٌ ﵁: فِيَّ نَزَلَتْ"[151]. والله أعلم.



(151) **حديث صحيح**: سنن الترمذي (4/ 417) برقم 2097، وقال حديث حسن صحيح، ورواه أبو داود وابن ماجه.

سورة المائدة

قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية: 38].

إن قيل: ما الحكمة في تقديم ذكر السارق على السارقة؟

فالجواب -والله أعلم-: لأن السرقة في الرجال أكثر منها في النساء، والسبب في ذلك "أن الرجل أحرص على المال من المرأة"، كما قال سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله في تفسيره(152).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الآية: 40].

إن قيل: لم قدم العذاب على المغفرة؟

فالجواب: قدم العذاب على المغفرة لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة، عند قوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله(153).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ..﴾ [الآية: 44].

قال الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: "إن قيل ما الفرق بين التّوراة والقرآن؟ فإنّ كلًّا منهما كلام الله أنزله على رسولٍ من رسله -صلوات الله وسلامه عليهم- والتّوراة حرّفت، وبدّلت كما بيّنّاه آنفًا، والقرآن

(152) تفسير العز بن عبد السلام 1 /385، وكتابه هذا إنما هو مختصر من تفسير النكت والعيون للإمام أبي الحسن علي الشهير بالماوردي.
(153) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 309).

محفوظ من التّحريف والتّبديل، لو حرّف منه أحد حرفًا واحدًا فأبدله بغيره، أو زاد فيه حرفًا أو نقص منه آخر لردّ عليه آلاف الأطفال من صغار المسلمين فضلًا عن كبارهم؟

فالجواب: أنَّ الله استحفظهم التَّوراة، واستودعهم إيّاها، فخانوا الأمانة ولم يحفظوها، بل ضيّعوها عمدًا، والقرآن العظيم لم يكل الله حفظه إلى أحدٍ حتّى يمكنه تضييعه، بل تولّى حفظه جلّ وعلا بنفسه الكريمة المقدّسة، كما أوضحه بقوله: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: 9]، وقوله: ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**﴾ [فصلت: 42]، إلى غير ذلك من الآيات"[154].

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [الآية: 69].

قلت: إن قيل: كيف قال هنا: (والصَّابئون) في حين قال في موضع آخر: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: 62]؟

فالجواب: أن (والصَّابئين) معطوفة على ما سبق، فلذلك نصب بالياء نيابة عن الفتحة لأنه جمع مذكر سالم، أما (والصَّابئون) فرفع على الابتداء.

قال الزمخشري في الكشاف: " (والصابئون) رفع على الابتداء وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها، كأنه قيل: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا، والصابئون كذلك"، وأنشد سيبويه شاهدًا له:

وإلاّ فاعلموا أنّا وأنتم ... بغاة ما بقينا في شقاق

(154) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (1 / 405).

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك"[155].

وقال الزجاج في إعراب القرآن: "والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا -إلى قوله- فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك. فالتقدير في (والصابئون) أي والصائبون كذلك، فحذف الخبر وفصل بين اسم إن بمبتدأ مؤخر تقديرًا، وقال ضابئ بن الحارث البرجمي:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله   فإني وقيارًا بها لغريب

أي إني لغريب وإن قيارًا كذلك"[156].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: 112].

إن قيل: هذا القول من الحواريين شك في قدرة الله تعالى، فكيف صدر منهم ذلك؟

فالجواب: قال ابن عطية وغيره ليس كذلك، لأنهم شكوا في قدرة الله، لكنه بمعنى: هل يفعل ربك هذا؟ وهل يقع منه إجابة إليه؟ وهذا أرجح، لأن الله أثنى على الحواريين في مواضع من كتابه، مع أن في اللفظ بشاعة تنكر. وقرىء "تستطيع" بتاء الخطاب، ربك بالنصب، أي: هل تستطيع سؤال ربك؟ وهذه القراءة لا تقتضي أنهم شكوا. وبها قرأت عائشة ﵂ وقالت: كان الحواريون أعرف بربهم من أن يقولوا: هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء. قاله العلامة ابن جزي ﵀[157].

قال مقيده: وقد ذهب الزمخشري إلى أن الله تعالى ما وصفهم بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم! وهذا كلام لا يلتفت إليه، إذ لو أنهم شكوا لكفروا، ولو كفروا لكشف الله تعالى كفرهم، ولكنهم قصروا في الأدب مع ربهم، كما قصروا الأدب مع نبيهم، وأنهم أساؤوا الأدب حين دعوه باسمه قائلين: (يا

(155) الكشاف 1/ 660 - 661.

(156) (1 / 172).

(157) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 340 - 341).

عيسى ابن مريم)، بخلاف صحابة رسول الله ﷺ -رضي الله عنهم- فإنهم ما كانوا ينادونه: "محمد"، بل: "يا رسول الله" أو "يا نبي الله". فلله الحمد والمنة أن جعلنا من أمته ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وكذلك قول الحواريّين: ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ**﴾ إنّما استفهموا عن هذه القدرة وكذلك ظنّ يونس أن لن نقدر عليه أي فسّر بالقدرة كما يقال للرّجل؛ هل تقدر أن تفعل كذا؟ أي هل تفعله؟ وهو مشهور في كلام النّاس"[158].

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "وجرى قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**﴾ على طريقةٍ عربيّةٍ في العرض والدّعاء، يقولون للمستطيع لأمرٍ: هل تستطيع كذا، على معنى تطلّب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك، وأنّ السّائل لا يحبّ أن يكلّف المسئول ما يشقّ عليه، وذلك كناية فلم يبق منظورًا فيه إلى صريح المعنى المقتضي أنّه يشكّ في استطاعة المسئول، وإنّما يقول ذلك الأدنى للأعلى منه، وفي شيءٍ يعلم أنه مستطاع للمسؤول، فقرينة الكناية تحقّق المسئول أنّ السّائل يعلم استطاعته.

ومنه ما جاء في حديث يحيى المازنيّ أنّ رجلًا قال لعبد الله بن زيدٍ: "أتستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضّأ".[159] فإنّ السّائل يعلم أنّ عبد الله بن زيدٍ لا يشقّ عليه ذلك. فليس قول الحواريّين المحكيّ بهذا اللّفظ في القرآن إلّا لفظًا من لغتهم يدلّ على التّلطّف والتّأدّب في السّؤال، كما هو مناسب أهل الإيمان الخالص. وليس شكًّا في قدرة الله تعالى، ولكنّهم سألوا آيةً لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان بأن ينتقلوا من الدّليل العقليّ إلى الدّليل المحسوس. فإنّ النّفوس بالمحسوس آنس، كما لم يكن سؤال إبراهيم بقوله ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى**﴾ [البقرة: 260] شكًّا في الحال. وعلى هذا المعنى جرى تفسير المحقّقين مثل ابن عطيّة، والواحديّ، والبغويّ خلافًا لما في (الكشّاف)"[160].

---

(158) مجموع الفتاوى (8 / 374).

(159) أخرجه البخاري (1/ 80) برقم 183، والإمام مالك في موطئه، وأبو داود والنسائي وابن ماجه، وأحمد في مسنده، وغيرهم.

(160) التحرير والتنوير (7 / 105).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [الآية: 109] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الآية: 116].

إن قيل: السؤال يكون للمعرفة، فكيف يصدر من الله تعالى وهو علام الغيوب؟

فالجواب: قال الأصفهاني: "قيل: إن ذلك سؤال لتعريف القوم وتبكيتهم لا لتعريف الله تعالى، فإنه علام الغيوب، فليس يخرج عن كونه سؤالا عن المعرفة، والسؤال للمعرفة يكون تارة للاستعلام وتارة للتبكيت كقوله تعالى: (وإذا الموءودة سئلت) ولتعرف المسئول.

والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة بالجار، تقول: "سألته كذا وسألته عن كذا، وبكذا، وبـ: عن أكثر ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 83] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [البقرة: 186]، وقال ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: 1]، وإذا كان السؤال لاستدعاء مال فإنه يتعدى بنفسه أو بمن نحو ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: 53] ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ [الممتحنة: 10] وقال ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32] ويعبر عن الفقير إذا كان مستدعيا لشيء بالسائل نحو ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 10] وقوله ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: 19]"[161].

قوله تعالى على لسان عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الآية: 118].

إن قيل: كيف قال: (وإن تغفر لهم) وهم كفار، والكفار لا يغفر لهم؟

---

(161) غريب القرآن للأصفهاني (1 / 250).

فالجواب: أن المعنى تسليم الأمر إلى الله، وأنه إن عذب أو غفر فلا اعتراض عليه، لأن الخلق عباده، والمالك يفعل في ملكه ما يشاء، ولا يلزم من هذا وقوع المغفرة للكفار، وإنما يقتضي جوازها في حكمة الله تعالى وعزته، وفرق بين الجواز والوقوع. وأما على قول من قال: إن هذا الخطاب لعيسى عليه السلام حين رفعه الله إلى السماء، فلا إشكال، لأن المعنى: إن تغفر لهم بالتوبة وكانوا حينئذ أحياء، وكل حي معرض للتوبة. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله(162).

قلت: القول الثاني فيه نظر، إذ لو كان كذلك لختمت الآية بـ"فإنك أنت الغفور الرحيم"، وليس بـ: (فإنك أنت العزيز الحكيم). والله أعلم.

السؤال الثاني: ما مناسبة قوله: (فإنك أنت العزيز الحكيم)، لقوله: (وإن تغفر لهم). والأليق مع ذكر المغفرة أن لو قيل: (فإنك أنت الغفور الرحيم)؟

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "والجواب من ثلاثة أوجه، الأول: يظهر لي -القائل صاحب التسهيل- أنه لما قصد التسليم لله والتعظيم له كان قول: (إنك أنت العزيز الحكيم) أليق. فإن الحكمة تقتضي التسليم له، والعزة تقتضي التعظيم له، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد ولا يغلبه غيره ولا يمتنع عليه شيء أراده، فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو عدم المغفرة، لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته، وأيهما فعل فهو جميل لحكمته.

الجواب الثاني: قاله شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: إنما لم يقل الغفور الرحيم، لئلا يكون في ذلك تعريض في طلب المغفرة لهم، فاقتصر على التسليم والتفويض دون الطلب، إذ لا تطلب المغفرة للكفار، وهذا قريب من قولنا.

---

(162) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 341).

الثالث حكى شيخنا الخطيب أبو عبد الله بن رشيد عن شيخه إمام البلغاء في وقته حازم بن حازم أنه كان يقف على قوله: وإن تغفر لهم. ويجعل: (فإنك أنت العزيز الحكيم). استئنافًا، وجواب إن في قوله: (فإنهم عبادك). كأنه قال: إن تعذبهم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك على كل حال."[163] ا.هـ

قال مقيده: قوله تعالى: (فإنك أنت العزيز الحكيم) جاءت فيها صفتان لله ﷻ: العزة والحكمة. فأما (العزيز) ففيها التفويض والتسليم للغالب الذي لا يغلب، والقاهر الذي لا يقهر، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، و ﴿**لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: 23. وأما (الحكيم) ففيها الحكم بين العباد بالقسط، وإحكام الأمور وإتقانها، فدلت هذه الصفة على تعذيب من مات مشركًا بالله تعالى، لأن حكمته جل وعلا تأبى أن تجعل المؤمنين والمشركين في منزلة سواء. وقد أشار ﷻ إلى هذا عند قوله تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ [ص: 28]؟!، وقوله تعالى: ﴿**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [القلم: 35، 36]؟! وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ**﴾ [السجدة: 18]، فتضمن قول عيسى عليه السلام التفويض والتنزيه، تفويض أمر المشركين لخالقهم سبحانه، وتنزيه الرب جل وعلا من عدم الانتقام منهم. والله أعلم بمراد كلامه، ونسبة العلم إليه أسلم.

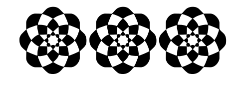
وأجاب الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله بقوله: إن كل كلمة في القرآن جاذبة لمعناها، وكل معنى في القرآن عاشق لكلمته. ولذلك جاء التذييل في هذه الآية بما يخدم طلاقة المشيئة في تعذيبهم أو في الغفران لهم، فإن عذبهم فليس هناك قوة ثانية تستطيع أن تحميهم من عذابه؛ لأنه –سبحانه– عزيز، وإن غفر لهم فلا توجد قوة أعلى تسأله: "كيف غفرت لهم وقد كانوا كافرين؟".

إذن فسبحانه: (لا يسأل عما يفعل) لأنه عزيز حكيم. وأيضًا فقولهم: كان الأنسب أن يقول: "فإنك أنت الغفور الرحيم". نقول لهم: هي تناسب قوله: (وإن تغفر لهم) ولكنها لا تناسب: (إن تعذّبهم) فكان لا بد أن يأتي تذييل الآية بما يناسب: (إن تعذّبهم) وبما يناسب قوله تعالى: (وإن تغفر لهم)"[164].

---

(163) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 341).

وبالنسبة إلى هاتين الصفتين -العزيز الحكيم- يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: "والعزّة تتضمّن القدرة والشّدّة والامتناع والغلبة. تقول العرب: عزّ يعز بفتح العين إذا صلب وعزّ يعزّ بكسرها إذا امتنع وعزّ يعزّ بضمّها إذا غلب. فهو سبحانه في نفسه قويّ متين وهو منيع لا ينال وهو غالب لا يغلب. والحكيم يتضمّن حكمه وعلمه وحكمته فيما يقوله ويفعله فإذا أمر بأمر كان حسنًا وإذا أخبر بخبر كان صدقًا وإذا أراد خلق شيءٍ كان صوابًا فهو حكيم في إراداته وأفعاله وأقواله"(165).



=

(164) خواطر الإمام محمد متولي الشعراوي ﵀ 780.

(165) مجموع الفتاوى (14 / 180).

سورة الأنعام

قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الآية: 11].

قال الزمخشري: "فإن قلت: أي فرق بين قوله (فانظروا) وبين قوله: (ثمّ انظروا)؟

قلت: جعل النظر مسببًا عن السير في قوله: (فانظروا) فكأنه قيل سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين. وأما قوله: (سيروا في الارض ثمّ انظروا) فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح"[166].

قوله تعالى: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الآية: 38].

إن قيل: لم قال: (بجناحيه) ومعلوم أن الطائر لا يطير إلا بمساعدة جناحيه، بأمر من الله تعالى؟

فالجواب: أنه قال: (بجناحيه) تأكيدا وبيانا وإزالة للاستعارة المتعاهدة في هذه اللفظة، فقد يقال: طائر. للسعد والنحس[167].

قال الزمخشري ﵀: "فإن قلت: هلا قيل: وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم؟ وما معنى زيادة قوله: (وفي الأرض) و (يطير بجناحيه) قلت: معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها. فإن قلت: "فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما

(166) الكشاف (2/ 8).

(167) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 354).

عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان"[168].

وقال الإمام الزركشي ﷺ: "ويحتمل أن يقال: إن الطيران لما كان يوصف به من يعقل كالجان والملائكة، فلو لم يقل: (بجناحيه) لتوهم الاقتصار على حبسها ممن يعقل، فقيل (بجناحيه) ليفيد إرادة هذا الطير المعتقد فيه عدم المعقولية بعينه. وقيل: إن الطيران يستعمل لغة في الخفة وشدة الإسراع في المشي كقول الحماسي:

قوم إذا الشَّرُّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

فقوله: (يطير بجناحيه) رافع لاحتمال هذا المعنى. وقيل: لو اقتصر على ذكر الطائر فقال: وما من دابة في الأرض ولا طائر، لكان ظاهر العطف يوهم: "ولا طائر في الأرض"، لأن المعطوف عليه إذا قيد بظرف أو حال، يقيد به المعطوف، وكان ذلك يوهم اختصاصه بطير الأرض الذي لا يطير بجناحيه، كالدجاج والإوز والبط ونحوها، فلما قال: (يطير بجناحيه) زال هذا الوهم، وعلم أنه ليس بطائر مقيد، إنما تقيدت به الدابة"[169].

قال مقيده: ونظير هذا، قوله تعالى: ﴿**قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ**﴾ [يس: 19]، أي: شؤمكم معكم. وقد كان الرجل يخرج مسافرًا فيمر بطائر فيزجره، فإن مر سانحًا تيمن واستبشر، وإن مر بارحًا تشاءم وتوقع الضرر، فقالت لهم رسلهم: أعمالكم وأرزاقكم وحظكم من الخير والشر معكم، ذلك كله في أعناقكم، وما ذلك من شؤمنا إن أصابكم سوء فيما كتب عليكم، وسبق لكم من الله الخبير العليم.

قوله تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**﴾ [الآية: 59].

قلت: إن قيل: لم قال: (مفاتح) ولم يقل: "مفاتيح"؟

(168) الكشاف (2/ 21).
(169) البرهان في علوم القرآن 2 / 426.

فالجواب: لم يقل مفاتيح، لأن المفاتح جمع مفتح، وهو المخزن، والمفاتيح جمع مفتاح، وهو الذي يفتح به المخزن. ومعلوم بالضرورة أن من ملك المخزن قدر على فتحه بأي نوع كان، وليس من ملك المفتاح قدر على المخزن، فالله سبحانه عنده مفاتح الغيب كلها. قاله الشيخ حامد بن محمد رحمه الله(170).

قال مقيده: وهذا التفريق قد ذكره الإمام أبو البقاء في التبيان في إعراب القرآن، فقال: "(مفاتح): هو جمع مفتحٍ، والمفتح الخزانة؛ فأمّا ما يفتح به فهو مفتاح، وجمعه مفاتيح، وقد قيل: مفتح أيضًا"(171).ا.هـ

وفي صحيح البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: (مفاتح الغيب) خمس: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: 34]".

وجاء لفظ مفاتيح في أحاديث أخرى، منها ما رواه الشيخان في صحيحيهما، عن عقبة بن عامر، أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض –أو مفاتيح الأرض– وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**»(172).

وفي مسند أحمد، عن محمّد بن عليٍّ أنّه سمع عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال نصرت بالرّعب وأعطيت مفاتيح الأرض وسمّيت أحمد وجعل التّراب لي طهورًا وجعلت أمّتي خير الأمم**»(173).

---

(170) كتاب فتح الله الحميد المجيد. قال العلامة بكر أبو زيد رحمه الله: "والمؤلف رحمه الله لا نعرف عنه شيئا أكثر مما ذكر، وبعد البحث علمت أنه من الشارقة في: الإمارات العربية المتحدة ". مقدمة تحقيق كتاب فتح الحميد المجيد صفحة 6 الطبعة الأولى دار المؤيد.

(171) التبيان في إعراب القرآن (1 / 502).

(172) أخرجه البخاري (1/ 451) برقم 1279، صحيح مسلم (4/ 1795) برقم 2296.

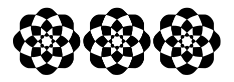
(173) أخرجه أحمد (2/ 156) برقم 763.

وروى ابن ماجه من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه**»[174].

قوله تعالى: ﴿**قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ [الآية: 130].

إن قيل: ما الحكمة في تكرير شهادتهم على أنفسهم؟

فالجواب: أن قولهم شهدنا على أنفسنا، قول قالوه هم، وقوله: شهدوا على أنفسهم، ذل لهم وتقبيح لحالهم[175].



(174) أخرجه ابن ماجة (حديث رقم 237) وابن أبي عاصم في "السنة" ينظر السلسلة الصحيحة (3 /320).
(175) التسهيل لعلوم التنزيل 1 / 375.

سورة الأعراف

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الآيات: 14، 15].

قال مقيده: إن قيل: انطلاقا من هذه الآية، فإبليس لن يموت، لأنه سأل ربه أن ينظره إلى يوم البعث، فأجابه ربه: (إنك من المنظرين)؟ فالجواب: هذه الآية مطلقة، قد قيدتها التي في سورة "الحجر" وسورة "ص" عند قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 36 - 38]. وعند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: 79 - 81]، فبين سبحانه هنا، أنه سينظر إبليس إلى أجل مؤقت معلوم عنده، وليس كما طمع فيه عدو الله تعالى، حيث طمع في الخلود. والله أعلم.

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قال قائل: فإن الله قد قال له إذ سأله الإنظار إلى يوم يبعثون: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سأل؟

قيل له: ليس الأمر كذلك، وإنما كان مجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: "إنك من المنظرين إلى الوقت الذي سألت، أو إلى يوم البعث، أو إلى يوم يبعثون"، أو ما أشبه ذلك، مما يدل على إجابته إلى ما سأل من النظرة.

وأما قوله: (إنك من المنظرين)، فلا دليل فيه، لولا الآية الأخرى التي قد بيّن فيها مدة إنظاره إياه إليها، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الآيات، كم المدة التي أنظره إليها، لأنه إذا أنظره يومًا واحدًا أو أقل منه أو أكثر، فقد دخل في عداد المنظرين، وتمّ فيه وعد الله الصادق، ولكنه قد بيّن قدر مدة ذلك بالذي ذكرناه، فعلم بذلك الوقت الذي أنظر إليه" ا.هـ[176].

---

(176) تفسير الطبري (12 / 331).

وبمثل هذا قال صاحب الأضواء: "لم يبيّن هنا في سورة الأعراف الغاية الّتي أنظره إليها، وقد ذكرها في (الحجر) و (ص) مبيّنًا أنّ غاية ذلك الإنظار هو يوم الوقت المعلوم. لقوله: في سورة (الحجر) و (ص): ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ فقد طلب الشّيطان الإنظار إلى يوم البعث، وقد أعطاه الله الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم.

وأكثر العلماء يقولون: المراد به وقت النّفخة الأولى، والعلم عند الله تعالى"[177].

قال ابن جرير ﷺ: "فإن قال قائل: فهل أحد منظر إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: "إنك منهم"؟

قيل: نعم، من لم يقبض الله روحه من خلقه إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بآجالهم إليه. ولذلك قيل لإبليس: (إنك من المنظرين)، بمعنى: إنك ممن لا يميته الله إلا ذلك اليوم[178].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: 56].

قال مقيده: إن قيل: كيف ذكّر (قريب) مع أن (رحمة) مؤنث، والمعهود أن يكون تركيب الآية: (إن رحمت الله قريبة من المحسنين)؟

فالجواب: حذفت تاء التأنيث من قريب، وهو خبر عن الرحمة، على تأويل الرحمة بالرحم، أو الترحم، أو العفو، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي، أو لأنه صفة موصوف محذوف وتقديره شيء قريب، أو على تقدير النسب، أي: ذات قرب. وقيل: قريب –هنا– ليس خبر عن الرحمة وإنما هو ظرف لها. قاله العلامة ابن جزي[179].

وقال الإمام القرطبي في تفسيره: "قوله تعالى: (إن رحمت الله قريب من المحسنين) ولم يقل قريبة.

(177) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2 / 11).
(178) تفسير الطبري (12 / 332).
(179) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 395).

ففيه سبعة أوجه: أولها أن الرحمة والرحم واحد، وهي بمعنى العفو الغفران، قاله الزجاج واختاره النحاس.

وقال النضر بن شميل: الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير، كقوله: "فمن جاءه موعظة". وهذا قريب من قول الزجاج، لأن الموعظة بمعنى الوعظ.

وقيل: أراد بالرحمة الإحسان، ولأن ما لا يكون تأنيثه حقيقيا جاز تذكيره، ذكره الجوهري.

وقيل: أراد بالرحمة هنا المطر، قاله الأخفش. قال: ويجوز أن يذكر كما يذكر بعض المؤنث. وأنشد:

فــــلا مزنــــة ودقــــت ودقهـــــا ولا أرض أبقــــــل إبقالهـــــــا(180)

وقال أبو عبيدة: ذكر "قريب" على تذكير المكان، أي مكانا قريبا.

قال علي بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان "قريب" منصوبا في القرآن، كما تقول: إن زيدا قريبا منك.

وقيل: ذكر على النسب، كأنه قال: إن رحمة الله ذات قرب، كما تقول: امرأة طالق وحائض.

وقال الفراء: إذا كان القريب في معنى المسافة يذكر ويؤنث، وإن كان في معنى النسب يؤنث بلا اختلاف بينهم. تقول: هذه المرأة قريبتي، أي ذات قرابتي، ذكره الجوهري. وذكره غيره عن الفراء: يقال في النسب قريبة فلان، وفي غير النسب يجوز التذكير والتأنيث، يقال: دارك منا قريب، وفلانة منا قريب، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**﴾ [الأحزاب: 63]".

---

(180) البيت من شعر عامر بن جوين الطائي، وقبله، يصف جيشًا:

وجاريــــةٍ مــــن بنــــات الملــــوك قعقعــــت بالخيــــل خلخالهــــا
ككــر فئــة الغيــث ذات الصّــبير رمــى السّــحاب ويرمــى لهــا
تواعــــدتها بعــــد مــــرّ النّجــــوم كلفــــاء ت كثــــر تهطالهــــا
فــــلا مزنــــة ودقــــت ودقهــــا لا أرض أبقــــل إبقالهــــا

ينظر معاني القرآن للفراء (1/ 127)، وإعراب القرآن للنحاس (2/ 57)، والجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي (ص: 43).

وقال من احتج له: كذا كلام العرب، كما قال امرؤ القيس:

لــه الويــل إن أمســى ولا أم هاشــم قريــب ولا البسباســة ابنــة يشــكرا

قال الزجاج: "وهذا خطأ، لأن سبيل المذكر والمؤنث أن يجريا على أفعالهما"[181].

وقال الجوهري: "وقوله تعالى: (إنّ رحمت الله قريب من المحسنين) ولم يقل قريبة، لأنه أراد بالرحمة الإحسان، ولأنّ ما لا يكون تأنيثه حقيقيًّا جاز تذكيره"[182].

وقال ابن سيده في المحكم والمحيط الأعظم: "قوله تعالى: (إنّ رحمت الله قريب من المحسنين) فإنما ذكر على النسب. وكأنه اكتفى بذكر الرّحمة عن الهاء، وقيل: إنما ذلك لأن التأنيث غير حقيقي"[183].

وفي شرح ابن عقيل: "وربما كان المضاف مؤنثا فاكتسب التذكير من المذكر المضاف إليه، بالشرط الذي تقدم، كقوله تعالى: (إن رحمت الله قريب من المحسنين) ف"رحمت": مؤنث، واكتسبت التذكير بإضافتها إلى (الله) تعالى"[184].

قال مقيده: وعندي أن (قريب) تعود على (الله)، فهو الرحمن الرحيم، والرحمة صفة من صفاته، فالمؤمن حين يدعو ربه يكون قريبا منه جل وعلا، كما قال ﷺ: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء". رواه مسلم في صحيح. كما أن الرب سبحانه يقرب من عبده في جوف الليل الآخر، كما قال ﷺ: "أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن"[185].

(181) تفسير القرطبي (7 / 227- 228).
(182) الصحاح في اللغة (2 / 68).
(183) المحكم والمحيط الأعظم (2 / 32).
(184) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (2 / 50- 51).
(185) رواه النسائي وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وصححه الألباني.

فما دام هناك قرب الداعي من ربه، وقرب الرب من عبده، فمعنى الآية -والله أعلم-: "وادعوه خوفا وطمعا، إن الله ذا الرحمة قريب من المحسنين "أو" إن الله الرحيم قريب من المحسنين". ولذلك قال سبحانه: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: 186] الآية، فالرحمة المذكورة في آية الأعراف، المراد بها الرحمن سبحانه الموصوف بالرحمة، والرحيم برحمته، وأيضا يوضح هذا قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿**فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ**﴾ [هود: 61]. وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: «**أيها الناس، اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا؛ إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»[186].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والرّبّ تعالى لا يكون شيء أعلى منه قطّ بل هو العليّ الأعلى ولا يزال هو العليّ الأعلى مع أنّه يقرب إلى عباده ويدنو منهم وينزل إلى حيث شاء ويأتي كما شاء. وهو في ذلك العليّ الأعلى الكبير المتعالي عليّ في دنوّه قريب في علوّه"[187].

قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿**لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ**﴾ [الآية: 61].

إن قيل: لم قال: (ضلالة) ولم يقل: "ليس بي ضلال" مناسبة لقولهم: ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [الأعراف: 60]؟

الجواب: إنما قال: (ضلالة) ولم يقل: (ضلال) لأن الضلالة أخص من الضلال، كما إذا قيل لك: عندك تمر، فتقول: ما عندي تمرة. فتعم بالنفي"[188].

(186) صحيح البخاري (5/ 2346) برقم 6021، صحيح مسلم (4/ 2076) برقم 2704.
(187) مجموع الفتاوى (16 / 424).
(188) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 397) وقاله السيوطي في الإتقان (210/2).

قوله تعالى عن قوم هود عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 66] الآية. إن قيل: لم قال هنا: (الذين كفروا) فوصف الملأ بالكفر، ولما كان الكلام عن قوم نوح عليه السلام، قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 60]؟

فالجواب: قيد هنا بالكفر، لأن في الملأ من قوم هود من آمن وهو مرثد بن سعيد، بخلاف قوم نوح، فإنهم لم يكن فيهم مؤمن، فأطلق لفظ الملأ(189).

قوله تعالى على لسان قوم صالح عليه السلام: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الآية: 76].

إن قيل: لم لم يقولوا: "إنا بالذي أرسل به كافرون"؟

فالجواب: إنما لم يقولوا: "إنا بما أرسل به" كما قال الآخرون، لئلا يكون اعترافا برسالته. لأن الذين آمنوا ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 75](190).

قال العلامة ابن عاشور في تفسيره: "ومراجعة الّذين استكبروا بقولهم: (إنّا بالّذي آمنتم به كافرون) تدلّ على تصلّبهم في كفرهم وثباتهم فيه، إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسميّة المؤكّدة. والموصول في قولهم: (بالّذي آمنتم به) هو ما أرسل به صالح عليه السلام"(191).

قوله تعالى على لسان قوم شعيب عليه السلام: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الآية: 88].

إن قيل: إن العود إلى الشيء يقتضي أنه قد كان فعل قبل ذلك، فيقتضي قولهم: (لتعودن في ملتنا)، أن شعيبا ومن كان معه كانوا أولا على ملة قومهم، ثم خرجوا منها، فطلب قومهم أن يعودوا اليها، وذلك محال، فإن الأنبياء معصومون من الكفر قبل النبوة وبعدها؟

---

(189) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 397 - 398).
(190) المصدر نفسه (1 /401).
(191) التحرير والتنوير (8 / 223).

قال العلامة ابن جزي ﵀: "الجواب من وجهين:

أحدهما: قاله ابن عطية، وهو أن "عاد" قد تكون بمعنى "صار" فلا يقتضي تقدم ذلك الحال الذي صار إليه.

والثاني قاله الزمخشري: وهو أن المراد بذلك الذين آمنوا بشعيب دون شعيب، وإنما أدخلوه في الخطاب معهم بذلك، كما أدخلوه في الخطاب معهم في قولهم: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ**﴾ [الأعراف: 88] فغلبوا في الخطاب بالعود الجماعة على الواحد، وبمثل ذلك يجاب عن قوله: ﴿**إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ**﴾ ﴿**وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا**﴾ [الأعراف: 89]"[192].

قال مقيده: وعندي أن فعل "عاد" يكون معناه: رجع، إذا لم يتعد بحرف جر، كقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا**﴾ [الإسراء: 8]، وقوله تعالى: ﴿**قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى**﴾ [طه: 21]، وقوله تعالى: ﴿**عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾ [المائدة: 95]، وقد يأتي معناها "صار" كقوله تعالى: ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾ [يس: 39]، أما إذا تعدى هذا الفعل بحرف جر، فإنه قد يحتفظ بالمعنى نفسه، أي: رجع. وقد يتضمن ما يقتضيه المقام، ومثال ذلك، قوله تعالى: ﴿**يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا**﴾ [النور: 17] وقوله تعالى: ﴿**لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**﴾ [الأنعام: 28]، فالعود هنا: الرجوع، وقد تعدى باللام، ومنه المثل: "عاد بخفي حنين"[193] وقد تعدى هنا بالباء.

---

(192) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 400).

(193) هذا مثل تضربه العرب، قال أبو عبيد: أصله أن حنينًا كان اسكافًا من أهل الحيرة، فساومه أعرابي بخفين فاختلفا حتى أغضبه فأراد غيظ الأعرابي، فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنين أحد خفيه وطرحه في الطريق، ثم ألقى الآخر في موضع آخر، فلما مر الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا الخلف بخف حنين. ولو كان معه الآخر لأخذته، ومضى، فلما انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول، وقد كمن له حنين، فلما مضى الأعرابي في طلب الأول، عمد حنين إلى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الخفان فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ فقال: جئتكم بخفي حنين. فذهبت مثلًا. يضرب عند اليأس من الحاجة والرجع بالخيبة. أي: رجع. (مجمع الأمثال) الميداني.

وأما مثال الثاني: فكقوله تعالى: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾ [طه: 55] الآية، فالعود هنا بمعنى: الدخول، أي: وفيها ندخلكم، أي الدفن في الأرض بعد الموت، وقد تعدى هنا بـ: (في). وهذا التركيب نفسه جاء في قوله تعالى: (أو لتعودن في ملتنا) أي: لتدخلن في ملتنا، وقوله: (وما يكون لنا أن نعود فيها) أي: ندخل فيها. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾ [إبراهيم: 13] فقابلوا: (لنخرجنّكم)، بـ: (لتعودنّ في ملّتنا) مما يدل على أن العودة هنا هي الدخول في مقابل الخروج، (أو الإدخال في مقابل الإخراج) ومن ثم تعدى الفعل بـ: في.

وقريب من هذا، قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي يدخلكم فيه تارة أخرى ﴿**فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا**﴾ [الإسراء: 69].

وهذا النوع كثير في القرآن، ويسميه أهل اللغة التضمين، وهو إعطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء وفي الأفعال وفي الحروف. فأما في الأسماء فهو أن تضمن اسما معنى اسم لإفادة معنى الاسمين جميعًا كقوله تعالى: (حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) ضمن حقيق معنى حريص، ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه. وأما الأفعال فأن تضمن فعلا معنى فعل آخر ويكون فيه معنى الفعلين جميعا وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف فيأتي متعديا بحرف آخر ليس من عادته التعدي به فيحتاج إما إلى تأويله، أو تأويل الفعل ليصح تعديه به[194]، كما في قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا**﴾ أي: فجحدوا بها، وكذبوا بها ﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا**﴾ [الإسراء: 59].

(194) البرهان (3 / 338).

وقوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: 77]، قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "تعدى نصرناه بـ –من– لأنه مطاوع انتصر، المتعدي بـ: من، أو تضمن معنى: نجيناه أو أجرناه"(195).

قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 109].

حكى هذا الكلام هنا عن الملإ، وفي "الشعراء" نسبه إلى فرعون، عند قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: 34].

قال مقيده: فإن قيل: كيف الجمع بين الآيتين؟

فالجواب –والله أعلم–: أن هذا القول: (إن هذا لساحر عليم) قاله كل من فرعون والملأ، أو قاله فرعون أولا، وردده الملأ ثانيا، تعزيزا له وموافقة له. كعادة جلساء الملوك في اتباعهم وتأييدهم لكل ما يصدر منهم.

وصورة هذا، كأن الملأ حين سمعوا فرعون قال: (إن هذا لساحر عليم) تبعوه في مقالته متبجحين بها قائلين: نعم (إن هذا لساحر عليم) فكان كل من فرعون وملإه قد نطقوا بهذا الكلام، فلذلك أضاف سبحانه هذا القول تارة إلى فرعون، كما في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: 34] وتارة إلى الملإ كما في هذه السورة –الأعراف–: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 109]، وهكذا يتم المشهد، ويكتمل من جميع جهاته، فتعم الفائدة، ويحصل المقصود من الحكمة في تكرار القصة.

وقال الزمخشري في الكشاف: "فإن قلت: قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ، وعزي ههنا إليهم؟

(195) التسهيل (2 / 198).

قلت: قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم. أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة ثم تبلغه الخاصة العامة. والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: ﴿**أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (111) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾ [الأعراف: 111، 112]"[196].

قال العلامة ابن عاشور: "وإنّما قالوا هذا الكلام على وجه الشّورى مع فرعون واستنباط الاعتذار لأنفسهم عن قيام حجّة موسى في وجوههم فاعتلّوا لأنفسهم بعضهم لبعضٍ بأنّ موسى إنّما هو: ساحر عليم بالسّحر أظهر لهم ما لا عهد لهم بمثله من أعمال السّحرة، وهذا القول قد أعرب عن رأي جميع أهل مجلس فرعون، ففرعون كان مشاركًا لهم في هذا لأنّ القرآن حكى عن فرعون في غير هذه السّورة أنّه: ﴿**قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**﴾ [الشعراء: 34]، وهذه المعذرة قد انتحلوها وتواطأوا عليها تبعوا فيها ملكهم أو تبعهم فيها، فكلّ واحدٍ من أهل ذلك المجلس قد وطّن نفسه على هذا الاعتذار ولذلك فالخطاب في قوله: ﴿**يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾ [الأعراف: 110] خطاب بعضهم لبعضٍ وهو حاصل من طوائف ذلك الملأ لطوائف يردّدونه بينهم ويقوله بعضهم لبعضٍ."[197].

قال مقيده: وهذا كثير في قصص القرآن، حيث تجزأ مشاهد القصة في عدة سور، وتأتي كل لقطة في الموضع المناسب لها، فإذا ما ضمت تلك المقاطع واللقطات، تكونت لدينا القصة بكاملها، حاضرة، شاخصة، متحركة في خيالنا.

قال الإمام الزركشي في البرهان: "فصل: في الأسباب الموهمة للاختلاف: "وللاختلاف أسباب، الأول: وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات حديث شتى كقوله تعالى في خلق آدم: إنه من تراب، ومرة من حمأ مسنون، ومرة من طين لازب، ومرة من صلصال كالفخار، وهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة، لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر، وهو التراب. ومن

---

(196) الكشاف 2/ 139.

(197) التحرير والتنوير (9 / 42).

التراب تدرجت هذه الأحوال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 107] وفي موضع ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: 10] والجان الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها، وذلك لأن خلقها خلق الثعبان العظيم، واهتزازها وحركاتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.... إلخ"(198).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الآية: 115].

إن قيل: لم لم يقولوا: "إما أن تلقي وإما أن نلقي"؟

فالجواب: عبروا عن إلقاء موسى بالفعل وعن إلقاء أنفسهم بالجملة الاسمية، إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه. قاله صاحب التسهيل(199).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الآية: 86].

قال مقيده: إن قيل: لم لم يقل بأي شيء يوعدون، وأخلى الفعل "توعدون" من معموله؟

فالجواب: قال ابن الجوزي رحمه الله: إنما لم يقل: توعدون بكذا وكذا، لأن العرب إذا أخلت الفعل "أوعد" من المفعول، لا يدل إلا على الشر، يقولون: "أوعدت فلانا"، وكذلك إذا أفردوا: "وعدت" من مفعول، فإنه لا يدل إلا على الخير. قال الفرّاء: يقولون: وعدته خيرا، ووعدته شرا. فإذا أسقطوا الخير والشر، قالوا: وعدته -في الخير- وأوعدته -في الشر-"(200).

قال مقيده: قال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أوما سمعت قول الشاعر -هو عامر بن الطفيل-:

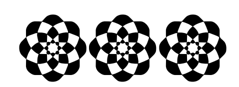
---

(198) (2 / 54 - 55).

(199) التسهيل (1 / 403).

(200) التبصرة 205/1.

لا يرهب ابن العم مني سطوتي ولا أختتي من سطوة المتهدّد
فإنّي وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي[201]



(201) الزمخشري ربيع الأبرار (1 / 104).

سورة الأنفال

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الآيات: 7، 8].

إن قيل: قوله: (ليحق الحق) تكرار لقوله قبله (أن يحق الحق بكلماته) فلم هذا التكرار؟

فالجواب: ليحق الحق متعلق بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك. وليس تكرارا للأول، لأن الأول مفعول يريد، وهذا تعليل لفعل الله تعالى. ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة، وبالحق الثاني الإسلام. فيكون المعنى: أن نصرهم ليظهر الإسلام. ويؤيد هذا قوله: ويبطل الباطل أي يبطل الكفر. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله[202].

قال مقيده: وبعبارة أخرى، ليس في الآية تكرار، لأن إحقاق الحق -أو تحقيق الحق- الأول إنما أراد به النصر، بدليل أن الآية ختمت بـ (ويقطع دابر الكافرين)، وأما إحقاق الحق الثاني، فأراد به الظهور مع محاربة الكفار له، ومع كرههم له، بدليل أن الآية ختمت بـ (ولو كره المجرمون) فكل حق أنيط بما يناسبه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ [الآية: 11].

إن قيل: كل نوم ونعاس فإنه لا يحصل إلا من قبل الله تعالى فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله تعالى لابد فيه من مزيد فائدة، فما هي؟

الجواب من وجوه:

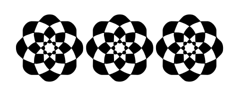
(202) التسهيل 1/ 441.

قال الإمام الرازي رحمه الله: "أحدها: أن الخائف إذا خاف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن.

وثانيها: أنهم خافوا من جهات كثيرة، أحدها: قلة المسلمين وكثرة الكفار، وثانيها: الأهبة والآلة والعدة للكافرين وقلتها للمؤمنين، وثالثها: العطش الشديد فلولا حصول هذا النعاس وحصول الاستراحة حتى تمكنوا في اليوم الثاني من القتال لما تم الظفر.

والوجه الثالث -في بيان كون ذلك النعاس نعمة في حقهم-: أنهم ما ناموا نومًا غرقًا يتمكن العدو من معاقصتهم، بل كان ذلك نعاسًا يحصل لهم زوال الأعياء والكلال مع أنهم كانوا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله ولقدروا على دفعه.

والوجه الرابع: أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم في الخوف الشديد أمر خارق للعادة، فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز". انتهى[203].



(203) مفاتيح الغيب (15 / 107).

سورة التوبة

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [الآية: 35].

إن قيل: لم قدم الجباه على الجنوب، والجنوب على الظهور؟

قال الإمام الزركشي رحمه الله: "قدم الجباه ثم الجنوب لأن مانع الصدقة في الدنيا كان يصرف وجهه أولا عن السائل ثم ينوء بجانبه ثم يتولى بظهره"[204].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [الآيات: 73، 74].

إن قيل: كيف حسنت الواو هنا: (وبئس المصير)، والفاء أشبه بهذا الموضع؟

قال الإمام أبو البقاء العكبري رحمه الله: فيه ثلاثة أجوبة، أحدها: أنها واو الحال، والتقدير افعل ذلك في حال استحقاقهم جهنم، وتلك الحال حال كفرهم ونفاقهم.

والثاني: أن الواو جيء بها تنبيها على إرادة فعل محذوف تقديره: واعلم أن مأواهم جهنم.

والثالث: أن الكلام محمول على المعنى، والمعنى: أنه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذاب الآخرة بجعل جهنم مأوى لهم[205].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية: 60].

---

(204) البرهان في علوم القرآن (3 / 268).

(205) إملاء ما من به الرحمن (2 / 18).

إن قيل: لم ذكر مصرف الزكاة في سياق ذكر المنافقين؟

فالجواب: أنه حصر مصرف الزكاة في تلك الأصناف، ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بقوله: (ومنهم من يلمزك في الصدقات) الآية. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله[206].

قلت: أو لأن المنافقين قد اشتهروا بالبخل، كما قال فيهم من يعلم سرائرهم جل وعلا: ﴿**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [التوبة: 67] فقوله تعالى: (ويقبضون أيديهم) كناية عن الشح، وهو وصف ذمّ لدلالته على القسوة، لأنّ المراد الشحّ على الفقراء. بخلاف المؤمنين فإن الله تعالى قال في وصفهم: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: 71]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة: 100].

إن قيل: كيف قال هنا: (تجري تحتها الأنهار) وقال في غيرها: (تجري من تحتها الأنهار) بإثبات "من"؟[207].

الجواب: قد ثبتت (من) في مصحف مكة، وهي قراءة ابن كثير المكي. وقرأ الباقون بحذف لفظ " من ". وهي قراءة الجمهور.

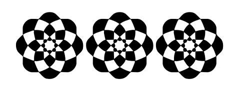
---

(206) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 461).

(207) ورد هذا اللفظ في أربع وثلاثين موضع، وورد بلفظ: (تجري من تحتهم الأنهار) في ثلاث مواضع.

قال الإمام فخر الدين الرازي ﵀: "ذكرنا مرارًا أن (من) في قوله: (من تحتها الأنهار) يحتمل أن يكون صلة، معناه: تجري تحتها الأنهار. ويحتمل أن يكون المراد أن ماءها منها لا يجري إليها من موضع آخر، فيقال: هذا النهر منبعه من أين؟ يقال من عين كذا من تحت جبل كذا"[208].

وأما الإمام متولي الشعراوي ﵀ فقال: " (تجري تحتها الأنهار).. أي أن نبع الماء من مكان بعيد، وهو يمر من تحتها.. أما قوله تعالى: (تجري من تحتها الأنهار) فكأن الأنهار تنبع تحتها.. حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذي يأتي من بعيد يقطع عنه أو يجف.. وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد.."[209].



(208) مفاتيح الغيب (28/ 45).

(209) تفسير الشعراوي (ص: 29).

سورة يونس

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [الآية: 15].

إن قيل: كيف طلب الكفار الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله، علما أن الطلب الأول هو الثاني نفسه؟

الجواب: أن معنى الأول: ائت بقرآن غيره مع بقائه، أو بدله بأن تزيل ذاته بالكلية، فيتغاير المطلوبان. قاله الإمام النحوي أبو العباس ابن السمين رحمه الله[210].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الآية: 34].

فإن قيل: كيف يحتج عليهم بإعادة الخلق وهم لا يعترفون بها؟

فالجواب: أنهم معترفون أن شركاءهم لا يقدرون على الابتداء ولا على الإعادة، وفي ذلك إبطال لربوبيتهم. وأيضا فوضعت الإعادة موضع المتفق عليه لظهور برهانها. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله[211].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [الآية: 61].

إن قيل: ما الفرق بين الشأن والعمل؟

---

(210) الدر المصون في علم الكتاب المكنون 8/140. قال الأسنوي في الطبقات كان –ابن السمين– فقيهًا بارعًا في النحو والقرءات ويتكلم في الأصول خيّرًا أديبًا مات في جمادى الآخرة وقيل في شعبان سنة 756. [ينظر الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلاني (1 / 114)].

(211) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (1 / 483).

قال صاحب التسهيل: "(وما تكون في شأن) الشأن الأمر، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وجميع الخلق، ولذلك قال في آخرها: (وما تعملون من عمل) بمخاطبة الجماعة ومعنى الآية: إحاطة علم الله بكل شيء"[212].

قال مقيده: الراجح عندي -والله أعلم- أن الله تعالى وصف ما يكون فيه النبي ﷺ بأنه شأن، لأن أعماله ﷺ كانت كلها ذات شأن وقيمة، فهو في عبادة مستمرة -قولا وفعلا وتقريرا- كان قرآنا يمشي، بل تنام عيناه ولا ينام قلبه -كما أخبر هو عن نفسه عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم-. وأما سائر الخلق فهم بين غفلة ويقظة، ولهو وجد، وطاعة ومعصية، ونشاط وفتور،...إلخ، ومن ثم قال تعالى عنهم: (ولا تعملون من عملٍ)، ولم يقل: "ولا تكونون في شأن"، وهذا لا يعني أن النبي ﷺ غير داخل في قوله: (وما تعملون من عمل)، بل هو ضمن الذين يعملون، وإنما أعماله ليست كأعمال البشر، ولذلك قال الإمام اللغوي ابن الأنباري رحمه الله[213]: "إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي ﷺ وحده، وإنما جمع تفخيما له وتعظيما، كما في قوله تعالى: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ**﴾ [البقرة: 75]". والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ [الآية: 61].

قال الإمام الزمخشري: "فإن قلت: لم قدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله: في سورة سبأ ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**﴾ [سبأ: 3]؟

---

(212) المصدر نفسه485/1.

(213) ينظر البرهان (2 / 241).

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لاءَم ذلك أن قدَّم الأرض على السماء، على أنَّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية"[214].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: 87].

فإن قيل: "لم خص موسى وهارون بالخطاب في قوله: (أن تبوءا) ثم خاطب معهما بني إسرائيل في قوله: (واجعلوا)؟

فالجواب: أن قوله: (تبوءا) من الأمور التي يختص بها الأنبياء وأولوا الأمر". قاله ابن جزى[215].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الآية: 98].

قال ابن الجوزي في زاد المسير: "فإن قيل: كيف كشف العذاب عن قوم يونس بعد إتيانه إليهم، ولم يكشف عن فرعون حين آمن؟

فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن ذلك كان خاصًا لهم كما ذكرنا في أول الآية.

والثاني: أن فرعون باشره العذاب، وهؤلاء دنا منهم ولم يباشرهم، فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية، فأما الذي يعاين، فلا توبة، له ذكره الزجاج.

---

(214) الكشاف (355/2).
(215) التسهيل (1 / 489).

والثالث: أن الله تعالى علم منهم صدق النيات، بخلاف من تقدّمهم من الهالكين، ذكره ابن الأنباري"[216].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ [الآية: 35].

قال مقيده: إن قيل لم قال: (قل الله يهدي للحقّ) ولم يقل (يهدي إلى الحقّ) وقد كان الإنكار عليهم بقوله: (هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ) وأيضا كيف قال بعدها (أفمن يهدي إلى الحقّ) الآية، ولم يقل: للحق؟

فأقول –وبالله التوفيق–: إن الهداية تتعدى بنفسها تارة كما في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 5]، وتتعدى باللام، كما في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، وقوله عن أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: 43] وتتعدى بـ: إلى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

قال ابن القيم ﷺ: "فمتى عدي –أي الهدى والهداية– بإلى تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص، ومتى عدي بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، أن يعرفه إياه ويبينه له ويلزمه إياه"[217]. ا.هـ.

إذا فهمت هذا، تبين لك أن الآية هنا نفت عن المشركين الهداية إلى الحق، بمعنى إيصاله وتبليغه بقوله: (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ) فهذا استفهام إنكاري وتوبيخي، وبينت أن الله تعالى وحده الذي يخص من يشاء لهدايته للحق بقوله: (قل الله يهدي للحق) ولمح بقوله: (أفمن يهدي إلى الحق) إلى النبي ﷺ، ولذلك تعدى الفعل "يهدي" بـ"إلى"، كما في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(216) زاد المسير (3 / 311).
(217) بدائع الفوائد 1/20-21.

فعلى هذا تكون الهداية بمعنى تبليغ دين الله، وإرشاد الناس إليه، أما الهداية التي بمعنى التوفيق والاستقامة فهي التي تأتي في القرآن متعدية بنفسها، ولذلك نفاها سبحانه عن نبيه، فقال: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [القصص: 56] وقال: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [البقرة: 272] الآية.

ولكن يعكر هذا التقسيم ورود آيات الهداية متعدية بنفسها وغير مضافة لله تعالى، كما حكى سبحانه قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿**يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ [مريم: 43] الآية، فلم يقل: "اهدك إلى" ولا عبرة هنا لمن قد يزعم أن الهداية هنا لم تتعد بـ: إلى أو باللام لتعادل رؤوس الآي وتناسبها، لأننا إن سلمنا بذلك فكيف بقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر: 38] فإن الهداية هنا أيضا لم تتعد بـ: إلى أو باللام، ولو تعدت بهما لبقي رأس الآية كما هو، وبناء على قول ابن القيم -رحمه الله- فالهداية هنا جامعة لما تتضمنه إذا تعدت بإلى وباللام مع التعريف والبيان والتزامها. وهذا لا يكون إلا لله تعالى، فكيف الجمع بين قول ابن القيم وبين هاتين الآيتين؟

فالجواب: أن التفصيل الذي أشار إليه ابن القيم هو في حالة ما أضيف الهدى إلى الله تعالى ولم يتعد بـ: إلى أو باللام، فذلك الهدى الجامع لمعاني الهداية كلها، أما إذا تعدت بنفسها وأضيفت لغيره سبحانه كما في قوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام، وعن مؤمن آل فرعون، فتلك هداية بيان وتبليغ ودعوة وإرشاد، دون هداية التوفيق والسداد والالتزام، فإن هذه بيد الله تعالى كما هو واضح في قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [البقرة: 272]، فتبين بهذا أن ما ذكره ابن القيم رحمه الله مطلق يدخله التقييد، أو عام يدخله الاستثناء، وهو الذي أشرت إليه، والله سبحانه أعلم بالصواب. وسأذكر فيما بعد فصلا في معنى الهداية.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الآية: 107].

إن قيل: لم عبر هنا عن الضر بالمس، وعبر عن الخير بالإرادة، في حين عبر عن الخير في سورة الأنعام بالمس فقال: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأنعام: 17]؟

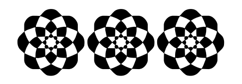
فالجواب: قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "وقد عبر بالمس في موضع الإرادة في نظيرها في سورة الأنعام: (وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير). ولكن عبر هنا بالإرادة مبالغة في سلب المقدرة عمن يريد معارضة مراده تعالى كائنا من كان، بحيث لا يستطيع التعرض لله في خيره ولو كان بمجرد إرادته قبل حصول فعله، فإن التعرض حينئذ أهون لأن الدفع أسهل من الرفع، وأما آية سورة الأنعام فسياقها في بيان قدرة الله تعالى لا في تنزيهه عن المعارض والمعاند"[218].

وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: "إن قلت: لم ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الثاني؟ قلت: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعًا: الإرادة والإصابة في كل واحد من الضرّ والخير، وأنه لا رادّ لما يريده منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر، ليدلّ بما ذكر على ما ترك، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿**يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [يونس: 107] والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة"[219].

وأما الإمام أبو جعفر الغرناطي رحمه الله فقال: "الجواب –والله أعلم–: أن قوله تعالى هنا: (وإن يردك بخير) ولم يقل: (وإن يمسسك بخير) كما في آية الأنعام، أنه تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس: 96] الآية. فهو إعلام منه سبحانه بجري الخلائق على ما قدر لهم أزلا وسبق به حكمه تعالى، ثم أعقب بقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا**﴾ [يونس: 99] فهذا تأكيد للغرض المذكور من جري العباد على ما قدر لهم وما شاءه سبحانه فيهم وإن ذلك لا يرده راد ولا يعارضه معارض، فناسب هذا قوله تعالى: (وإن يردك بخير فلا راد لفضله) أتم

(218) التحرير والتنوير (11 / 306).
(219) تفسير الكشاف (2 / 375).

مناسبة، ثم وقع بعد هذا قوله تعالى: (يصيب به من يشاء من عباده) وإصابته سبحانه من يشاء بالخير هو المراد بقوله في آية الأنعام: (وإن يمسسك بخير) فاجتمع في آية يونس الأمران معا، وكأن قد قيل: "وإن يمسسك بخير ويردك به فلا راد لما أصابك به وأراده لك ". ففي هذه الآية من إمعان المقصود وتأكيده ما ليس في آية الأنعام، ليطابق هذا التأكيد والإمعان ما تقدم من قوله تعالى: (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) وقوله: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا) ولم يتقدم في آية الأنعام مثل هذا، فوقع الاكتفاء هناك بقوله: (وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير) فجاء كل على من هذا على أتم مناسبة وأوضح ملاءمة، والله أعلم"[220].



(220) ملاك التأويل (1 / 208).

فصل في معنى الهداية

قال الأصفهاني في غريب القرآن: "إن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23] - و﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: 4]؟

قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] وقول الشاعر:

وخيلٍ قد دلفت لها بخيلٍ   تحيّة بينهم ضرب وجيع

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه، الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]، الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الانبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: 24]، الثالث: التوفيق الذى يختص به من اهتدى وهو المعني بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17] وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: 11] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: 9] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69] - ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: 76] - ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 213] - ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]، الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعني بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 5] - ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ إلى قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: 43] وهذه الهدايات الأربع مترتبة. فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله.

ثم ينعكس فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدا إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايات، وإلى الأول أشار بقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى: 52]، ﴿**يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾ [الأنبياء: 73]، ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ [الرعد: 7] أي داع، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ**﴾ [القصص: 56] وكل هداية ذكر الله ﷻ أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة وهى التوفيق الذى يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الاخرة وإدخال الجنة نحو قوله ﷻ: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا**﴾ إلى قوله ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: 258] وكقوله ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [النحل: 107] وكل هداية نفاها الله عن النبي ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل والتوفيق وإدخال الجنة، كقوله عز ذكره: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [البقرة: 272] ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى**﴾ [الأنعام: 35] ﴿**وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ**﴾ [الروم: 53] ﴿**إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ**﴾ [النحل: 37] ﴿**وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ**﴾ [الزمر: 36، 37] ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [البقرة: 272]. وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: ﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: 99] وقوله: ﴿**مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ**﴾ [الكهف: 17] أي طالب الهدى ومتحريه هو الذى يوفقه ويهديه إلى طريق الجنة لا من ضاده فيتحرى طريق الضلال والكفر كقوله: ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: 264][التوبة: 37]، وفي أخرى ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: 258] وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ [الزمر: 3] الكاذب الكافر هو الذى لا يقبل هدايته، فإن ذلك راجع إلى هذا وإن لم يكن لفظه موضوعا لذلك، ومن لم يقبل هدايته لم يهده، كقولك من لم يقبل هديتي لم أهد له، ومن لم يقبل عطيتي لم أعطه، ومن رغب عني لم أرغب فيه، وعلى هذا النحو ﴿**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: 258] وفي أخرى ﴿**الْفَاسِقِينَ** ﴾ [المائدة: 108] ". انتهى كلامه[221].

(221) غريب القرآن (1 /538).

سورة هود

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الآية: 6].

فإن قيل: كيف قال: (على الله) بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل، لأن الله لا يجب عليه شيء؟

فالجواب: أنه ذكره كذلك تأكيدا في الضمان لأنه لما وعد به صار واقعا لا محالة، لأنه لا يخلف الميعاد. قاله ابن جزي[222].

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الآية: 12].

قلت: إن قيل لم قال: ضائق ولم يقل ضيق؟ فالجواب: إنما قال ضائق ولم يقل ضيق ليدل على اتساع صدره – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وقلة ضيقه. قاله ابن جزي[223].

قال الإمام الزمخشري: "فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت، لأنّ رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرًا. ومثله قولك: زيد سيد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد ونحوه: (كانوا قومًا عامين) في بعض القراءات، وقول السمهري العكلي:

بمنزلةٍ أمّا اللّئيم فسامن بها   وكرام النّاس بادٍ شحوبها[224]

(222) التسهيل لعلوم التنزيل (1 / 492).

(223) المصدر نفسه (1 / 493).

(224) الكشاف (2 / 382) ومعنى الشحوب: تغير اللون. وأنشده أبو زيد شاهدا على أن الشحوب في لغة بني كلاب الهزال، وهو أنسب بالمقابلة لقوله: بمنزلة مجدبة صفتها أنها. أما اللئيم الذي همه بطنه، فهو سامن فيها لكثرة أكله. وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل، لأنهم يطعمون ولا يطعمون. و«فاعل» من سمن شاذ، وقياسه «فعيل».

قال مقيده: وهذا لا يمنع من كونه ﷺ كان يضيق صدره مما يسمعه من الكفار، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: 97].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الآية: 46].

فإن قيل: لم سمى نداءه سؤالا ولا سؤال فيه؟

فالجواب: لأنه تضمن السؤال وإن لم يصرح به.

لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة الغرق فقد استنجز، وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلًا وغباوة، ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين. قاله أبو حيان[225].

وقال الإمام البيضاوي رحمه الله: "وإنما سمى نداءه سؤالًا لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجازه في شأن ولده، أو استفسار المانع للإنجاز في حقه، وإنما سماه جهلًا وزجر عنه بقوله: (إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين) لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتبه عليه الأمر"[226].

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الآية: 57].

فإن قيل: كيف وقع الإبلاغ جوابا للشرط وقد كان الإبلاغ قبل التولي؟ فالجواب: أن المعنى إن تتولوا فلا عتب علي، لأني قد أبلغتكم رسالة ربي. قاله العلامة ابن جزي[227].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الآية: 94].

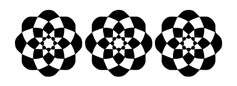
(225) تفسير البحر المحيط (6 / 411) والتسهيل (1 / 500).
(226) تفسير البيضاوي (3 / 94).
(227) المصدر نفسه2 / 2.

إن قيل: لم قال هنا وفي قصة هود (ولما) بالواو، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: 58]وأما في قصة صالح ولوط فقال: (فلما) بالفاء، ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: 66]وقال عن قوم لوط: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود: 82]؟

قال الإمام الزمخشري: "قد وقعت الوسطيان -أي مؤخرة قصتي صالح ولوط عليهما السلام- بعد ذكر الوعد، وذلك قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: 81]، ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: 65] فجيء بالفاء الذي هو للتسبيب، كما تقول: وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت. وأما الأخريان -يقصد قصة شعيب وهود عليهما السلام- فلم تقعا بتلك المثابة. وإنما وقعتا مبتدأتين، فكان حقهما أن تعطفا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة"[228].

قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [الآية: 95].

فإن قيل: كيف دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلكوا؟ قال العلامة ابن جزي رحمه الله: لأن المراد أنهم أهل لذلك[229].



(228) تفسير الكشاف (2 / 425).

(229) التسهيل لعلوم التنزيل 2/2.

سورة يوسف

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [الآية: 4].

إن قيل: ما الحكمة في تكرير الفعل رأى -رأيت، رأيتهم-؟ فالجواب: كرر الفعل لطول الكلام. قاله العلامة ابن جزي(230).

قال مقيده: وقد يكون تكرار الفعل للفصل بين الرؤية الأولى والرؤية الثانية، إذ أن الرؤية الأولى مشاهدة الكواكب والشمس والقمر، أما الرؤية الثانية فكونها خرت ساجدة بين يديه، وهذا يؤكد يقينه عَلَيْهِ السَّلَامُ مما رآه، فكرر الفعل وحصر سجودهم له بتقديم المضاف، فقال: (رأيتهم لي ساجدين) والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [الآية: 24].

إن قيل: أين جواب لولا؟

فالجواب: قال العلامة ابن جزي: "إنه محذوف تقديره: "لولا أن رأى برهان ربه لخالطها". وإنما حذف لأن قوله: (هم بها) يدل عليه. وقد قيل: إن (هم بها) هو الجواب، وهذا ضعيف. لأن جواب لولا لا يتقدم عليها"(231).

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [الآية: 25].

إن قيل كيف قال هنا: الباب -بالإفراد- وقد قال بالجمع: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: 23]؟
فالجواب: أن المراد هنا الباب البرّاني الذي هو المخرج من الدار. قاله ابن جزي(232).

(230) المصدر نفسه (2 / 11).
(231) المصدر نفسه (2 / 15).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [الآية: 44].

إن قيل: لم قال: (أضغاث أحلام) بالجمع، وإنما كانت الرؤيا واحدة؟ فالجواب: أن هذا كقولك: فلان يركب الخيل. وإن ركب فرسا واحدا(233).

قال مقيده: وقد يكون ذكر الجمع، لأن الملك رأى الرؤيا مرارا، وليس مرة واحدة، والدليل على ذلك قوله: (إني أرى) فهذه صيغة التكرار، ولو كانت مرة واحدة لقال: "إني رأيت" كما كانت رؤيا يوسف عليه السلام مرة واحدة، فقال: (إني رأيت) والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [الآية: 76].

إن قيل: كيف أنث الصواع في هذا الموضع وهو مذكر، في حين ذكره في قوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: 75]؟

الجواب: إنما أنث الصواع في هذا الموضع لأنه سقاية أو لأن الصواع يذكر ويؤنث(234).

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [الآية: 21].

إن قيل: ما الفرق بين (مصرَ) في هذه الآية، وبين (مصرًا) في آية: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61]؟

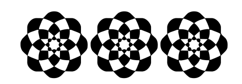
=

(232) المصدر نفسه (2 / 16) قوله: الباب البراني: هذه لغة فصيحة، يقال للباب الخارج: براني. ينظر الفائق في غريب الحديث والأثر (1/ 79) للإمام الزمخشري رحمه الله.

(233) المصدر نفسه (2 / 20).

(234) المصدر نفسه (2 / 27).

الجواب: إنما نوّن (مصرًا) في سورة البقرة لأنه أراد أرضًا أو بلدًا، ولأنه منكّر. وأما في هذه سورة يوسف: (اشتراه من مصر) فالمقصود بمصر البلد المعروف، ولذلك منع من الصرف للعلمية والتأنيث. والله أعلم.

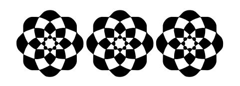


سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الآية: 39].

قال الإمام الزركشي في البرهان: "قلت: إن قيل لم رسمت الواو في ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ وحذفت في ﴿فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: 24]؟[235]

قلت –القائل الزركشي-: لإن الإثبات الأصل، وإنما حذفت في الثانية لأن قبله مجزوم وإن لم يكن معطوفا عليه، لأنه قد عطف عليه (ويحق) وليس مقيدا بشرط، ولكن قد يجئ بصورة العطف على المجزوم وهذا أقرب من عطف الجوار في النحو، والله أعلم"[236].



(235) البرهان (1 / 398).

(236) المصدر نفسه 1/ 398.

سورة إبراهيم

قوله تعالى على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الآية: 6].

إن قيل: لم قال هنا "ويذبحون"، بالواو، وحُذفت في سورة البقرة والأعراف؟ الجواب: قال أبو جعفر الغرناطي: "وجه ذلك والله أعلم: أن هذه السورة مبنية على الإجمال والإيجاز فيما تضمنته من قصص الرسل وغير ذلك، ولم يقصد فيها بسط قصة كما ورد في غيرها مما بني على الاستيفاء، وكلا المرتكبين مقصود معتمد عند العرب: يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء.

وعلى هذا جرى خطابهم في الكتاب العزيز، وتأمل المقصدين: فقد ورد في سورة الأعراف وسورة هود قصص نوح وهود وصالح ولوط وموسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فتأمل ما بين ورود هذه القصص الخمس في هاتين السورتين، وورودها خمستها في سورة القمر. وكيف مدت أطناب الكلام في السورتين الأوليين ثم أوجزت في سورة القمر أبلغ ايجاز وأوفاه بالمقصود، فلما كان مبنى سورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على الإيجاز فيما تضمنت من هذه القصص افتتاحا واختتاما لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]وما بعد هذه من الآي، وأنه انضم في هذه السورة إلى قصد الإيجاز تغليظ الوعيد فلبنائها على هذين الغرضين ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: 6] فأشار قوله سبحانه: (يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) إلى جملة ما امتحنوا به من فرعون وآله من استخدامهم وأذلالهم بالأعمال الشاقة، وامتهانهم واستحياء نسائهم لذلك وذبح الذكور.

فلما وقعت الإشارة إلى هذه الجملة مما كانوا يمتحنونهم به جرد منها وعين بالذكر أشدها وأعظمها امتحانًا، فجيء به معطوفا، كما أنه مغاير لما تقدمه فقيل: (وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) فعين من الجملة هذا وخص بالذكر تعريفا بمكانة وشدة الأمر فيه، وهو مما أجمل أولا وشمله الكلام المتقدم.

كما ورد في قوله تعالى: ﴿كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ ثم قال: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: 98] فخصَّهما بالذكر والتعيين إعلامًا بمكانهما في الملائكة بعد أن شملهم قوله تعالى: (وملائكته) فالوارد في سورة إبراهيم من هذه القبيل، وقد تبين وجهه واتضحت مناسبته، والله أعلم بما أراد(237).

قال الإمام السيوطي: "قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: 49] الآية، وفي إبراهيم: (ويذبِّحون) بالواو، لأن الأولى من كلامه تعالى لهم، يعدد عليهم المحن تكرمًا في الخطاب، والثانية من كلام موسى فعددها"(238).

قال العلامة ابن عاشور: "فكان مضمون جملة (ويذبّحون) هنا، مقصودًا بالعدّ كأنّه صنف آخر غير سوء العذاب اهتمامًا بشأنه، فعطفه من عطف الخاصّ على العامّ. وعلى كلا النّظمين قد حصل الاهتمام بهذا العذاب المخصوص بالذّكر، فالقرآن حكى مراد كلام موسى- من ذكر العذاب الأعمّ وذكر الأخصّ للاهتمام به، وهو حاصل على كلا النّظمين. وإنّما حكاه القرآن في كلّ موضع بطريقةٍ تفنّنًا في إعادة القصّة بحصول اختلافٍ في صورة النّظم مع الحفاظ على المعنى المحكيّ، وهو ذكر سوء العذاب مجملًا، وذكر أفظع أنواعه مبيّنًا"(239).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [الآيات: 24، 25].

قال مقيده: إن قيل المعهود في الشجر أنه يؤتي أكله كل ستة أشهر، أو سبعة، لا كل حين، فكيف شبه الكلمة الطيبة بها؟

الجواب: قال الشيخ حامد بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: كشجرة طيبة مشبه به، والكلمة الطيبة مشبه والكاف حرف التشبيه، ووجه الشبه ما بينهما ما ذكر الله. أصلها ثابت وفرعها في السماء، أما كشجرة فبين، وأما

(237) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد (1 / 42 - 43).
(238) الإتقان (2 / 306) وينظر معه البرهان للزركشي (1 / 116).
(239) التحرير والتنوير (13 / 192).

لا إله إلا الله فأصلها ثابت في القلوب السليمة، وفرعها وهو الأعمال الصالحة من الإيمان والبر متفرعة على الجوارح والأعمال تصعد إلى السماء، قال تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾. [فاطر: 10]. وقوله: ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا**﴾ كل حين لا كالشجرة المعهودة التي تؤتي أكلها ستة أشهر أو سبعة بل تثمر لا إلا الله بالأثمار الحسنة الطيبة كل حين فصار وجه الشبه ثبوت أصلها وتفرعها إلى السماء، وأما إتيان أكلها كل حين فزيادة على المشبه به، وذا كثير في اللغة كما تقول للرجل العالم الكاتب الشجاع إنه كالأسد أي في الشجاعة فقط، وأما العلم والكتابة فزيادة على المشبه به. قوله: ﴿**بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ وذلك لا ريب فيه الشجرة وغيرها مطلقًا بإذن الله تثمر وتنفع وتعطي وتمنع لا إله إلا هو". (ا.هـ)(240).

قال مقيده: "ومما يؤيد هذا الجواب، أن تشبيه كلمة التوحيد بالشجرة –أصلها وفرعها– تمت به الآية ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ** (24)﴾، ثم جاءت الآية بعدها: ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** (25)﴾".والله أعلم.

فإن قيل: وهلا قال: "كشجرة طيبة فرعها في السماء وأصلها ثابت"؟ فالجواب عندي: لينبه إلى أن الأصل مقدم على الفرع، وكذلك كلمة التوحيد، فهي الأصل والأساس، مقدمة على باقي الأركان الدينية، فبوجود وثبوت الأصل تأتي الفروع وتثبت عليه، فإذا عدم الأصل عدم الفرع تبعا، لأن الركن: هو ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم مع دخوله في ماهية الشيء. ولذلك كان أول ما أوصى به النبي ﷺ معاذا رضي الله عنه: «**إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله – وفي رواية– إلى أن يوحِّدوا الله..**» الحديث(241).

(240) فتح الله الحميد المجيد في شرح كتاب التوحيد (ص: 119). قال العلامة بكر أبو زيد رحمه الله: "والمؤلف –رحمه الله تعالى– لا نعرف عنه شيئا أكثر مما ذكر، وبعد البحث علمت أنه من الشارقة في: الإمارات العربية المتحدة ". (ينظر مقدمة تحقيق كتاب فتح الحميد المجيد صفحة 6 الطبعة الأولى دار المؤيد.

(241) **متفق عليه**: صحيح البخاري (2/ 544) برقم 1425، صحيح مسلم (1/ 50) برقم 19.

قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [الآيات: 11، 12].

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "إن قيل: ما الحكمة في تكرير الأمر؟

فالجواب عندي: أن قوله: (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) راجع إلى ما تقدم من طلب الكفار (فأتونا بسلطان مبين) أي حجة ظاهرة، فتوكل الرسل في ورودها على الله، وأما قوله: (فليتوكل المتوكلون) فهو راجع إلى قولهم: (ولنصبرن على ما آذيتمونا) أي نتوكل على الله في دفع أذاكم. وقال الزمخشري إن هذا الثاني في معنى الثبوت على التوكل"(242).

قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ**﴾ [الآية: 10]، وقال بعدها: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ [الآية: 11].

قلت: إن سأل سائل: لم قال في الأولى: (قالت رسلهم) وفي الثانية (قالت لهم رسلهم)؟

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله بعد ذكر جواب الشيخ ابن عرفة رحمه الله: "والحاصل أن زيادة (لهم) تؤذن بالدلالة على توجه الرسل إلى قومهم بالجواب، لما في الجواب عن كلامهم من الدقة المحتاجة إلى الاهتمام بالجواب بالإقبال عليهم، إذ اللام الداخلة بعد فعل القول في نحو: أقول لك، لام تعليل، أي أقول قولي لأجلك"(243).

---

(242) التسهيل (2 / 51).

(243) التحرير والتنوير (13 / 202).

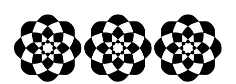
قال مقيده -عفا الله عنه-: وقد يكون قوله تعالى في الثانية: (قالت لهم رسلهم) بزيادة (لهم) لأن المقام يحتاج إلى تأكيد لعناد الكفار في أن يكون الرسل بشرا، وأما الإيمان بوجود الله سبحانه فقد كان أغلب الكفار لا ينكرونه، ومن ثم لم يحتج إلى تأكيده بإقحام (لهم)، وإنما قال: (قالت رسلهم أفي الله شك) لأنهم لم يكونوا في قرارة أنفسهم شاكين، كما قال سبحانه: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [العنكبوت: 61]، وقوله جل وعلا: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [الزخرف: 87] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ [الآية: 47].

إن قيل: لمن هذا الخطاب هنا؟

فالجواب: أنه يحتمل أن يكون خطابًا للنبي ﷺ أو لغيره فإن كان لغيره، فلا إشكال. وإن كان له فهو مشكل، لأن النبي ﷺ لا يحسب أن الله غافل، وتأويل ذلك بوجهين: أحدهما: أن لمراد الثبوت على علمه بأن الله غير غافل وغير مخلف وعده. والآخر: أن المراد إعلامه بعقوبة الظالمين، فمقصد الكلام الوعيد لهم.

فإن قيل: هلا قال (مخلف رسله وعده) وما الحكمة في تقديم المفعول الثاني على الأول؟ فالجواب: أنه قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا على الإطلاق، ثم قال: (رسله) ليعلم أنه إذا لم يخلف وعد أحد من الناس، فكيف يخلف وعد رسله وخيرة خلقه؟ فقدم الوعد أولا بقصد الإطلاق، ثم ذكر الرسل لقصد التخصيص. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله[244].



(244) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 55- 56).

سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: 19].

إن قيل: هل يدل قوله: (والأرض مددناها) على أنها بسيطة؟

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "نعم، لأن الأرض بتقدير كونها كرة فهي كرة في غاية العظمة، والكرة العظيمة يكون كل قطعة صغيرة منها إذا نظر إليها فإنها ترى كالسطح المستوي، وإذا كان كذلك زال ما ذكروه من الإشكال، والدليل عليه قوله تعالى: (والجبال أوتادًا) النبأ 7، سماها أوتادًا مع أنه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية، فكذا ههنا"[245].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الآية: 92].

إن قيل: كيف يجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: 39]؟

قال الإمام محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه، هو أن السؤال قسمان:

سؤال توبيخ وتقريع وأداته غالبا: لم، وسؤال استخبار واستعلام وأداته غالبا: هل، فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع، والمنفي هو سؤال الاستخبار والاستعلام، وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في كله توبيخ وتقريع كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾

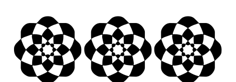
(245) مفاتيح الغيب (19 / 135) قلت: يقدر علماء الفلك حجم الأرض بمليون كيلو متر مكعب تقريبًا.

[الصافات:24، 25]، وقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: 15]، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الزمر: 71]، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: 8]، إلى غير ذلك من الآيات.

وسؤال الله للرسل: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109] لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ﴾ [التكوير: 9] لتوبيخ قاتلها.

الوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة، ففي بعضها يسألون، وفي بعضها لا يسألون.

الوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال محمول على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 65]، والعلم عند الله تعالى". انتهى[246].



(246) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (1 / 100- 101).

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [الآية: 6].

قلت: إن قيل: ما الحكمة في تقديم تريحون على تسرحون، علما أن الأنعام تسرح أولا بالغداة، ثم تروح مساء بالعشي؟

فالجواب: قال الزمخشري: "لأنَّ الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها"[247].

وقال الإمام السيوطي في الإتقان: "فإن الجمال بالجمال وإن كان ثابتًا حالتي السراح والإراحة، إلا أنها حالة إراحتها وهو مجيئها من المرعى آخر النهار يكون الجمال بها أفخر، إذ هي فيه بطان، وحالة سراحها للمرعى أول النهار يكون الجمال بها دون الأول، إذ هي فيه خماص"[248].

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الآية: 29].

إن قيل: كيف قال هنا: (فلبئس مثوى المتكبرين) بلام التوكيد، وأسقطها في سورة الزمر عند قوله سبحانه: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 72]، وفي سورة غافر: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: 76]؟

قال الإمام الألوسي رحمه الله: "الفاء عاطفة، واللام جيء بها للتأكيد اعتناء بالذم لأن القوم ضالون مضلون كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: 25] وللتأكيد اعتناء بالمدح جيء باللام أيضًا فيما بعد من قوله سبحانه: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ

---

(247) الكشاف 2/ 594.

(248) الإتقان 2/ 36 - 37.

خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: 30] لأن أولئك القوم على ضد هؤلاء هادون مهديون، وكأنه لعدم هذا المقتضى في آيتي الزمر والمؤمن -أي غافر- لم يؤت باللام"(249).

وقال الإمام النيسابوري ﷺ: "الفاء للعطف على فاء التعقيب في (فادخلوا) واللام للتأكيد يجري مجرى القسم موافقة لقوله تعالى بعد ذلك: (ولنعم دار المتقين)، ولا نظير لهما في كل القرآن"(250).

قوله تعالى: **﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** [الآية: 15].

قلت: إن قيل: إن الله تعالى ألقى في الأرض رواسي ولم يلق الأنهار والسبل، فأين فعل "أنهارًا وسبلًا"؟

الجواب: قال ابن عطية: "أنهارًا منصوب بفعل مضمر تقديره وجعل أو خلق أنهارًا. قال: وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على أن ألقى أخص من جعل وخلق، ولو كانت ألقى بمعنى خلق لم يحتج إلى هذا الإضمار"(251).

قوله تعالى: **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [الآية: 18].

قلت: إن قيل: كيف قال هنا: (إن الله لغفور رحيم)، وقال في سورة إبراهيم: **﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾** [إبراهيم: 34]؟

فالجواب: أن التي في سورة النحل عدد الحق سبحانه قبلها بعض نعمه على الخلق، فلما علم سبحانه أن القلة القليلة هي التي ستشكره، قال: (إن الله لغفور رحيم) أي: يغفر لكم التقصير في شكر نعمه، ويرحمكم بأن يتجاوز عنكم، لأن مقام الشكر عزيز، كما قال سبحانه في سياق آخر: **﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾** [سبأ: 13]، وأما في سورة إبراهيم، فإن الآية تقدمها الحديث عن كفران الأمم لنعمة الله تعالى، وإعراضهم عن رسله، ثم جاء ذكر عباد الله الطائعين، وتذكير الخلق أجمعين بنعمه سبحانه عليهم، وبعدها

(249) روح المعاني (10 / 144).
(250) تفسير النيسابوري (5 / 19).
(251) التسهيل (2 / 67).

جاء قوله: (وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) أي: أن جنس الإنسان من طبعه الظلم لنفسه، وجحود النعم، إلا من رحم الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾ [العاديات: 6] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: كفور جحود لنعم الله. وقال الحسن: هو الذي يعد المصائب وينسى النعم. وقال أبو عبيدة: هو قليل الخير.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ [الأحزاب: 72]، قال ابن تيمية ﵀: "والإنسان خلق ظلومًا جهولًا فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهواه من الشّرِّ فيحتاج دائمًا إلى علمٍ مفصّلٍ يزول به جهله وعدلٍ في محبّته وبغضه ورضاه وغضبه وفعله وتركه وإعطائه ومنعه وأكله وشربه ونومه ويقظته فكلّ ما يقوله ويعمله يحتاج فيه إلى علمٍ ينافي جهله وعدلٍ ينافي ظلمه فإن لم يمنّ الله عليه بالعلم المفصّل والعدل المفصّل كان فيه من الجهل والظّلم ما يخرج به عن الصّراط المستقيم"[252].ا.هـ.

وعلى هذا التفصيل يظهر لي –والله أعلم– أن الآية في سورة النحل إنما ختمت بصفة المغفرة والرحمة لله تعالى إيقاظًا للهمم، وإشعارًا بتقصير العباد في شكر المنعم، وأما التي في سورة إبراهيم، فإنما ختمت بصفة الإنسان من حيث جنسه وطبعه الذي جبل عليه، إشارة إلى كثرة الجاحدين، وتنبيها إلى أن من شكر إنما هو بتوفيق الله تعالى، ولذلك أوصى النبي ﷺ معاذا فقال: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[253].

بعد كتابتي لهذا الجواب، وجدت الإمام الرازي ﵀ يجيب عن السؤال بقوله: "لما تأملت فيه –أي في سر الآيتين– لاحت لي فيه دقيقة، كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذي أخذتها وأنا الذي أعطيتها، فحصل لك عند أخذها وصفان وهما: كونك ظلومًا كفارًا، ولي وصفان عند إعطائها وهما: كوني غفورًا رحيمًا، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلومًا فأنا غفور، وإن كنت كفارًا فأنا رحيم، أعلم عجزك

---

(252) مجموع فتاوى 22/ 401.

(253) رواه أبو داود (1/ 561) برقم 1524، وأحمد (5/ 244) برقم 22172، والنسائي وغيرهم.

وقصـورك، فـلا أقابـل تقصـيرك إلا بـالتوفير، ولا أجـازي جفـاء إلا بالوفـاء ونسـأل الله حسـن العاقبـة والرحمة"[254].

وقال العلامة أبو جعفر الغرناطي رحمه الله جوابًا عن هذا السؤال: "إن آية إبراهيم تقدمها قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**﴾ [إبراهيم: 28]، ثم قوله: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ [إبراهيم: 30]، ثم ذكر إنعامه على عباده في قوله: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**﴾ [إبراهيم: 32] إلى قوله: ﴿**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**﴾ [إبراهيم: 34]، فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه ودرور إحسانه ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار.

أما آية النحل فلم يتقدمها غير ما نبه سبحانه وعباده المؤمنين من متوالي آلائه وإحسانه، وما ابتدأهم به من نعمة من لدن قوله: ﴿**خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ**﴾ [النحل: 4]، ثم توالت آيات الامتنان والإحسان فقال تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ**﴾ [النحل: 5]، فذكر تعالى بضعًا وعشرين من أمهات النعم إلى قوله منبهًا وموقظًا من الغفلة والنسيان: ﴿**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: 17]، ثم أتبع بقوله سبحانه: ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾؛ فناسب ختام هذا قوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النحل: 18] فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم"[255].

"**بقي سؤال آخر** وهو: ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف النعيم، وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه؟ والجواب: أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جبل عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه، فتأمل هذه التراكيب ما أرقاها في درجة البلاغة"[256]ا. هـ

(254) مفاتيح الغيب 19 / 103

(255) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد 2 / 287.

(256) البرهان 86/1.

وإن قيل لم جاءت "نعمة" بتاء مربوطة في سورة النحل، وبتاء مبسوطة "نعمت" في سورة إبراهيم؟

فالجواب -والله أعلم-: إنما بسطت تاء النعمة تارة، وربطت تارة أخرى، إشارة إلى أن الله تعالى يبسط نعمته على من يشاء متى شاء، ويقبضها عمن يشاء متى شاء، وهذا واضح في غير ما آية، كقوله تعالى: ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**﴾ [الشورى: 12]، فوافق رسم تاء النعمة صفة القبض والبسط.

وللإمام الزركشي -رحمه الله- جواب آخر، فقد قال في البرهان: "فصل: مد التاء وقبضها، وذلك أن هذه الأسماء لما لازمت الفعل صار لها اعتباران: أحدهما من حيث هي أسماء وصفات، وهذا تقبض منه التاء. والثاني من حيث أن يكون مقتضاها فعلًا وأثرًا ظاهرًا في الوجود، فهذا تمد فيه كما تمد في: "قالت وحقت" وجهة الفعل والأمر ملكية ظاهرة، وجهة الاسم والصفة ملكوتية باطنة، فمن ذلك الرحمة، مدت في سبعة مواضع للعلة المذكورة بدليل قوله في أحدها: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: 56] فوضعهما على التذكير فهو الفعل، وكذلك ﴿**فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ**﴾ [الروم: 50] والأثر هو الفعل ضرورة. والثالث: ﴿**أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: 218]، والرابع في هود: ﴿**رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ**﴾ [هود: 73] والخامس: ﴿**ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ**﴾ [مريم: 2] والسادس: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ**﴾ [الزخرف: 32] والسابع: ﴿**وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [الزخرف: 32] ومنه النعمة بالهاء، إلا في أحد عشر موضعًا مدت بها، في البقرة ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: 231] وفي آل عمران ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً**﴾ [آل عمران: 103] وفي المائدة ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ**﴾ [المائدة: 11] وفي إبراهيم ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا**﴾ [إبراهيم: 28] وفيها ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: 34] وفي النحل ﴿**وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ**﴾ [النحل: 72] وفيها ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ**﴾ [النحل: 83] وفيها ﴿**وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ**﴾ [النحل: 114] وفي لقمان ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ**﴾ [لقمان: 31] وفي فاطر ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**﴾ [فاطر: 3] وفي الطور ﴿**بِنِعْمَتِ رَبِّكَ**﴾ [الطور: 29]. والحكمة فيها ما ذكرنا: أن الحاصلة بالفعل في الوجود تمد نحو قوله في إبراهيم: (وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها) بدليل قوله: (إن الإنسان لظلوم كفار) فهذه نعمة متصلة بالظلوم الكفار في تنزيلهما، وهذا بخلاف التي في

سورة النحل: (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) كتبت مقبوضة لأنها بمعنى الاسم بدليل قوله: (إن الله لغفور رحيم)، فهذه نعمة وصلت من الرب، فهي ملكوتية ختمها باسمه ﷻ، وختم الأولى باسم الإنسان"[257].

قوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الآية: 16].

قال الإمام الزمخشري: "فإن قلت: قوله (وبالنجم هم يهتدون) مخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه "النجم"، مقحم فيه "هم"، كأنه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون، فمن المراد بـ (هم)؟

قلت: كأنه أراد قريشًا: كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم، فخصصوا"[258].ا.هـ.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [الآية: 30].

إن قيل: لم نصب جواب المؤمنين، وهو (قالوا خيرا) فنصب خيرا، في حين رفع جواب الكافرين قبلها، عند قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: 24]؟

فالجواب: أن قولهم (خيرا) منصوب بفعل مضمر، تقديره: (أنزل خيرا")، ففي ذلك اعتراف بأن الله أنزله، وأما (أساطير الأولين) فهو خبر ابتداء مضمر تقديره: "هو أساطير الأولين"، فلم يعترفوا بأن الله أنزله فلا وجه لنصبه، ولو كان منصوبًا لكان الكلام متناقضا، لأن قولهم: (أساطير الأولين) يقتضي التكذيب بأن الله أنزله، والنصب بفعل مضمر يقتضي التصديق بأن الله أنزله لأن تقديره (أنزل). فإن قيل: يلزم مثل هذا في الرفع، لأن تقديره "هو أساطير الأولين"، فإنه غير مطابق للسؤال الذي هو (ماذا أنزل ربكم)؟

فالجواب: أنهم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: (هو أساطير الأولين) ولم ينزله الله –جل وعلا–". قاله العلامة ابن جزي[259].

---

(257) البرهان (410 – 411 – 412) وأبو عمرو الداني في المقنع في رسم مصاحف الأمصار.

(258) الكشاف (599/2).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [الآيات: 49، 50].

قال ابن القيم رحمه الله: "فإن قيل: فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة، وشدة خوف النبي مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأنه أقرب الخلق إلى الله؟

قيل عن هذا أربعة أجوبة:

الجواب الأول: أن هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده، وكلما كان العبد أقرب إلى الله كان خوفه منه أشد، لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره.

فإن: قيل فهم إذا فعلوا مقدورهم من شكره وعبوديته لم يكن ما عداه مما ينبغي له مقدورا لهم، فكيف يحسن العذاب عليه؟

قيل الجواب من وجهين:

أحدهما أن المقدور للعبد لا يأتي به كله، بل لا بد من فتور وإعراض وغفلة وتوان، وأيضا ففي نفس قيامه بالعبودية لا يوفيها حقها الواجب لها من كمال المراقبة والإجلال والتعظيم والنصيحة التامة لله فيها، بحيث يبذل مقدوره كله في تحسينها وتكميلها ظاهرًا وباطنًا، فالتقصير لازم في حال الترك وفي حال الفعل. ولهذا سأل الصديق النبي دعاء يدعو به في صلاته فقال له: «**قُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[260].. فليتدبر اللبيب هذا الدعاء وما فيه من المعارف والعبودية، وفي ضمنه أنه لو عذبتني لعدلت في ولم تظلمني، وإني لا

=

(259) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى 2/71 - 70.

(260) **متفق عليه**: صحيح البخاري (1/ 286) برقم 799، صحيح مسلم (4/ 2078) برقم 2705.

أنجو إلا برحمتك ومغفرتك. ومن هذا قوله -ﷺ-: «**لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ**»[261]. فإذا كان عمل العبد لا يستقل بالنجاة فلو لم ينجه الله فلم يكن قد بخسه شيئًا من حقه ولا ظلمه، فإنه ليس معه ما يقتضي نجاته. وعمله ليس وافيا بشكر القليل من نعمه فهل يكون ظالما لو عذبه؟ وهل تكون رحمته له جزاء لعمله ويكون العمل ثمنًا لها مع تقصيره فيه وعدم توفيته ما ينبغي له من بذل النصيحة فيه وكمال العبودية من الحياء والمراقبة والمحبة والخشوع وحضور القلب بين يدي الله في العمل له؟ ومن علم هذا علم السر في كون أعمال الطاعات تختم بالاستغفار". إلخ[262].

قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ**﴾ [الآية: 66].

قلت: إن قيل: لم قال هنا (في بطونه) وأما في سورة "المؤمنون" فقال: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا**﴾ [المؤمنون: 21] فذكَّر بطون الأنعام في "النحل" وأنَّثها في "المؤمنون"؟

فالجواب: قال الإمام البغوي رحمه الله: "قال الفرَّاء: ردّ الكناية إلى النّعم، والنّعم والأنعام واحد.

ولفظ النّعم مذكَّر، قال أبو عبيدة، والأخفش: النّعم يذكَّر ويؤنَّث، فمن أنَّث فلمعنى الجمع، ومن ذكَّر فلحكم اللَّفظ.

قال الكسائيُّ: ردَّه إلى ما يعني في بطون ما ذكرنا. وقال المؤرّج: الكناية مردودة إلى البعض والجزء، كأنّه قال: "نسقيكم ممّا في بطونه" اللّبن، إذ ليس لكلّها لبن، واللّبن فيه مضمر"[263].

(261) **متفق عليه**: صحيح البخاري (5/ 2373) برقم 6098، صحيح مسلم (4/ 2169) برقم 2816، واللفظ لأحمد (16/ 22) برقم 10330، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(262) طريق الهجرتين (1 / 427- 430).

(263) تفسير البغوي (5 / 27 - 28). المؤرّج هو ابن عمرو السدوسي، ويكنى أبا الفيل أو أبا الفيد. أخذ عن الخليل، مات رحمه الله سنة خمس وتسعين ومائة، وقيل: عاش إلى بعد المائتين. (ينظر المزهر لجلال الدين).

وقال أبو جعفر الغرناطي ﷺ: "إفراد الضمير وتذكيره مراد به الجنس، وقد حكى سيبويه -ﷺ- أن من العرب من يقول: هو الأنعام، وعليه حمل آية الأنعام في تذكير الضمير، وورد في سورة "المؤمنون" على التأنيث والجمع لما بني على ذلك من قوله: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ [المؤمنون: 21، 22]، فنوسب بضمير الأنعام ما أتبع به من الضمائر في قوله: فيها، ومنها، وعليها. فورد بصورة التأنيث والجمع"[264].

وقال الإمام ابن جزي ﷺ: "إنما ذكّر بطون الأنعام في "النحل" لأنه مفرد بمعنى الجمع كقولهم: ثوب أخلاق. لأنه اسم جنس، وإذا أنّث فهو جمع نعم"[265].

وذكر القاضي ابن العربي في أحكام القرآن ستة أجوبة، اختار منها ورجح القول السادس، فقال: "السّادس: قال القاضي الإمام أبو بكرٍ: إنّما يرجع التّذكير إلى معنى الجمع، والتّأنيث إلى معنى الجماعة، فذكّر في آية النّحل باعتبار لفظ الجمع المذكّر، وأنّث في آية المؤمن باعتبار تأنيث لفظ الجماعة، وينتظم المعنى بهذا التّأويل انتظامًا حسنًا.

والتّأنيث باعتبار الجماعة، والتّذكير باعتبار الجمع، أكثر في القرآن واللّغة من رمل يبرين ومها فلسطين"[266]ا.هـ

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الآية: 69].

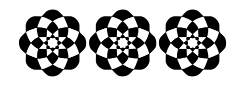
إن قيل كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرارة؟

(264) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد (2 / 302).

(265) التسهيل 77/2.

(266) يبرين اسم موضع يقال له رمل يبرين وفيه لغتان يبرون في الرفع وفي الجر والنصب يبرين لا ينصرف للتعريف والتأنيث فجرى إعرابه كإعرابه. لسان العرب (5 / 293)، وقد صار مثلا يضرب به على شهرة الشيء وكثرة شيوعه.

أجاب الإمام الرازي رحمه الله بقوله: "إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال بل لما كان شفاء للبعض من بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء والذي يدل على أنه شفاء في الجملة أنه قل معجون من المعاجين إلا وتمامه وكماله إنما يحصل بالعجن بالعسل وأيضًا فالأشربة المتخذة منه في الأمراض البلغمية عظيمة النفع"[267].



(267) مفاتيح الغيب 20 / 59.

سورة الإسراء

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الآية: 1].

إن قيل: ما فائدة قوله: (ليلا) مع أن السرى هو السير بالليل؟

فالجواب: أنه أراد بقوله (ليلا) بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل مسيرة أربعين ليلة، وذلك أبلغ في الأعجوبة. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله[268].

قلت: وذلك أظهر على أنه بأمر الله تعالى وقدرته، فلا عجب حينئذ ولا غرابة، لأنه سبحانه لا يعجزه شيء، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الآية: 38].

قلت: إن قيل: كيف قال عما سبق من المنهيات (مكروها) والمكروه هو ما يلام صاحبه ولا يعاقب عليه، لأنه دون المحرم؟

فالجواب: أن المكروه هنا بمعنى الحرام لا على اصطلاح الفقهاء في أن المكروه دون الحرام[269].

قال الإمام الزمخشري: "فإن قلت: كيف قال (سيئه) مع قوله (مكروهًا)؟ قلت: السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب، والإثم زال عنه حكم الصفات، فلا اعتبار بتأنيثه. ولا فرق بين من قرأ (سيئة) و (سيئًا). ألا تراك تقول: الزنا سيئة، كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث.

(268) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 97).

(269) التسهيل لعلوم التنزيل 2 / 107.

فإن قلت: فما ذكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن، ولذلك قرأ من قرأ "سيئهُ" بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئة؟ قلت: (كل ذلك) إحاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة"[270].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: "أما من قرأ "سيئة" أي: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذي نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: 31] إلى هاهنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها (مكروهًا) عند الله، لا يحبه ولا يرضاه"[271].

قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الآية: 60].

إن قيل: لم لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟

فالجواب: أن المراد لعنة آكلها، وقيل اللعنة بمعنى الإبعاد، لأنها في أصل الجحيم[272].

وقال الزمخشري رحمه الله: "لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز. وقيل: وصفها الله باللعن، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم الطعام الملعون القشب الممحون"[273].

قوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الآية: 63].

قلت: إن قيل لم غير الخطاب من الغيبة إلى المخاطب، ولم يقل: "فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤهم"؟

---

(270) الكشاف (2 / 668).

(271) تفسير ابن كثير (5 / 77).

(272) المصدر نفسه (2 / 112).

(273) الكشاف 676/2. قوله «الطعام الملعون القشب المحوق» الخلط الضار يمزج بالطعام أو الشراب كالسم. والممحوق المذاب حتى يذهب عينه. أفاده الصحاح. وفيه «الكشوث» نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض، قال الشاعر:

هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ... ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر

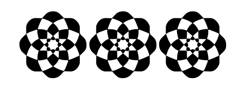
فالجواب: إنما ذكره بلفظ المخاطب تغليبا للمخاطب على الغائب وليدخل إبليس معهم. قاله العلامة ابن جزي[274].

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "فإن قلت: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك؟ قلت: بلى، ولكن التقدير: فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل: جزاؤكم. ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات"[275].

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الآية: 107 - 109].

قلت: إن قيل: ما الحكمة في تكرير (يخرون للأذقان)؟

فالجواب: لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين. قاله الزمخشري[276].



(274) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 113).

(275) الكشاف (2/ 677).

(276) المصدر نفسه 2/ 700.

سورة الكهف

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الآية: 1].

قلت: إن قيل: هلا اكتفى بقوله: (ولم يجعل له عوجًا) فهذا يدل على أنه مستقيم ومعتدل، دون إضافة (قيِّمًا)؟

الجواب: أن في هذه الآية ما يسمى في البلاغة بالتكرير، وفائدته التأكيد، قال الزجَّاج رحمه الله: "قوله تعالى «ولم يجعل له عوجا قيما» فإن نفي العوج معناه إثبات الاستقامة، وإنما جنح الى التكرير لفائدة منقطعة النظير وهي التأكيد والبيان، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة، مجمع على استقامته ومع ذلك فإن الفاحص المدقق قد يجد له أدنى عوج، فلما أثبت له الاستقامة أزال شبهة بقاء ذلك الأدنى الذي يدق على النظرة السطحية الأولى"[277].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الآية: 19].

إن قيل: كيف اتصل بعث أحدهم، بتذكر مدة لبثهم؟

فالجواب: أنهم كانوا قالوا: (ربكم أعلم بما لبثتم) ولا سبيل لكم إلى العلم بذلك، فخذوا فيما هو أهم من هذا وأنفع لكم، فابعثوا أحدكم إلى المدينة[278].

قوله تعالى: (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) الآية، قلت: إن قيل: لم جاء هنا (سبعة وثامنهم) بعطف الواو، في حين جاء قبله (ثلاثة رابعهم كلبهم) (خمسة سادسهم) دون واو؟

(277) إعراب القرآن وبيانه (5 / 534).
(278) التسهيل لعلوم التنزيل 2 / 131.

الجواب: قال قوم إن الواو واو الثمانية لدخولها هنا، وفي قوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: 7]، وفي قوله في أهل الجنة ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: 73] وفي قوله في براءة ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 112]، وقال البصريون: لا تثبت واو الثمانية، وإنما الواو هنا كقوله: جاء زيد وفي يده سيف.

قال الزمخشري: "فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة، ولم دخلت عليها دون الأوّلين؟ قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حال عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر. ومررت بزيد وفي يده سيف. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر: 4] وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا: (سبعة وثامنهم كلبهم)، قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما قال غيرهم. والدليل عليه أنّ اللّه سبحانه أتبع القولين الأولين قوله: (رجمًا بالغيب) وأتبع القول الثالث قوله: (ما يعلمهم إلّا قليل)"[279].

وقال ابن عطية ﷺ: دخلت الواو في آخر إخبار عن عددهم لتدل على أن هذا نهاية ما قيل، ولو سقطت لصح الكلام[280].

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الآية: 71].

قال الزمخشري في الكشاف: "إن قلت: لم قيل (حتّى إذا ركبا في السفينة خرقها) بغير فاء و (حتى إذا لقيا غلامًا فقتله) قلت: جعل خرقها جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفًا عليه، والجزاء (قال أقتلت). فإن قلت: فلم خولف بينهما؟ قلت: لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقّب القتل لقاء الغلام."[281].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الآية: 75]

(279) تفسير الكشاف (2 / 713 - 714).
(280) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 131 - 132).
(281) (2 / 736).

قال ابن الجوزي في زاد المسير: "إن قيل: لم ذكر "لك" هاهنا، واختزله من الموضع الذي قبله؟

فالجواب: أن إثباته للتوكيد، واختزاله لوضوح المعنى، وكلاهما معروف عند الفصحاء. تقول العرب: قد قلت لك: اتق الله. وقد قلت لك: يا فلان اتق الله، وأنشد ثعلب:

قـد كنــت حــذّرتك آل المصــطلق وقلــت: يــا هــذا أطعــني وانطلــق

فقوله: يا هذا، توكيد لا يختل الكلام بسقوطه. وسمعت الشيخ أبا محمد الخشاب يقول: وقّره في الأول، فلم يواجهه بكاف الخطاب، فلما خالف في الثاني، واجهه بها"[282].

وقال الإمام ابن جزي ﷺ: " (قال أ لم أقل لك) بزيادة لك، فيه من الزجر والإغلاظ ما ليس في قوله أولا: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 72]"[283].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الآية: 78].

إن قيل: لم فارق الخضر موسى عند قوله: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: 77]، علما أنه شرط على نفسه الفراق إن سأله، وهنا لم يسأله؟

الجواب: قال صاحب التسهيل: "إن قوله: (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) ليس بسؤال، ولكن في ضمنه أمر بأخذ الأجرة عليه، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام.

فإن قيل: لم قال: فراق ولم يقل: فراق وهو الأصل؟ قال الزمخشري: الأصل هذا فراق بيني وبينك بتنوين فراق ونصب بيني على الظرفية، ثم أضيف المصدر إلى الظرف، والإشارة بقوله: (هذا) إلى السؤال الثالث الذي أوجب الفراق"[284].

(282) زاد المسير (4 / 241).
(283) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 145).
(284) المصدر نفسه (2 / 146- 147).

وذهب صاحب التسهيل إلى أن البين هنا ليس بظرف، وإنما معناه الوصلة والقرب.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الآية: 82].

قلت: إن قيل لم قال هنا: (تسطع)، وقال قبلها: (إنك لن تستطيع معي صبرا) وقال عند سد يأجوج ومأجوج: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97]؟

فالجواب -والله أعلم-: أن استطاع فيها من معاني الشدة والصعوبة ما لا يوجد في "اسطاع" التي فيها من معاني اليسر والسهولة، ولذلك سقطت منه التاء، إذ الزيادة في المبنى زيادة في المعنى.

قال العلامة ابن عاشور ﷺ: "ومن خصائص مخالفة مقتضى الظّاهر هنا إيثار فعلٍ ذي زيادةٍ في المبنى بموقعٍ فيه زيادة المعنى لأنّ استطاعة نقب السّدّ أقوى من استطاعة تسلّقه، فهذا من مواضع دلالة زيادة المبنى على زيادةٍ في المعنى"[285].

قال الإمام ابن كثير: "وقوله: (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرًا) أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: (ما لم تسطع)، وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلا فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 78] فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97]، وهو أشق من ذلك، فقابل كلا بما يناسبه لفظًا ومعنى والله أعلم.

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟

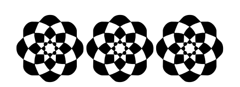
(285) التحرير والتنوير (16 / 38).

فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ."[286].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ [الآية: 94].

إن قيل: كيف قالوا ذلك وهم لا يفقهون؟

قيل: كلم عنهم مترجم، دليله، قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (93) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 93، 94]. قاله الإمام البغوي رحمه الله[287].



(286) تفسير القرآن العظيم (5 / 188).
(287) تفسير البغوي (5/ 201- 202).

سورة مريم

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [الآية: 8].

قلت: إن قيل كيف تعجب زكرياء عليه السلام أن يهبه الله ولدا مستبعدا ذلك، علما أنه طلب ذلك من ربه في دعائه؟

فالجواب: سأل ذلك أولا لعلمه بقدرة الله عليه، وتعجب منه لأنه نادر في العادة. وقيل: سأله وهو في سن من يرجوه، وأجيب بعد ذلك بسنين وهو قد شاخ. قاله العلامة ابن جزي[288].

قال العلامة ابن عاشور: "وقوله: أنّى يكون لي غلام استفهام مراد منه التّعجّب، قصد منه تعرّف إمكان الولد، لأنّه لما سأل الولد فقد تهيّأ لحصول ذلك فلا يكون قوله أنّى يكون لي غلام إلّا تطلّبًا لمعرفة كيفيّة ذلك على وجهٍ يحقّق له البشارة، وليس من الشّكّ في صدق الوعد، وهو كقول إبراهيم: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]، فأجيب بأنّ الممكنات داخلة تحت قدرة الله تعالى وإن عزّ وقوعها في العادة.

و(أنَّى) فيه بمعنى كيف، أو بمعنى المكان، لتعذُّر عمل المكانين اللّذين هما سبب التناسل وهما الكبر والعقرة. وهذا التّعجّب يستلزم الشّكر على هذه المنّة فهو كناية عن الشّكر. وفيه تعريض بأن يكون الولد من زوجه العاقر دون أن يؤمر بتزوّج امرأةٍ أخرى وهذه كرامة لامرأة زكريّاء"[289].

قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [الآية: 33].

قلت: إن قيل لم عرَّف السلام هنا ونكَّره على يحيى عليه السلام؟

(288) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 154 - 155).
(289) التحرير والتنوير (3 /241 - 242).

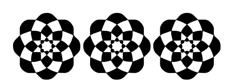
فالجواب: أدخل لام التعريف هنا لتقدُّم السَّلام المنكَّر في قصة يحيى، فهو كقولك: رأيت رجلًا فأكرمت الرجل. وقال الزمخشري: الصحيح أن هذا التعريف تعريض بلغة من اتَّهم مريم، كأنه قال: "السلام كله علي لا عليكم بل عليكم ضده"[290].

قال العلامة ابن عاشور: "وجيء بالسّلام هنا معرّفا باللّام الدّالّة على الجنس مبالغةً في تعلّق السّلام به حتّى كان جنس السّلام بأجمعه عليه. وهذا مؤذن بتفضيله على يحيى إذ قيل في شأنه: ﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ**﴾ [مريم: 15]، وذلك هو الفرق بين المعرّف بلام الجنس وبين النَّكرة.

ويجوز جعل اللّام للعهد، أي سلام إليه، وهو كناية عن تكريم الله عبده بالثّناء عليه في الملأ الأعلى وبالأمر بكرامته. ومن هذا القبيل السّلام على رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: 56]، وما أمرنا به في التّشهّد في الصّلاة من قول المتشهّد: «السّلام عليك أيّها النّبيء ورحمة الله وبركاته».

ومؤذن أيضًا بتمهيد التّعريض باليهود إذ طعنوا فيه وشتموه في الأحوال الثّلاثة، فقالوا: ولد من زنًى، وقالوا: مات مصلوبًا، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة، لأنّهم يزعمون أنّه كفر بأحكامٍ من التّوراة"[291].

قال مقيده -لطف الله به-: أو لكون عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ولن يمسسه سوء، ولذلك رفعه الله تعالى إليه، أما يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد قتل، والله أعلم.



(290) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 158).

(291) التحرير والتنوير (16 / 100- 101).

سورة طه

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [الآيات: 25، 26].

قال الزمخشري: "فإن قلت: (لي) في قوله: (اشرح لي صدري ويسّر لي أمري (26)) ما جدواه والكلام بدونه مستتب؟ قلت: قد أبهم الكلام أولًا فقيل: اشرح لي ويسر لي، فعلم أن ثم مشروحًا وميسرًا، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره، من أن يقول: اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج، لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الإجمال والتفصيل"[292].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: 70].

قلت: إن قيل ما الحكمة في تقديم هارون -هنا- على موسى عليه السلام، في حين قدم موسى على هارون في[الأعراف: 121، 122] وفي [الشعراء: 47، 48] ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾؟

الجواب: قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "قدم هارون لتعادل رؤوس الآي"[293].

قال مقيده -غفر الله له-: وهذا عندي لا يستقيم، إذ لو كان تقديم هارون على موسى -عليه السلام- إنما لتعادل رؤوس الآي، لاطّرد ذلك في السورة كلها، لكننا نجد في السورة نفسها: ﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ فكان هذا المقطع آية مستقلة، ثم بعدها ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه: 92، 93] فلم يعتدل رأس الآية الأولى مع باقي رؤوس الآي في السورة، ولو كان الأمر كما ظنه صاحب التسهيل وغيره، لكانت هاتان الآيتان 90 - 91 آية واحدة، ليعتدل رأسها مع باقي رؤوس الآي.

(292) الكشاف (3 / 60).
(293) التسهيل (2 / 176).

والصحيح -والله أعلم- إنما قدم هنا هارون على موسى، لنعلم أن هارون هو أيضا خاطب الملأ والسحرة، فإنه كان نبيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما كثر ذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وتقديمه، لأن التوراة نزلت عليه، وهو الذي سأل ربه تعالى أن يشد عضده بأخيه. وهذا التقديم والتأخير شبيه بحال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمه، فآية قدّم فيها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على أمه فقال: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾ [المؤمنون: 50]، وآية قدم فيها مريم عليها السلام على ابنها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: 91]، ليدلك على أن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل، فكلاهما آية لله ومعجزة. ولذلك تعرب: (آية) مفعول به ثان، وإنما لم يطابق المفعول الأول فيثنى، لأن كلّا من مريم وابنها آية بانضمامه للآخر، فصار (آية) واحدة أو تقول: إنه حذف من أحدهما لدلالة الثاني عليه، أي: وجعلنا مريم آية وابنها كذلك، أو بالعكس[294].

فكذلك أقول هنا: تقديم ذكر هارون على موسى من هذا الباب، إذ لو لم يقدم ذكره البتة، لظن ظان أنه كان لا يتكلم بحضرة أخيه ولا يعظ، وهذا لا يصح، فإن الله تعالى طمأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ**﴾ [القصص: 35]. فإذن، كان هارون -هو أيضًا- يكلم فرعون ويدعوه، ولكن يضاف الكلام إلى موسى لأنه هو الأصل، وهو المؤيد بالمعجزات. والله أعلم، ونسبة العلم إليه أسلم.

وقال العلامة ابن عاشور: "وتقديم هارون على موسى هنا وتقديم موسى على هارون في قوله تعالى في سورة الأعراف [121، 122]: ﴿**قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾ لا دلالة فيه على تفضيلٍ ولا غيره، لأنَّ الواو العاطفة لا تفيد أكثر من مطلق الجمع في الحكم المعطوف فيه، فهم عرفوا الله بأنّه ربّ هذين الرّجلين فحكي كلامهم بما يدلّ على ذلك ألا ترى أنّه حكي في سورة الأعراف

(294) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش (6/ 359).

[121] قول السّحرة (قالوا آمنّا بربّ العالمين)، ولم يحك ذلك هنا، لأنّ حكاية الأخبار لا تقتضي الإحاطة بجميع المحكيّ وإنّما المقصود موضع العبرة في ذلك المقام بحسب الحاجة"[295].

فإن قيل: فهل السحرة قالوا: (ءامنا برب هارون وموسى) أم قالوا: (ءامنا برب العالمين رب موسى وهارون)؟

فالجواب: إما أنهم قالوا: (ءامنا برب هارون وموسى) وأكدوا إيمانهم قائلين (ءامنا برب العالمين رب موسى وهارون) وذلك في مجلس واحد، تأكيدا منهم أنهم آمنوا بكلا النبيين عليهما السلام، وهذا كثير في القرآن، خاصة في القصص.

وإما أن القولين حكاية عن اعتقادهما بالأسلوب القرآني، وبالتعبير الرباني المعجز، إذ من المعلوم قطعًا أن ما أخبرنا به ربنا من كلام فرعون، وقارون، ونمرود كنعان، وأقوال الأقوام، ليس هو بهذه الألفاظ العربية القرآنية، ولكن بلغاتهم وأسلوبهم، ثم حكى سبحانه أقوالهم بأدق وأبلغ أسلوب، وهذا موضوع ليس هنا محل بسط الكلام فيه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [الآية: 79].

إن قيل: إن قوله: (وأضل فرعون قومه) يغني عن قوله: (وما هدى).

فالجواب: أنه مبالغة وتأكيد. أو كما قال الزمخشري: "إنما قيل (وما هدى) تهكمًا به"[296].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [الآية: 105].

إن قيل: كيف جاء (ويسألونك عن الجبال فقل) وعادة القرآن مجيء: (قل) في الجواب، بلا فاء؟

(295) التحرير والتنوير (16 / 262).

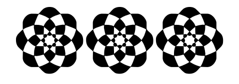
(296) الكشاف (3 / 78).

أجاب الكرماني بأن التقدير: "لو سئلت عنها فقل"(297).

قوله تعالى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [الآية: 107].

إن قيل: المعروف في اللغة أن العوج بالكسر في المعاني، وبالفتح في الأشخاص، والأرض شخص. فكان الأصل أن يقال فيها بالفتح، فلم قاله هنا بالكسر؟

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "إنما قاله بالكسر مبالغة في نفيه، فإن الذي في المعاني أدق من الذي في الشخاص، فنفاه ليكون غاية في نفي العوج من كل وجه"(298).



(297) الإتقان (2 / 303).

(298) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 181). الشخاص وأشخاص وشخوص كلها جمع، مفرده شخص.

سورة الأنبياء

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الآية: 33].

قال الزمخشري رحمه الله: "إن قلت: لكل واحد من القمرين فلك على حدة، فكيف قيل: جميعهم يسبحون في فلك؟ قلت: هذا كقولهم "كساهم الأمير حلة، وقلدهم سيفًا "أي كل واحد منهم، أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين، فاكتفى بما يدل على الجنس اختصارًا، ولأنّ الغرض الدلالة على الجنس(299).

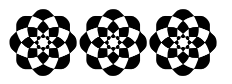
قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الآية: 81].

إن قيل: كيف يقال عاصفة، وقال في [ص: 36] ﴿رُخَاءً﴾ -أي لينة-؟

فالجواب: "أنها كانت في نفسها لينة طيبة، وكانت تسرع في جريها كالعاصف، فجمعت الوصفين. وقيل: كانت رخاء في ذهابه، وعاصفة في رجوعه إلى وطنه، لأن عادة المسافرين الإسراع في الرجوع. وقيل: كانت تشتد إذا رفعت البساط، وتلين إذا حملته". قاله العلامة ابن جزي رحمه الله(300).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الآية: 107].

إن قيل: (رحمة للعالمين) عموم، والكفار لم يرحموا به؟ فالجواب: من وجهين، أحدهما: أنهم كانوا معرضين للرحمة به لو آمنوا، فهم الذين تركوا الرحمة بعد تعريضها لهم. والآخر: أنهم رحموا به لكونهم لم يعاقبوا بمثل ما عوقب به الكفار المتقدمون، من الطوفان والصيحة وشبه ذلك"(301).



(299) الكشاف (3 / 115).
(300) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 199).
(301) المصدر نفسه (2 / 206).

سورة الحج

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الآية: 2].

قال الزمخشري ﵀: "إن قلت: لم قيل: (مرضعةٍ) دون مرضع؟

قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي. والمرضع: التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعة؛ ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة"(302).

قوله تعالى: ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ [الآية: 12].

قال الإمام ابن جزي ﵀: "إن قيل: كيف وصف الأصنام بأنها لا تضر ولا تنفع، ثم وصفها بأن ضرها أقرب من نفعها، فنفى الضر ثم أثبته؟ فالجواب: أن الضر المنفي –أولا– يراد به ما يكون من فعلها وهي لا تفعل شيئا، والضر الثاني يراد به ما يكون بسببها من العذاب وغيره. والإشكال الثاني دخول اللام على من –وهي في الظاهر مفعول– واللام لا تدخل على المفعول؟

وأجاب الناس عن ذلك بثلاثة أوجه: أحدها أن اللام مقدمة على موضعها، كأن الأصل أن يقال: "يدعو من لضره أقرب من نفعه" فموضعها الدخول على المبتدأ، والثاني أن (يدعو) –هنا– كرر تأكيدا ليدعو الأول، وتم الكلام عنده. ثم ابتدأ قوله: (لمن ضره) ف–: (من) مبتدأ، وخبره (لبئس المولى). وثالثها أن معنى (يدعو): يقول يوم القيامة هذا الكلام إذا رأى مضرة الأصنام. فدخلت اللام على مبتدأ في أول الكلام". انتهى(303).

---

(302) الكشاف (3 / 142).

(303) التسهيل لعلوم التنزيل 2 / 209 -210.

قال مقيده –عفا الله عنه–: قد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية –رَحِمَهُ اللهُ– الجواب في مشكل هذه الآية تفصيلا عجيبا فقال: "قوله: (ما لا يضرّه وما لا ينفعه) هو نفي لكون المدعو المعبود من دون الله يملك نفعًا أو ضرًّا وهذا يتناول كلّ ما سوى الله من الملائكة والبشر والجنّ والكواكب والأوثان كلّها، فإنّما سوى الله لا يملك –لا لنفسه ولا لغيره– ضرًّا ولا نفعًا. كما قال تعالى في سياق نهيه عن عبادة المسيح: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (72) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (73) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (74) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (75) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [المائدة: 72 – 76]، وقد قال لخاتم الرّسل: ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ [الأعراف: 188] وقال: ﴿**قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا**﴾ [الجن: 21] وقال على العموم: ﴿**مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [فاطر: 2] وقال: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ**﴾ [يونس: 107] وقال: ﴿**قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [الزمر: 38] وقال صاحب يس: ﴿**وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾ [يس: 22 – 25]. وقوله: ﴿**يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ**﴾ [الحج: 12] نفي عامّ كما في قوله: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**﴾ [طه: 89] فهو لا يقدر أن يضرّ أحدًا سواء عبده أو لم يعبده ولا ينفع أحدًا سواء عبده أو لم يعبده؛ وقول من قال: لا ينفع إن عبد ولا يضرّ إن لم يعبد بيان لانتفاء الرّغبة والرّهبة من جهته؛ بخلاف الرّبّ الّذي يكرم عابديه ويرحمهم ويهين من لم يعبده ويعاقبه. والتّحقيق أنّه لا ينفع ولا يضرّ مطلقًا فإنّ الله سبحانه وسعت رحمته كلّ شيءٍ وهو ينعم

على كثيرٍ من خلقه وإن لم يعبدوه، فنفعه للعباد لا يختصّ بعابديه -وإن كان في هذا تفصيل ليس هذا موضعه- وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده؛ وهو سبحانه الضّارّ النّافع: قادر على أن يضرّ من يشاء وإن كان ما ينزله من الضّرّ بعابديه هو رحمة في حقّهم كما قال أيّوب: ﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [الأنبياء: 83] وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ**﴾ [الأنعام: 17] وقال أيضًا لرسوله محمّدٍ ﷺ﴿**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ [الأعراف: 188] وقال تعالى: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾ [البقرة: 177] وهو سبحانه يحدث ما يحدثه من الضّرر بمن لا يوصف بمعصية من الأطفال والمجانين والبهائم؛ لما في ذلك من الحكمة والنّعمة والرّحمة -كما هو مبسوط في غير هذا الموضع-.

فإنّ المقصود هنا أنّ نفي الضّرّ والنّفع عمّن سواه عامّ لا يجب أن يخصّ هذا بمن عبده وهذا بمن لم يعبده؛ وإن كان هذا التّخصيص حقًّا باعتبار صحيح؛ وجواب من أجاب بأنّ معناه لا يضرّ ترك عبادته وضرّه بعبادته أقرب من نفعه مبنيّ على هذا التّخصيص. وإذا كان كذلك فنقول: المنفيّ قدرة من سواه على الضّرّ والنّفع. وأمّا قوله: (ضرّه أقرب من نفعه) فنقول أوّلًا: المنفيّ هو فعلهم بقوله: (ما لا يضرّه وما لا ينفعه) والمثبت اسم مضاف إليه فإنّه لم يقل: يضرّ أعظم ممّا ينفع؛ بل قال: (لمن ضرّه أقرب من نفعه) والشّيء يضاف إلى الشّيء بأدنى ملابسةٍ، فلا يجب أن يكون الضّرّ والنّفع المضافين من باب إضافة المصدر إلى الفاعل، بل قد يضاف المصدر من جهة كونه اسمًا، كما تضاف سائر الأسماء. وقد يضاف إلى محلّه وزمانه ومكانه وسبب حدوثه وإن لم يكن فاعلًا كقوله: (بل مكر اللّيل والنّهار) ولا ريب أنّ بين المعبود من دون الله وبين ضرر عابديه تعلّق يقتضي الإضافة كأنّه قيل: لمن شرّه أقرب من خيره وخسارته أقرب من ربحه؛ فتدبّر هذا.

ولو جعل هو فاعل الضّرّ بهذا لأنّه سبب فيه لا لأنّه هو الّذي فعل الضّرر، وهذا كقول الخليل عن الأصنام: ﴿**رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ**﴾ [إبراهيم: 36] فنسب الإضلال إليهنّ، والإضلال هو ضرر لمن أضللنه وكذلك قوله: (وما زادوهم غير تتبيبٍ) وهذا كما يقال: أهلك النّاس: الدّرهم والدّينار، وأهلك النّساء الأحمران: الذّهب والحرير؛ وكما يقال للمحبوب المعشوق الّذي تضرّ محبّته وعشقه: إنّه عذّب

هذا وأهلكه وأفسده وقتله وعثّره؛ وإن كان ذاك المحبوب قد لا يكون شاعرًا بحال هذا ألبتَّة. وكذلك يقال في المحسود؛ إنّه يعذّب حاسديه وإن كان لا شعور له بهم.

وفي الصّحيحين عن عمرو بن عوفٍ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «**وَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[304]، فجعل الدّنيا المبسوطة هي المهلكة لهم: وذلك بسبب حبّها والحرص عليها والمنافسة فيها وإن كانت مفعولًا بها لا اختيار لها. فهكذا المدعوّ المعبود من دون الله الّذي لم يأمر بعبادة نفسه: إمّا لكونه جمادًا وإمّا لكونه عبدًا مطيعًا لله من الملائكة والأنبياء والصّالحين من الإنس والجنّ، فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضرّ، لكن هو السّبب في دعاء الدّاعي له وعبادته إيّاه. وعبادة ذاك ودعاؤه هو الّذي ضرّه فهذا الضّرّ المضاف إليه غير الضّرّ المنفيّ عنه فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدّنيا والآخرة. وإن كان عذاب الآخرة أشدّ فالمشركون الّذين عبدوا غير الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدّنيا ما جعله الله عبرةً لأولي الأبصار قال الله تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾ [هود: 100، 101] فبيّن أنّهم لم تنفعهم بل ما زادتهم إلّا شرًّا. وقد قيل في هذا كما قيل في الضّرّ. قيل: ما زادتهم عبادتها. وقيل: إنّها في القيامة تكون عونًا عليهم فتزيدهم شرًّا وهذا كقوله: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا**﴾ [مريم: 81، 82] والتّتبيب: عبّر عنه الأكثرون: بأنّه التّخسير كقوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ [المسد: 1] وقيل: التّثبير والإهلاك وقيل: ما زادوهم إلّا شرًّا؛ وقوله: (فما أغنت عنهم آلهتهم الّتي يدعون من دون اللّه من شيءٍ لما جاء أمر ربّك وما زادوهم غير تتبيبٍ) فعل ماضٍ يدلّ على أنّ هذا كان في الدّنيا؛ وقد يقال: فالشّرّ كلّه من جهتهم فلم قيل: فما زادوهم؟

(304) صحيح البخاري (3/ 1152) برقم 2988.

فيقال: بل عذّبوا على كفرهم بالله ولو لم يعبدوهم، فلمّا عبدوهم مع ذلك ازدادوا بذلك كفرًا وعذابًا فما زادوهم إلّا خسارةً وشرًّا؛ ما زادوهم ربحًا وخيرًا"[305].

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الآية: 15].

قال مقيده –لطف الله به–: إن قيل على من يعود ضمير الهاء في قوله تعالى: (لن ينصره)؟

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: الجواب على قولين، الأول: أنه يعود على النبي ﷺ، والمعنى على هذا من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمدا فليختنق بحبل، فإن الله ناصره ولا بد على غيظ الكفار. فموجب الاختناق هو الغيظ من نصرة سيدنا محمد ﷺ.

والقول الثاني: أن الضمير في (ينصره) عائد على (من) والمعنى على هذا: من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله، فليختنق وليمت بغيظه، فإنه لا يقدر على غير ذلك. فموجب الاختناق على هذا، القنوط والسخط من القضاء وسوء الظن بالله، حتى ييأس من نصره. ولذلك فسر بعضهم (أن لن ينصره الله) بمعنى: أن لن يرزقه. وهذا القول أرجح من الأول، لوجهين:

أحدهما: أن هذا القول مناسب لمن يعبد الله على حرف، لأنه إذا أصابته فتنة انقلب وقنط، حتى ظن أن الله لن ينصره. فيكون هذا الكلام متصلا بما قبله. ويدل على ذلك قوله قبل هذه الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾ [الحج: 14] أي الأمور بيد الله –جل وعلا–، فلا ينبغي لأحد أن يتسخط من قضاء الله تعالى، ولا ينقلب إذا أصابته فتنة.

والوجه الثاني: أن الضمير في (ينصره) –على هذا القول– يعود على ما تقدمه. وأما على القول الأول، فلا يعود على مذكور قبله. لأن النبي ﷺ لم يذكر قبل ذلك، بحيث يعود الضمير عليه، ولا يدل سياق الكلام عليه دلالة ظاهرة"[306].

(305) مجموع فتاوى ابن تيمية (15 / 270 - 275).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الآية: 18].

قلت: إن قيل كيف جعل كثيرا من الناس يسجدون له سبحانه، وكثيرا حق عليه العذاب؟

فالجواب: قال ابن جزي رحمه الله: "إن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لطاعة الله، فيكون (كثير من الناس) معطوفا على ما قبله من الأشياء التي تسجد، ويكون قوله: (وكثير حق عليه العذاب) مستأنفا يراد به من لا ينقاد للطاعة، ويوقف على قوله: (وكثير من الناس) وهذا القول هو الصحيح. وإن جعلنا السجود بمعنى الانقياد لقضاء الله وتدبيره، فلا يصح تفضيل الناس على ذلك إلى من يسجد ومن لا يسجد، لأن جميعهم يسجد بذلك المعنى"[307].

قال مقيده –عفا الله عنه–: الذي يظهر لي –والله أعلم– أن قوله تعالى: (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) دخل سجود الملائكة في قوله (من في السموات) لأنهم عمارها، و (من في الأرض) دخل سجود الملائكة الموكلون بالأرض ومن فيها، وسجود المؤمنين من الجن والإنس، ثم عطف سجود هؤلاء على سجود الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب. وهذا السجود هو سجود طاعة واختيار، لأن الله جل وعلا قد أخبرنا عن طواعية السماء والأرض بقوله: **﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾** [فصلت: 11]، وقال عن كل ما لا يعقل وعن الدواب والملائكة: **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** [النحل: 49، 50] فلا يدخل سجود الإنسان هنا مع الدواب، لأن الله تعالى عطفها على الملائكة، ووصف الجميع بكونهم لا يستكبرون. أما قوله تعالى: (وكثير من الناس) أي

=

(306) التسهيل لعلوم التنزيل 2 / 210 - 211.

(307) المصدر نفسه (2 / 212).

وكثير من الناس من يخضع لله تعالى خضوع قهر واضطرار، لا خضوع طاعة واختيار، وهم أنفسهم المستحقون للعذاب عند قوله: (وكثير حق عليه العذاب) وبهذا التفصيل يزول الإشكال.

فإن قيل: ألا يدخل المؤمن في خضوع القهر، بمعنى ألا يشمله قهر الربوبية، فلم قال: (وكثير من الناس) التي تدل بمفهومها أن القلة القليلة هي المؤمنة؟

فالجواب: إنما قال عن سجود القهر (وكثير من الناس) لأن المؤمنين دخلوا ضمن الساجدين طوعا واختيارا عند قوله: (ومن في الأرض) فالأحرى والأولى دخولهم في سجود القهر الذي لا يشذ عنه أحد، فسجود المؤمنين تضمن المعنيين، بخلاف سجود الكفار، فهو نوع واحد، وهو سجود القهر.

فإن قيل: إن صح هذا الفهم فلم قال: (وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب) فهلا قال: "وكثير من الناس حق عليه العذاب" من دون تكرار "كثير"؟ فالجواب -والله أعلم-: لإبلاغ الناس أن الكثرة الكثيرة منهم حق عليها العذاب، لأن (كثير) نكرة، و (الناس) معرفة، فيكون معنى الآية: "وكثير كثير من الناس حق عليه العذاب". كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ [الشرح: 5، 6] فتنكير اليسر جعل معنى الآية: فإن مع العسر يسرين.

كما قال الإمام أبو البقاء العكبري ﷺ: "(العسر): في الموضعين واحد، لأنّ الألف واللّام توجب تكرير الأوّل. وأمّا (يسرًا) في الموضعين فاثنان؛ لأنّ النّكرة إذا أريد تكريرها جيء بضميرها، أو بالألف واللّام، ومن هنا قيل: "لن يغلب عسر يسرين"(308). والله أعلم.

وبعد بحثي في هذه الآية، وجدت قولا عند الزمخشري ﷺ يوافقه، يقول: "ويجوز أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب، فيعطف كثير على كثير، ثم يخبر عنهم بـ (حقّ عليهم العذاب)، كأنه قيل: وكثير وكثير من الناس حق عليهم العذاب"(309). والله أعلم.

---

(308) التبيان في إعراب القرآن (2 / 1293)، والقول لعمر ﷺ، الموطأ- رواية يحيى الليثي (2/ 446).
(309) الكشاف 3/ 149.

وقال الشيخ العلامة ابن عادل ﷺ[310]: "الخامس: أن يرتفع بالابتداء أيضًا ويبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف «كثير» على «كثير» ثم يخبر عنهم بـ (حقّ عليه العذاب)، ذكر ذلك الزمخشري كما تقدم. قال أبو حيان بعد أن حكى عن الزمخشري الوجهين الأخيرين قال: "وهذان التخريجان ضعيفان"، ولم يبين وجه ضعفهما. قال شهاب الدين: أما أولهما فلا شك في ضعفه إذ لا فائدة طائلة في الإخبار بذلك، وأما الثاني فقد يظهر، وذلك أن التكرير يفيد التكثير وهو قريب من قولهم: عندي ألف وألف، وقوله:

لـو عـدّ قـبر وقـبر كـنـت أكـرمهم[311]

قال مقيده –لطف الله به–: وقد لا تكون الكثرة هنا في مقابل القلة، كما في قوله تعالى: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا**﴾ [البقرة: 26]، وقد مر ذكره، والأرجح عندي هنا في هذه الآية ما ذكرته سابقا، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾ [الآية: 28].

قلت: إن قيل: لم قال هنا: (ويذكروا اسم الله في أيّامٍ معلوماتٍ)، ولم يقل: (ويذكروا الله)؟ كما في موضع آخر: ﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ**﴾ [البقرة: 203]؟

فالجواب: قال ابن جزي ﷺ: "وإنما قال: (اسم الله) لأن الذكر باللسان إنما يذكر لفظ الأسماء"[312].

قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [الآية: 47].

---

(310) ابن عادل هذا هو عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص، سراج الدين: صاحب التفسير الكبير "اللباب في علوم الكتاب" توفي بعد 880 هـ = الموافق1475 م) ينظر الأعلام للزركلي (5 / 58).

(311) اللباب في علوم الكتاب 14 / 45.

(312) التسهيل لعلوم التنزيل 2 / 216.

قلت: إن قيل: الوعد يقال في الخير، والوعيد يقال في الشر، فكيف قال هنا: (ولن يخلف الله وعده)، وهو في سياق الوعيد والإنذار؟

قال العلامة ابن جزي ﷺ: "قوله تعالى: (ولن يخلف الله وعده) إخبار يتضمن الوعيد بالعذاب، وسماه وعدا لأن المراد به مفهوم"[313].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الآية: 48].

إن قيل: كيف قال هنا: وكأين بالواو، وقال قبلها: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ بالفاء، وذكر هنا الإملاء، ولم يذكره في التي قبلها؟

فالجواب: قال العلامة ابن جزي ﷺ: "ذكر أولا القرى التي أهلكها بغير إملاء، وذكر هنا التي أهلكها بعد الإملاء. والإملاء هو الإمهال مع إرادة المعاقبة فيما بعد، وعطف هذه الجملة بالواو على الجمل المعطوفة قبلها بالواو. وقال في الأولى: (فكأين) لأنه بدل من قوله ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: 44]"[314].

وقال الإمام الرازي ﷺ: "إن قيل: فلم قال فيما قبل: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: 45] وقال ههنا: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ الأولى بالفاء، وهذه بالواو؟

قلنا: الأولى وقعت بدلًا عن قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو، أعني قوله: (ولن يخلف الله وعده وإنّ يومًا عند ربّك كألف سنةٍ ممّا تعدّون)"[315].

---

(313) المصدر نفسه (2 / 223).
(314) المصدر نفسه (2 / 223).
(315) مفاتيح الغيب (23 / 41).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: 60].

إن قيل: ما مناسبة هذين الوصفين للمعاقبة؟

قال العلامة ابن جزي رحمه الله: "الجواب من وجهين، أحدهما: أن في ذكر هذين الوصفين إشعار بأن العفو أفضل من العقوبة، فكأنه حض على العفو. والثاني: أن في ذكرهما إعلاما بعفو الله عن المعاقب حين عاقب ولم يأخذ بالعفو الذي هو أولى"(316).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية: 78].

إن قيل: لم يكن إبراهيم أبا للمسلمين كلهم؟

فالجواب: أنه كان أبا لرسول الله ﷺ، وكان أبا لأمته. لأن أمة الرسول في حكم أولاده، ولذلك قرىء في حرف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهم: "وأزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم". وأيضًا فإن قريشا وأكثر العرب من ذرية إبراهيم، وهم أكثر الأمة فاعتبرهم دون غيرهم.قاله العلامة ابن جزي رحمه الله(317).

قال مقيده: وقد صح في الدعاء المأثور عن عبدالرحمن بن أبي أبزى عن أبيه رضي الله عنه قال: "كان يعلمنا – أي النبي ﷺ–: «**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ**»(318).

(316) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 225).

(317) المصدر نفسه (2 / 229).

(318) رواه أحمد (24/ 79) برقم 15363، والطبراني والنسائي في الكبرى وابن السني وغيرهم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (6 / 488).

سورة المؤمنون

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [الآية: 4].

إن قيل: لم قال: (فاعلون) ولم يقل: مؤدون؟

فالجواب: أن الزكاة لها معنيان، أحدهما: الفعل الذي يفعله المزكي، أي أداء ما يجب على المال. والآخر: المقدار المخرج من المال. كقولك: "هذه زكاة مالي"، والمراد هنا: الفعل. لقوله: (فاعلون) ويصح المعنى الآخر على حذف تقديره: "هم لأداء الزكاة فاعلون". قاله العلامة ابن جزي في التسهيل(319).

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "والمراد بالفعل هنا الفعل المناسب لهذا المفعول وهو الإيتاء، فهو كقوله ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة: 55]، فلا حاجة إلى تقدير أداء الزكاة.

وإنما أوثر هنا الاسم الأعمّ وهو (فاعلون) لأن مادة (ف ع ل) مشتهرة في إسداء المعروف، واشتق منها الفعال بفتح الفاء، قال محمد بن بشير الخارجي:

إن تنفق المال أو تكلف مساعيه ... يشقق عليك وتفعل دون ما فعلا

وعلى هذا الاعتبار جاء ما نسب إلى أمية بن أبي الصلت:

المطعمون الطعام في السّنة الأز ... مة والفاعلون للزكوات

أنشده في «الكشاف». وفي نفسي من صحة نسبته تردد لأني أحسب استعمال الزكاة في معنى المال المبذول لوجه الله إلاّ من مصطلحات القرآن، فلعل البيت مما نحل من الشعر على ألسنة الشعراء. قال ابن قتيبة في كتاب "الشعر والشعراء": "وعلماؤنا لا يرون شعر أمية حجة على الكتاب"(320).

(319) التسهيل 230/2.
(320) التحرير والتنوير (18/ 12 - 13).

قال مقيده: وقد يكون معنى الزكاة هنا، زكاة النفس، ولذلك عبر عن أصحابها بأنهم: (فاعلون)، وقد جمع ابن كثير رحمه الله بين القولين فقال: "وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: 9، 10]، وكقوله: ﴿**وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾ [فصلت: 6، 7]، على أحد القولين في تفسيرها.

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم"[321].

وأما الشيخ محمد الشعراوي رحمه الله فقال: "وكما أمرنا ربنا -تبارك وتعالى- بالخشوع في الصلاة أمرنا كذلك في الزكاة، فلم يقل: مؤدون. ولكن: (فاعلون) وهذه من تربية مقامات العبادة في الإنسان، فأنت حين تصلي ينبغي أن تخشع وتخضع في صلاتك لله -سبحانه-، وكذلك حين تزكّي ترقّي ملكة الخير في نفسك، فحين تعمل وتسعى، لا تعمل على قدر حاجتك، وإنما على قدر طاقتك، فتأخذ من ثمرة سعيك حاجتك، وفي نيتك أن تخرج من الباقي زكاة مالك وصدقتك، فالزكاة - إذن- في بالك وفي نيتك بدايةً"[322].

قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ [الآية: 9].

إن قيل: كيف كرر ذكر الصلوات أولا وآخرا؟

قال العلامة ابن جزي رحمه الله: "إنه ليس بتكرار، لأنه قد ذكر أولا الخشوع فيها، وذكر هنا المحافظة عليها، فهما مختلفان. وأضاف الصلاة في الموضعين إليهم دلالة على ثبوت فعلهم لها"[323].

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ**﴾ [الآية: 12].

---

(321) تفسير ابن كثير (5 / 462).
(322) خواطر الشعراوي صفحة 2658.
(323) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 231).

إن قيل: ما الفرق بين "من" الأولى و"من" الثانية؟ فالجواب: الأوّل للابتداء، والثاني للبيان، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30] قاله الإمام الزمخشري ﷺ[324].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الآية: 76].

إن قيل: هلا قال: "فما استكانوا لربهم وما تضرعوا" أو "فما يستكينون لربهم وما يتضرعون" باتفاق الفعلين في الماضي أو في الاستقبال؟

قال العلامة ابن جزي ﷺ: "إن (ما استكانوا) عند العذاب الذي أصابهم. (وما يتضرعون) حتى يفتح عليهم باب عذاب شديد، فنفى الاستكانة فيما مضى، ونفى التضرع في الحال والاستقبال"[325].

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [الآيات: 84 – 89].

إن قيل: لم قال في الأول: (قل أفلا تذكّرون) ولم يقل: (قل فأنّى تسحرون)؟ الجواب: "رتب هذه التوبيخات الثلاثة بالتدريج، فقال أولا: (أفلا تذكرون) ثم قال ثانيا: (أفلا تتقون) وذلك أبلغ، لأن فيه زيادة تخويف،ثم قال ثالثا: (فأنى تسحرون) وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره". قاله العلامة ابن جزي ﷺ[326].

قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الآية: 91].

---

(324) الكشاف. 178/3.

(325) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 241).

(326) التسهيل لعلوم التنزيل 242/2.

إن قيل: "إذًا" لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، فكيف دخلت هنا ولم يتقدم قبلها شرط ولا سؤال سائل؟

الجواب: أن الشرط محذوف تقديره: "لو كان معه آلهة" وإنما حذف لدلالة قوله: (وما كان معه من إله) وهو جواب للكفار الذين وقع الرد عليهم. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله(327).

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الآيات: 93، 94].

قلت: فإن قيل لم كرر (رب)، علما أن قوله: (فلا تجعلني في القوم الظّالمين) جواب الشرط المتقدم؟

الجواب: "كرر قوله (رب) مبالغة في الدعاء والتضرع". قاله العلامة ابن جزي رحمه الله(328).

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [الآية: 99].

قلت: إن قيل كيف قال: (ربّ ارجعون) ولم يقل: رب ارجعني؟

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "ضمير الجمع في (ارجعون) تعظيم للمخاطب. والخطاب بصيغة الجمع لقصد التعظيم طريقة عربية، وهو يلزم صيغة التذكير فيقال في خطاب المرأة إذا قصد تعظيمها:

أنتم. ولا يقال: أنتن. قال العرجيّ:

فإن شئت حرّمت النّساء سواكم ... وإن شئت لم أطعم نقاخًا ولا بردا

فقال: سواكم، وقال جعفر بن علبة الحارثي من شعراء الحماسة:

فلا تحسبي أنّي تخشّعت بعدكم ... لشيءٍ ولا أنّي من الموت أفرق

(327) التسهيل (2 / 242) ومفاتيح الغيب (23 / 102).
(328) التسهيل (2 / 242).

فقال: بعدكم، وقد حصل لي هذا باستقراء كلامهم ولم أر من وقف عليه"[329].

وقيل: "إنه نادى ربه ثم خاطب الملائكة". ذكره العلامة ابن جزي رحمه الله[330].

قلت: هذا المعنى أرجح عندي من الأول، لأن الله تعالى أخبرنا أن الملائكة هي التي تتكلف بنزع الروح، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ [الأنفال: 50] وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ**﴾ [الأنعام: 61] وفي الحديث: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمْ الشَّمْسَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ**... (إلى قوله) **وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشِّعْبِ مِنْ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ**..». الحديث[331].

فعند معاينة الملائكة المكلفين بنزع الروح: (قال رب ارجعون)، فكأنه يقول مشفقا خائفا: "رب.. مر ملائكتك ليرجعوني إلى دار الدنيا لعلي أعمل صالحا فيما تركت". والله أعلم.

قال الإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره: "فأما قوله "ارجعون" وهو مخاطب ربه عز وجل ولم يقل: "ارجعني" جاء على تعظيم الذكر للمخاطب. وقيل: استغاثوا بالله عز وجل أولًا، فقال قائلهم: رب، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال: ارجعون إلى الدنيا، قاله ابن جريج. وقيل: إن معنى"ارجعون"على جهة التكرير، أي ارجعني ارجعني ارجعني وهكذا. قال المزني في قوله تعالى: ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ**﴾ [ق: 24] قال: معناه ألق ألق"[332].

---

(329) التحرير والتنوير (18 / 123) تفسير البحر المحيط (2 / 491) النقاخ: العذب، والبرد: النوم.

(330) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 243).

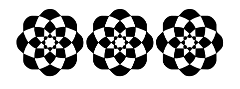
(331) رواه أحمد في مسنده (4/ 295) برقم 18637، وعبد الرزاق في مصنفه (3 / 580) والمستدرك على الصحيحين للحاكم (1 / 110).

(332) تفسير القرطبي 12 / 149.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الآية: 101].

إن قيل: كيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: 27]؟ فالجواب: أن ترك التساؤل -يكون- عند النفخة الأولى، ثم يتساءلون بعد ذلك، فإن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف كثيرة. قاله العلامة ابن جزي رَحِمَهُ اللَّهُ(333).

قلت: وقد أجاب عن هذا السؤال -كما سبق- حبر الأمة، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- بما لا يحتاج معه إلى مزيد، والله أعلى أعلم.



(333) التسهيل (2 / 244).

سورة النور

قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: 2].

إن قيل:ما الحكمة في تقديم ذكر الزانية على الزاني؟

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "قدّم ذكر الزّانية على الزّاني للاهتمام بالحكم لأنّ المرأة هي الباعث على زنى الرّجل وبمساعفتها الرّجل يحصل الزّنى، ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرّجل إلى الزّنى تمكينًا، فتقديم المرأة في الذّكر لأنّه أشدّ في تحذيرها"[334].

قال مقيده –عفا الله عنه–: وهذا أمر واضح في كون فتنة النساء أشد خطرا على الرجال، وأنهن بتبرجهن وسفورهن يستدرجن ذوي الألباب من الرجال إلا من عصمه الله تعالى، وقد وردت في ذلك أحاديث نبوية، منها ما جاء في الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ**»[335] وعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، وَإِنَّهَا إِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَإِنَّهَا لَا تَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ مِنْها فِي قَعْرِ بَيْتِهَا**»[336] وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب رضي الله عنها، فقضى حاجته وخرج وقال: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا**»[337].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وما تعيشه أمتنا من تبرج وعري انتشر انتشار النار في الهشيم، حتى صار كأنه الأصل، وأما الستر والحشمة والحجاب الشرعي فصار عند القوم مظهرًا من مظاهر التخلف

(334) التحرير والتنوير (18 / 146).

(335) **متفق عليه**: صحيح البخاري (5/ 1959) برقم 4808، صحيح مسلم (4/ 2097) برقم 2740.

(336) أخرجه الطبراني في "الأوسط"، وصححه الشيخ الألباني في "السلسلة الصحيحة" 6 / 424.

(337) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه والسيوطي في جامعه، وصححه الألباني ينظر حديث رقم: 1939 في صحيح الجامع.

والرجعية والظلامية، وهذا موضوع لو تتبعنا ذكر مصائبه، لخرج الكتاب عن موضوعه ومحوره، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: 11].

قلت: إن قيل: وأي خير هذا، وقد اتّهمت أمّنا عائشة رضي الله عنها بالزنا؟ فالجواب: "الخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين". قاله العلامة ابن جزي[338].

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [الآية: 12].

إن قيل: لم قال: (سمعتموه) بلفظ الخطاب، ثم عدل إلى لفظ الغيبة في قوله: (ظن المؤمنون) ولم يقل: "ظننتم"؟

فالجواب، قال العلامة ابن جزي رحمه الله: "إن ذلك التفات قصد به المبالغة والتصريح بالإيمان الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرا"[339].

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [الآية: 15].

قلت: إن قيل: إن الخبر الذي شاع، والإفك الذي قيل في عائشة رضي الله عنها، إنما تلقاه الناس بأسماعهم، ونقلوه فيما بينهم بألسنتهم، فكيف قال هنا: (إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم)؟

---

(338) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 251).
(339) المصدر نفسه (2 / 252).

الجواب: قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "إن قلت: ما معنى قوله: (بأفواهكم) والقول لا يكون إلا بالفم؟ قلت: معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، فيترجم عنه اللسان. وهذا الإفك ليس إلا قولا يجري على ألسنتكم، ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: 167]"[340].

وقال العلامة ابن جزي رحمه الله: "لأنه سبحانه أراد أن يعاتب الذين خاضوا في الإفك من غير تبين ولا تثبت. فإن الواجب كان الإغضاء عن ذكره، والترك له بالكلية. فعاتبهم على ثلاثة أشياء، وهي: تلقيه بالألسنة -أي السؤال عنه- وأخذه من المسؤل. والثاني: قولهم ذلك. والثالث: أنهم حسبوه هينا وهو عند الله عظيم. وفائدة قوله: (بألسنتكم) و (بأفواهكم) الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب، إذ كانوا لم يعلموا حقيقته بقلوبهم"[341].

وقال سيد قطب رحمه الله: "والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام واختلت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم، وضاعت فيها الأصول: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ، وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾ وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام:

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ) لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر. حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب! (وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ).. بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم. إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول، (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) أن تقذفوا عرض رسول الله، وأن تدعوا الألم في يعصر

(340) الكشاف (3 / 219)

(341) التسهيل (2 / 253)

قلبه وقلب زوجه وأهله وأن تلوثوا بيت الصديق الذي لم يرم في الجاهلية وأن تتهموا صحابيا مجاهدا في سبيل الله. وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه، ورعاية الله له.."[342].

قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [الآية: 31].

قلت: إن قيل كيف أفرد الطفل، وجمع الفعل، فهلا قال: أو الطفل الذي لم يظهر على عورات النساء؟

قال الإمام الرازي رحمه الله: "الطفل اسم للواحد لكنه وضع ههنا موضع الجمع، لأنه يفيد الجنس، ويبين ما بعده أنه يراد به الجمع. ونظيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5]"[343].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الآية: 35].

إن قيل: كيف يصح أن يقال: (الله نور السموات والأرض) فأخبر أنه هو النور، ثم أضاف النور إليه في قوله: (مثل نوره) والمضاف عين المضاف إليه؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "نظير قوله: (الله نور السّماوات والأرض) مع قوله: (مثل نوره) الآية، و (يهدي الله لنوره من يشاء) الآية، قولك: زيد كرم وجود، ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده. والمعنى: ذو نور السماوات، وصاحب نور السماوات، ونور السماوات والأرض الحق، شبهه بالنور في ظهوره وبيانه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]: أي من الباطل إلى الحق".[344]

---

(342) في ظلال القرآن (4/ 2502 - 2503).

(343) مفاتيح الغيب (23 / 182).

(344) تفسير الكشاف (3 / 240) ومفاتيح الغيب (23 / 195) والتسهيل لابن جزي 262/2.

قلت: من جعل الضمير يعود على الله ﷻ فالمعنى: مثل هداه سبحانه في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح..إلخ. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. ومن جعل الضمير يعود على المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام، فتقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه، كمشكاة[345].

واعلم – رحمك الله – أن هذه الآية زلت فيها أقلام، وضلت فيها أفهام، قديما وحديثا، فقيل عن "النور" الذي هو صفة من صفات الله تعالى ومنه اشتق اسمه جل وعلا: "يجب تأويله قطعًا؛ إذ النور كيفية قائمة بالجسمية وهو ضد الظلمة، وجل الحق سبحانه أن يكون له ضد؛ ولو كان نورا لم تجز إضافته إلى نفسه في قوله: (مثل نوره) فيكون من إضافة الشيء إلى نفسه وهو غير جائز[346].

وقد أوضح الإمام ابن القيم رحمه الله هذه الآية فقال: "الله سبحانه وتعالى سمى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا ورسوله ﷺ نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ.

قال الله تعالى: (الله نور السّموات والأرض مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح) الآية. وقد فسر قوله تعالى: (الله نور السموات والأرض) بكونه منوّر السموات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول: كقوله ﷻ: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ [الزمر: 69]، فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء، ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «**أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلّني لا**

(345) ينظر تفسير ابن كثير (6 / 58).

(346) ينظر للرد على هذه الشبهة مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (6 / 374).

إلـه إلاّ أنـت»[347]. وفي الأثـر الآخـر: «**أعـوذ بوجهـك -أو بنـور وجهـك- الّـذي أشـرقت لـه الظّلمات**»[348].

فأخبر ﷺ: أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله. كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنّة له، وكتاب عثمان الدارمي وغيرها، عن ابن مسعود ﷺ قال: «**ليس عند ربكم ليل ولا نهار. نور السموات والأرض من نور وجهه**»[349].

وهذا الذي قاله ابن مسعود ﷺ أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السموات والأرض، وأما من فسرها بأنه منوّر السموات والأرض، فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها"[350].

قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [الآية: 55].

إن قيل: أين القسم الذي جاء قوله: (ليستخلفنهم) جوابًا له؟

فالجواب: قال الإمام الزمخشري ﷺ: "هو محذوف تقديره: وعدهم الله، وأقسم ليستخلفنهم. أو نزّل وعد الله في تحققه منزلة القسم، فتلقى بما يتلقى به القسم، كأنه قيل: أقسم الله ليستخلفنهم. فإن قلت: ما محل (يعبدونني)؟

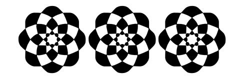
(347) هذا اللفظ لا يصح، والصحيح المتفق عليه هو قوله ﷺ: "أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني" الحديث.

(348) رواه الطبراني وضعفه الألباني في الجامع الصغير للسيوطي (8 / 54).

(349) المعجم الكبير للطبراني (8/ 95) برقم 8794.

(350) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص: 45.

قلت -القائل الزمخشري-: "إن جعلته استئنافًا لم يكن له محل، كأن قائلا قال: ما لهم يستخلفون ويؤمنون؟ فقال: (يعبدونني)، وإن جعلته حالا عن وعدهم، أي وعدهم الله ذلك في حال عبادتهم وإخلاصهم، فمحله النصب"[351].



(351) تفسير الكشاف (3 / 251 - 252).

سورة الفرقان

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الآية: 6].

إن قيل: ما مناسبة قوله: (إنه كان غفورًا رحيمًا) لما قبله؟

فالجواب: أنه لما ذكر أقوال الكفار، أعقبها بذلك لبيان أنه: (غفور رحيم) في كونه لم يعجل عليهم بالعقوبة، بل أمهلهم. وإن أسلموا تاب عليهم وغفر لهم. قاله العلامة ابن جزي(352).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الآية: 13].

قلت: إن قيل: كيف جعل الإلقاء يتعدى بمن، والأصل أن يتعدى بـ "في". كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الملك: 8] وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: 7]؟

فالجواب -والله أعلم- من وجهين: إما أن "من" هنا بمعنى "في" أي: (وإذا ألقوا فيها..) كقوله تعالى: (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها). وهذا مشهور في لسان العرب، كقول الأعشى:

ولست بالأكثر منهم حصًى ... وإنما العزة للكاثر

أي ولست بالأكثر فيهم. وكذلك قيل في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9] أن (من) هنا بمعنى (في)(353).

والوجه الثاني: أن أهل النار يلقون من مكان إلى مكان، وهم داخل النار، فينتقلون من عذاب إلى عذاب أشد، كما قال ابن كثير رحمه الله: "وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 17] أي: وله

(352) التسهيل بعلوم التنزيل (2 / 275).

(353) قاله القرطبي في تفسيره 97/18وكذلك البغوي 83/5 وغيرهما.

من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ**﴾ [الصافات: 64 – 68]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى الجحيم، عياذا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿**هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**﴾ [الرحمن: 43، 44]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (49) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ**﴾ [الدخان: 43 – 50]، وقال: ﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ**﴾ [الواقعة: 41 – 44]، وقال تعالى: ﴿**هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**﴾ [ص: 55 – 58]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله، ﷻ، جزاءً وفاقًا، ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت: 46]"[354].

ومن ثم قال سبحانه هنا: (وإذا ألقوا منها) أي وهم فيها، فيلقون إلى مكان أضيق وأشد عذابا مما كانوا فيه. كما قال عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: "مثل الزج في الرمح " أي: من ضيقه". والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا**﴾ [الآيات: 27، 28].

(354) تفسير القرآن العظيم (4 / 486).

قلت: الظالم في الآية هو عقبة بن أبي معيط، و (فلانا) هو أبي بن خلف -وقيل أمية بن خلف-، فإن قيل: لم لم يذكرهما بأسمائهما؟

فالجواب -والله أعلم-: ليدخل في العتاب والصورة المخزية كل من أعرض عن دين النبي ﷺ واتبع غيره، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ولو أنه قال: "ويوم يعض عقبة بن أبي معيط على يديه ويقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتا ليتني لم أتخذ أبي بن خلف خليلا"، لظن البعض أن هذا خاص بهما. ولذلك -والله أعلم- لم يذكرهما بالاسم العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ [الآية: 51].

قلت: إن قيل فهل معنى الآية أن الله تعالى لم يبعث في كل قرية نذيرا، فكيف قال في موضع آخر: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ [الشعراء: 208].

فالجواب: أن قوله تعالى: (ولو شئنا لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرًا) معناه: ولو شئنا لخففنا عنك أعباء نذارة جميع القرى، (ولبعثنا في كلّ قريةٍ) نبيا ينذرها. وإنما قصرنا الأمر عليك وعظمناك به، وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالتشدد والتصبر ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الفرقان: 52] فيما يريدونك عليه، وإنما أراد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم. قاله الإمام الزمخشري[355].

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الآية: 63].

قلت: إن قيل ما الفائدة من ذكر الأرض، ومعلوم أن المشي يكون عليها؟ الجواب: عبر بالمشي على الأرض عن جميع تصرفهم مدة حياتهم. قاله العلامة ابن جزي[356].

---

(355) تفسير الكشاف (3 / 286).

(356) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 287).

قال مقيده: عبر بالمشي على الأرض، لأن المشي قد يراد به غير المشي الحسي المتبادر إلى الأذهان، كقوله تعالى ﴿**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك: 22] فالمشي هنا استعارة في سلوك الكافر طريق الشر، وسلوك المؤمن طريق الخير. وكما يقول القائل: "هذا الذي مشى عليه جمهور العلماء" أي: هذا ما ذهب إليه واتخذه جمهور العلماء. ولا يقصد بهذا أن المدح – في الآية– منحصر فيمن يمشي على الأرض هونا، وإنما يجب أن يكون الظاهر عنوان الباطن، وكما قال الإمام القرطبي في تفسيره: "قال ابن عطية: ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هونا مناسبة لمشيه، فيرجع القول إلى نحو ما بيناه. وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل، لأنه رب ماش هونا رويدا وهو ذئب أطلس[357]. وقد كان رسول الله ﷺ يتكفأ في مشيه كأنما ينحط من صبب[358]. وهو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصدر في هذه الأمة. وقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : «**من مشى منكم في طمع فليمش رويدا**»[359]. إنما أراد في عقد نفسه، ولم يرد المشي وحده. ألا ترى أن المبطلين المتحلين بالدين، تمسكوا بصورة المشي فقط، حتى قال فيهم الشاعر ذما لهم:

كلهم يمشى رويد   كلهم يطلب صيد   غير عمرو بن عبيد.

قلت –القائل القرطبي–: وفي عكسه أنشد ابن العربي لنفسه:

تواضعت في العلياء والأصل كابر   وحزت قصاب السبق بالهون في الأمر

سكون فلا خبث السريرة أصله   وجل سكون الناس من عظم الكبر[360]

قوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا**﴾ [الآية: 61].

---

(357) ذئب أطلس وهو الذي في لونه غبرة إلى السّواد. وكلّ ما كان على لونه فهو أطلس. ينظر "ط ل س" في مختار الصحاح.

(358) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، ورواه أحمد والبيهقي في دلائل النبوة وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي. وفي حديث آخر السلسلة الصحيحة (5 / 139) "كان يمشي مشيا يعرف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسلان".

(359) قلت الحديث ضعيف جدا، ينظر صحيح وضعيف الجامع الصغير (18 / 21) ينظر حديث رقم: 3939 في ضعيف الجامع.

(360) تفسير القرطبي (13 / 69).

قلت: إن قيل: لم جاءت (سرجا) هنا بحذف الألف في الرسم القرآني، وجاءت في آيتين بثبوت الألف، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: 16] وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: 13]؟

الجواب -والله أعلم-: أثبتت ألف (سراجا) في سورة نوح والنبأ، لأن الحق سبحانه أراد أن يلفت أنظارنا هنا إلى نعمة الشمس التي نراها دون الشموس الأخرى الغائبة عن أنظارنا، وأما التي ذكرت في الفرقان، فهي على قراءتين: قراءة الجمهور (سراجا)، وقراءة الكسائي وحمزة على الجمع (سرجا) ولذلك حذفت الألف في هذه، وأثبتت في الآيتين الأخرايتين. والمعنى على هذه القراءة: النجوم العظام الوقادة. قال الزجاج في تأويل قراءة حمزة والكسائي: أراد الشمس والكواكب.

هذا، وقد ثبت في عصرنا أن هناك شموسا لا شمسا واحدة، وهذا من الإعجاز العلمي. يقول صاحب الظلال ﷺ: "وهذه الشمس واحدة من مائة مليون في المجرة الواحدة التي تتبعها شمسنا، والتي تؤلف دنيانا القريبة! وفي الكون مجرات أخرى كثيرة. أو دنييات كدنيانا القريبة. عد الفلكيون حتى اليوم منها مائة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة. وهم في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد. وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبع مائة ألف سنة ضوئية (السنة الضوئية تقدر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال!).. وهناك كتل ضخمة من السدم التي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس. وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة! تلك الشموس التي لا يحصيها العد. لكل منها فلك تجري فيه. ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس.. وكلها تجري وتدور في دقة وفي دأب. لا تتوقف لحظة ولا تضطرب. وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الوسيع.."[361].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الآية: 74].

---

(361) في ظلال القرآن (5 / 2978).

إن قيل: كيف عدلوا من الجمع إلى المفرد، فقالوا: (واجعلنا للمتقين إماما) ولم يقولوا: "واجعلنا للمتقين أئمة "؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "اكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس، كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا**﴾ [غافر: 67] أو أرادوا: اجعل كل واحد منا إماما. أو أراد جمع آمّ، كصائم وصيام. أو أرادوا اجعلنا إماما واحدا لا تحادنا واتفاق كلتنا"[362].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "وحد سبحانه لفظ: (إماما) ولم يقل: "واجعلنا للمتقين أئمة"، فقيل: الإمام في الآية جمع آم نحو صاحب وصحاب، وهذا قول الأخفش وفيه بعد وليس هو من اللغة المشهورة المستعملة المعروفة حتى يفسر بها كلام الله.

وقال آخرون: الإمام هنا مصدر لا اسم، يقال: أم إماما، نحو صام صياما وقام قياما أي: اجعلنا ذوي إمام. وهذا أضعف من الذي قبله

وقال الفراء: إنما قال إماما ولم يقل أئمة، على نحو قوله: (إنا رسول رب العالمين) ولم يقل: "رسولا"،وهو من الواحد المراد به الجمع، لقول الشاعر:

يا عاذلاتي لا تردن ملامتي ... إن العواذل ليس لي بأمير

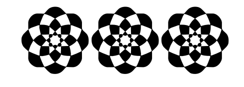
أي ليس لي بأمراء.

وهذا أحسن الأقوال، غير أنه يحتاج إلى مزيد بيان، وهو أن المتقين كلهم على طريق واحد، ومعبودهم واحد، وأتباع كتاب واحد، ونبي واحد، وعبيد رب واحد، فدينهم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد،

---

(362) تفسير الكشاف (3 / 296).

ومعبودهم واحد، فكأنهم كلهم إمام واحد لمن بعدهم، ليسوا كالأئمة المختلفين الذين قد اختلفت طرائقهم ومذاهبهم وعقائدهم، فالائتمام إنما هو بما هم عليه، وهو شيء واحد وهو الإمام في الحقيقة"[363].



(363) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: ص 13 إلى 15.

سورة الشعراء

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآية: 16].

قال الإمام ابن جزي ﷺ: "إن قيل: لم أفرده –أي رسول– وهما اثنان؟ فالجواب: من ثلاثة أوجه، الأول: أن التقدير كل واحد منا رسول. الثاني: أنهما جعلا كشخص واحد لاتفاقهما في الشريعة، ولأنهما أخوان فكأنهما واحد. الثالث: أن رسول –هنا– مصدر وصف به، فلذلك أطلق على الواحد والاثنين والجماعة، فإنه يقال: رسول بمعنى رسالة، بخلاف قوله: إنا رسولا، فإنه بمعنى الرسل"[364].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الآيات: 23 – 28].

إن قيل: كيف قال أولا: (إن كنتم موقنين) ثم قال آخرا (إن كنتم تعقلون)؟ فالجواب: أنه لاين أولا طمعا في إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: (إن كنتم تعقلون) وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون: (إن رسولكم لمجنون)[365].

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الآيات: 69 – 71].

إن قيل: لم صرحوا بقولهم (نعبد) مع أن السؤال وهو قوله: (ما تعبدون) يغني عن التصريح بذلك، وقياس مثل هذا الاستغناء بدلالة السؤال كقوله: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: 30]؟

---

(364) التسهيل 291/2.

(365) المصدر نفسه (2 / 293).

فالجواب: أنهم صرحوا بذلك على وجه الافتخار والابتهاج بعبادة الأصنام، ثم زادوا قولهم (فنظل لها عاكفين) مبالغة في ذلك[366].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الآيات: 100، 101].

قال الإمام الزمخشري في الكشاف: "فإن قلت: لم جمع الشافع ووحد الصديق؟

قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق. ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظا لم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته، رحمة له وحسبة، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة. وأما الصديق – وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك – فأعز من بيض الأنوق[367]. وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له"[368].

قال مقيده: ومثله عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: 61] فلم يقل: أو أصدقائكم، بخلاف ما تقدم ذكره، فإنه ذكر بصيغة الجمع. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: 105].

---

(366) المصدر نفسه (2 / 294).

(367) يقال في المثل: "أعزّ من بيض الأنوق" لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة. (ينظر لسان العرب 10 / 9).

(368) الكشاف 322/3 - 323.

إن قيل: كيف أنث قوم، فهلا قال: كذب قوم نوح المرسلين؟ الجواب: أسند الفعل إلى القوم وفيه علامة التأنيث، لأن القوم في معنى الجماعة والأمة. فإن قيل كيف قال: المرسلين بالجمع وإنما كذبوا نوحا وحده؟ فالجواب: من وجهين، أحدهما: أنه أراد الجنس كقولك: "فلان يركب الخيل"، وإنما لم يركب إلا فرسا واحدا. والآخر: أن من كذب نبيا واحدا فقد كذب جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأن قولهم واحد ودعوتهم سواء، وكذلك الجواب في كذبت عاد المرسلين وغيره[369].

قوله تعالى: ﴿**أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ**﴾ [الآيات: 146 – 148].

إن قيل: لم ذكر النخل بعد ذكر الجنات، والجنات تحتوي على النخل؟ فالجواب: أن ذلك تجريد كقوله: ﴿**فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ**﴾ [الرحمن: 68] ويحتمل أنه أراد الجنات التي ليس فيها نخل، ثم عطف عليها النخل[370].

قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [الآية: 177].

إن قيل: لم لم يقل هنا: "أخوهم شعيب"، كما قال في مواضع أخر مثل قوله: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف: 85]، وقوله سبحانه: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ**﴾ [هود: 84] وقوله تعالى: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [العنكبوت: 36]؟

فالجواب: " لم يقل هنا"أخوهم شعيب"، كما قال في قصة نوح وغيره، لأن مدين هم أصحاب الأيكة إلا أنه سبحانه حيث أخبر عن مدين قال: (أخاهم شعيبا) وحيث أخبر عن الأيكة لم يقل: أخوهم. والحكمة

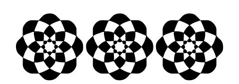
(369) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 295 – 296) التجريد معناه تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في عموم ما تقدم.

(370) المصدر نفسه (2 / 297).

فيه أنه لما عرفها بالنسب -وهو أخوهم في ذلك النسب- ذكره، ولما عرفهم بالأيكة -قبل التى أصابهم فيها العذاب- لم يقل أخوهم وأخرجه عنهم". قاله الإمام الزركشي[371].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الآية: 9].

إن قيل: ما الحكمة في تكرير قوله: (إن في ذلك لآية) مع كل قصة؟ فالجواب: أن ذلك أبلغ في الاعتبار وأشد تنبيها للقلوب، وأيضا فإن كل قصة منها كأنها كلام قائم مستقل بنفسه، فختمت بما ختمت به صاحبتها[372].



(371) ينظر البرهان للزركشي (1 / 161 - 162).

(372) التسهيل (2 / 298).

سورة النمل

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [الآية: 7].

إن قيل: كيف قال هنا: (سآتيكم) وفي موضعين آخرين (لعلي آتيكم) قال ﷻ: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: 10] وقال تعالى شأنه: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: 29] والفرق بين الترجي والتسويف، أن التسويف متيقن الوقوع بخلاف الترجي؟

أجاب الإمام الزمخشري فقال: "قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: "سأفعل كذا، وسيكون كذا" مع تجويزه الخيبة. فإن قلت: كيف جاء بسين التسويف؟ قلت: عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. فإن قلت: فلم جاء بـ (أو) دون الواو؟ قلت: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعًا لم يعدم واحدة منهما: إمّا هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بعادة اللّه أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعا، وهما العزّان: عز الدنيا، وعز الآخرة"[373].

وقال أبو جعفر الغرناطي ﷺ: "وأما قوله: (لعلّي آتيكم) في السورتين وقوله في النمل: (سآتيكم) فإن حرف التسويف يفهم الاستقبال، ولفظ (لعل) أيضًا يعطي ذلك مع زيادة الترجي والطمع، فيمكن لتقارب معنييهما أن يكون في لسانهم -لسان موسى وقومه وهو اللسان العبراني- العبارة موضوعة للمعنيين معًا، فلم يكن بد من ورود الحرفين عند الحكاية ليحرز ذلك وقوع المعنى وحصوله على ما هو في لسانهم"[374].

(373) الكشاف (3 / 349).
(374) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد (2 / 333).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [الآية: 10].

قلت: إن قيل الجان هي الحية الصغيرة السريعة الحركة، فكيف جاء وصفها في موضع آخر أنها ثعبان، كما في قوله جل وعلا: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 107] [الشعراء: 32].

الجواب: أنها جمعت الوصفين، فكانت في خفتها وفي سرعة حركتها كالجان، وكانت في عظم خلقها كالثعبان. قاله ابن المنير في حاشيته على تفسير الكشاف[375].

قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [الآية: 19].

قلت: إن قيل وما الدافع للتبسم من قولها؟ الجواب: تبسم لأحد أمرين: أحدهما سروره بما أعطاه الله، والآخر ثناء النملة عليه وعلى جنوده. فإن قولها: (وهم لا يشعرون) وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان. قاله ابن جزي[376].

قال العلامة ابن العربي ﷺ: "المسألة الثّالثة: قال علماؤنا: إن قيل: من أيّ شيءٍ ضحك سليمان؟ قلنا: فيه أقوال: أصحّها أنّه ضحك من نعمة الله عليه في تسخير الجيش وعظيم الطّاعة، حتّى لا يكون اعتداءً. ولذلك قال: (أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحًا ترضاه) وهو حقيقة الشّكر. والله أعلم"[377].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الآية: 49].

إن قيل: إن قولهم: (ما شهدنا مهلك أهله) يقتضي التبري من دم أهله دون التبري من دمه؟

---

(375) حاشية على تفسير الكشاف (3 / 130).
(376) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 304).
(377) أحكام القرآن (6 / 204- 205).

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "الجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنهم أرادوا ما شهدنا مهلكه ومهلك أهله، وحذف مهلكه، لدلالة قولهم (لنبيتنه وأهله).

والثاني: أن أهل الإنسان قد يراد به هو وهم، لقوله: (وأغرقنا آل فرعون) يعني فرعون وقومه.

الثالث: أنهم قالوا: (مهلك أهله) خاصة ليكونوا صادقين، فإنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معا، وأرادوا التعريض في كلامهم لئلا يكذبوا (وإنا لصادقون) يحتمل أن يكون قولهم (وإنا لصادقون) مغالطة، مع اعتقادهم أنهم كاذبون. ويحتمل أنهم قصدوا وجها من التعريض ليخرجوا به عن الكذب. وقد ذكرناه في الجواب الثالث (عن مهلك أهله) وهو أنهم قصدوا أن يقتلوا صالحا وأهله معا، ثم يقولون: (ما شهدنا مهلك أهله) وحدهم (وإنا لصادقون) في ذلك بل يعنون أنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معا وعلى ذلك حمله الزمخشري"[378].

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [الآية: 65].

إن قيل: كيف ذلك مع ما ظهر من إخبار الكهان والمنجمين وأشباههم بالأمور المغيبة؟

فالجواب: قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "إن إخبارهم بذلك عن ظن ضعيف أو عن وهم لا عن علم، وإنما اقتضت الآية نفي العلم. وقد قيل: إن الغيب في هذه الآية يراد به متى تقوم الساعة، لأن سبب نزولها أنهم سألوا عن ذلك. ولذلك قال: (وما يشعرون أيان يبعثون) فعلى هذا يندفع السؤال الأول.

(378) التسهيل لعلوم التنزيل 310/2 - 311.

والثاني: لأن علم الساعة انفرد به الله تعالى لقوله تعالى: (قل إنما علمها عند الله) ولقوله ﷺ: "في خمس لا يعلمها إلا الله"، ثم قرأ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: 34]"(379).

قلت: وقد صح في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: "سأل رسول الله ﷺ ناس عن الكهان؟ فقال ليس بشيء، فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثونا أحيانا بشيء فيكون حقا. فقال رسول الله ﷺ: «**تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ يَخْطَفُهَا مِنْ الْجِنِّيِّ فَيَقُرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**»(380).

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "فإن قيل: كيف قال إلا (الله) بالرفع على البدل، والبدل لا يصح إلا إذا كان الاستثناء متصلًا، ويكون ما بعد إلا من جنس ما قبلها، والله تعالى ليس ممن في السموات والأرض باتفاق. فإن القائلين بالجهة والمكان يقولون: إنه فوق السموات والأرض. والقائلين بنفي الجهة يقولون: إن الله تعالى ليس بهما ولا فوقهما ولا داخلا فيهما ولا خارجا عنهما. فهو على هذا استثناء منقطع، فكان يجب أن يكون منصوبًا؟

فالجواب من أربعة أوجه: الأول أن البدل هنا جاء على لغة بني تميم في البدل وإن كان منقطعا كقولهم: "ما في الدار أحد إلا حمار" بالرفع، والحمار ليس من الأحدين وهذا ضعيف، لأن القرآن أنزل بلغة الحجاز لا بلغة بني تميم.

والثاني أن الله في السموات والأرض بعلمه كما قال: (وهو معكم أينما كنتم) يعني بعلمه، فجاء البدل على هذا المعنى وهذا ضعيف لأن قوله: (في السموات والأرض) وقعت فيه لفظة (في) الظرفية الحقيقية، وهي في حق الله على هذا المعنى للظرفية المجازية، ولا يجوز استعمال لفظة واحدة في الحقيقة والمجاز في حالة واحدة عند المحققين.

(379) **متفق عليه**: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، صحيح البخاري (2/ 903) برقم 2421، صحيح مسلم (1/ 39) برقم 9.
(380) **متفق عليه**: صحيح البخاري (5/ 2173) برقم 5429، صحيح مسلم (4/ 1750) برقم 2228، واللفظ للبخاري.

الجواب الثالث أن قوله: (من في السموات والأرض) يراد به كل موجود فكأنه قال: "من في الوجود"، فيكون الاستثناء على هذا متصلا، فيصح الرفع على البدل. وإنما قال: (من في السموات والأرض) جريا على منهاج كلام العرب، فهو لفظ خاص يراد به ما هو أعم منه.

الجواب الرابع: أن يكون الاستثناء متصلا على أن يتأول من في السموات في حق الله، كما يتأول قوله: (ءأمنتم من في السماء) وحديث الجارية[381]، وشبه ذلك."ا.هـ[382]

قلت: الجواب الرابع هو الصواب -إن شاء الله- وأما من الناحية الإعرابية، فرفع اسم الجلال على البدل. كما قال الإمام أبو البقاء العكبري:

"قوله تعالى: (من في السّموات): فاعل يعلم، و«الغيب»: مفعوله و«إلّا الله»: بدل من «من» ومعناه: لا يعلم أحد. وقيل: «إلّا»: بمعنى غير، وهي صفة لمن"[383].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام نفيس في هذه الآية، حيث يقول: "وقد قال تعالى: (قل لا يعلم من في السّموات والأرض الغيب إلّا اللّه) فاستثنى نفسه والعالم "من في السّموات والأرض" ولا يجوز أن يقال هذا استثناء منقطع لأنّ المستثنى مرفوع ولو كان منقطعًا لكان منصوبًا. والمرفوع على البدل والعامل فيه هو العامل في المبدل منه وهو بمنزلة المفرّغ كأنّه قال "لا يعلم الغيب إلّا الله". فيلزم أنّه داخل في (من في السّموات والأرض). وقد قدّمنا أنّ لفظ "السّماء" يتناول كلّ ما سما ويدخل فيه السّموات والكرسيّ والعرش وما فوق ذلك. لأنّ هذا في جانب النّفي وهو لم يقل هنا: "السّموات السّبع" بل عمّ بلفظ "السّموات".

(381) حديث الجارية المراد به ما رواه مسلم في صحيحه من حديث معاوية بن الحكم السلمي ﷺ، وهو حديث طويل، وفيه أنه قال: "وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: ائتني بها فأتيته بها فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء. قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة". والحديث من حجج أهل السنة القائلين إن الله في السماء، خلافا لأهل البدع المنكرين لذلك.

(382) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 314 -313).

(383) التبيان في إعراب القرآن (2 / 1012).

وإذا كان لفظ "السّماء" قد يراد به السّحاب ويراد به الفلك ويراد به ما فوق العا لم ويراد به العلوّ مطلقًا ف "السّموات" جمع "سماءٍ"، وكلّ من فيما يسمّى "سماءً" وكلّ من فيما يسمّى "أرضًا" لا يعلم الغيب إلّا الله. وهو سبحانه قال: (قل لا يعلم من) ولم يقل: "ما" فإنّه لما اجتمع ما يعقل وما لا يعقل غلب ما يعقل وعبّر عنه بـ "من" لتكون أبلغ، فإنّهم مع كونهم من أهل العلم والمعرفة لا يعلم أحد منهم الغيب إلّا الله. وهذا هو الغيب المطلق عن [جميع المخلوقين] الّذي قال فيه: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 26]"[384].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [الآية: 87].

قال الإمام الطبري في تفسيره: "فإن قال قائل: وكيف قيل: (ففزع)، فجعل فزع وهي فعل مردودة على ينفخ، وهي يفعل؟ قيل: العرب تفعل ذلك في المواضع التي تصلح فيها إذا، لأن "إذا" يصلح معها فعل ويفعل، كقولك: أزورك إذا زرتني، وأزورك إذا تزورني، فإذا وضع مكان إذا يوم أجرى مجرى إذا. فإن قيل: فأين جواب قوله: (ويوم ينفخ في الصّور ففزع)؟ قيل: جائز أن يكون مضمرا مع الواو، كأنه قيل: ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون، وذلك يوم ينفخ في الصور. وجائز أن يكون متروكا اكتفي بدلالة الكلام عليه منه، كما قيل: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: 165] فترك جوابه"[385].

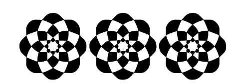
وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: لم قيل ففزع دون فيفزع؟ قلت: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة، واقع على أهل الس ماوات والأرض، لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به"[386].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الآية: 91].

(384) مجموع الفتاوى 16/ 109 - 110.
(385) تفسير الطبري 19 / 504.
(386) الكشاف (3 / 386).

قلت: إن قيل كيف نسب تحريم مكة -هنا- إلى الله تعالى، وفي الصحيحين نسب التحريم إلى إبراهيم ﵇، فعن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا**»(387)؟

الجواب: نسب تحريمها هنا إلى الله لأنه بسبب قضائه وأمره، ونسبه النبي ﷺ إلى إبراهيم ﵇ في قوله: "إن إبراهيم حرم مكة"، لأن إبراهيم هو الذي أعلم الناس بتحريمها، فليس بين الحديث والآية تعارض. وقد جاء في حديث آخر أن مكة حرمها الله يوم خلق السموات والأرض(388). قاله العلامة ابن جزي(389).



(387) رواه الإمام مالك في موطئه، **والشيخان**، صحيح البخاري (3/ 1232) برقم 3187، ومسلم (2/ 993) برقم 1365.
(388) رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وغيرهما.
(389) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 315).

سورة القصص

قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الآيات: 15، 16].

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "فإن قلت: لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلما لنفسه واستغفر منه؟ قلت: لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل، فكان ذنبا يستغفر منه"(390).

قلت: وقد صح في حديث الشفاعة: «..**فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي**..» الحديث(391).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [الآية: 71].

إن قيل: كيف قال: (يأتيكم بضياء) وهلا قال (يأتيكم بنهار) في مقابل قوله: (يأتيكم بليل)؟

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل: (بليلٍ تسكنون فيه)؟ قلت ذكر الضياء وهو ضوء الشمس، لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثمة قرن بالضياء (أفلا تسمعون) لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل (أفلا تبصرون) لأنّ غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره"(392).

(390) الكشاف (3 / 398).

(391) **متفق عليه**: من حديث أبي هريرة ﷺ، صحيح البخاري (4/ 1745) برقم 4435، صحيح مسلم (1/ 184) برقم 194.

(392) الكشاف (5 / 171).

قلت: فإن قيل لم قال في آية الليل: (أفلا تسمعون) وقال في آية: (أفلا تبصرون)؟ الجواب:

قال الإمام الزركشي: "لما كان سبحانه هو الجاعل الأشياء على الحقيقة، وأضاف إلى نفسه: (جعل الليل سرمدا)، ولم يقل إلى يوم القيامة. صار الليل كأنه سرمد بهذا التقدير، وظرف الليل ظرف مظلم لا ينفذ فيه البصر، لا سيما وقد أضاف الإتيان بالضياء الذى تنفذ فيه الأبصار إلى غيره، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة. فصار النهار كأنه معدوم، إذ نسب وجوده إلى غير موجد، والليل كأنه لا موجود سواه، إذ جعل سرمدا منسوبا إليه سبحانه، فاقتضت البلاغة أن يقول: (أفلا تسمعون) لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع ولا يصلح للإبصار، وكذلك قال في الآية التى تليها: (قل أريتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) لأنه لما أضاف جعل النهار سرمدا إليه، صار النهار كأنه سرمد، وهو ظرف مضئ تنور فيه الأبصار، وأضاف الإتيان بالليل إلى غيره، وغيره ليس بفاعل على الحقيقة، فصار الليل كأنه معدوم إذ نسب وجوده إلى غير موجد،والنهار كأنه لا موجود سواه، إذ جعل وجوده سرمدا منسوبا إليه، فاقتضت البلاغة أن يقول: (أفلا تبصرون) إذ الظرف مضيء صالح للإبصار، وهذا من دقيق المناسبة المعنوية"[393].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الآية: 78].

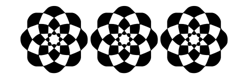
قلت: إن قيل: كيف نفى السؤال هنا، وأثبته في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 92]؟

الجواب: قال الإمام ابن جزي: "في معناه قولان، أحدهما: لا يسأل المجرمون عن ذنوب من تقدمهم من الأمم الهالكة، لأن كل أحد إنما يسأل عن ذنوبه خاصة. والثاني أنه إخبار عن حال المجرمين في الآخرة، وأنهم لا يسألون عن ذنوبهم، لكونهم يدخلون النار من غير حساب. والصحيح: أنهم يحاسبون على ذنوبهم، ويسئلون عنها لقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92، 93] وأن هذا السؤال المنفي، السؤال على وجه الاختبار وطلب التعريف، لأنه لا يحتاج إلى سؤالهم على هذا الوجه،

---

(393) البرهان (1 / 82).

لكن يسألون على وجه التوبيخ، وحيثما ورد في القرآن إثبات السؤال في الآخرة، فهو على معنى المحاسبة والتوبيخ. وحيثما ورد نفيه فهو على وجه الاستخبار والتعريف ومنه قوله تعالى: ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ**﴾ [الرحمن: 39]"[394].



(394) التسهيل (2/ 331 - 330).

سورة العنكبوت

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية: 8].

قلت: إن قيل كيف قال هنا: "لتشرك بي" وقال في لقمان: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]؟

فالجواب: أن الآيات العشرمن أول سورة العنكبوت نزلت بالمدينة، ولم يعد هناك استعلاء الكفار على المؤمنين، وكان سبب نزولها هو سعد بن مالك ﵁، ومن ثم أتى بلفظ: (لتشرك بي)، وأما التي في سورة لقمان فهي عامة في كل من تعرض للأذى من طرف والديه، وهو ما زال في مكة تحت قهر الكفار وجبروتهم، ومن ثم جاء بلفظ (على) الدال على الاستعلاء. والله أعلم.

وقال العلامة ابن عاشور ﵀: "فأما حرف"على"فهو أدلّ على تمكّن المجاهدة، أي مجاهدة قويّة للإشراك، والمجاهدة: شدّة السّعي والإلحاح. والمعنى: إن ألحّا وبالغا في دعوتك إلى الإشراك بي فلا تطعهما. وهذا تأكيد للنّهي عن الإصغاء إليهما إذا دعوا إلى الإشراك.

وأمّا آية العنكبوت فجيء فيها بلام العلّة لظهور أنّ سعدًا كان غنيًّا عن تأكيد النّهي عن طاعة أمّه لقوّة إيمانه"[395].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [الآية: 14].

إن قيل: لم قال ألف سنة ثم قال إلا خمسين عاما، فاختلف اللفظ مع اتفاق المعنى؟

(395) التحرير والتنوير (21 / 160).

فالجواب: أن ذلك كراهة لتكرار لفظ السنة، فإن التكرار مكروه إلا إذا قصد به تفخيم أو تهويل. قاله العلامة ابن جزي[396].

قلت: فإن قيل هلا قال: فلبث فيهم خمسين سنة وتسعمائة، أو خمسين وتسعمائة عام؟ فالجواب:

قال الراغب: "الغالب استعمال السنة في الحول الذي فيه الشدة والجدب، ولهذا يعبر عن الجدب بالسنة، والعام ما فيه الرخاء والخصب، وبهذا تظهر النكتة في قوله (ألف سنة إلا خمسين عامًا) حيث عبر عن المستثنى بالعام، وعن المستثنى منه بالسنة"[397].

قال الإمام السيوطي: "لوقيل: (فلبث فيهم تسعمائة وخمسين عامًا) لم يكن فيه من التهويل ما في الأول، لأن لفظ الألف من الأول، أول ما يطرق السمع، فيشتغل بها عن سماع بقية الكلام، وإذا جاء الاستثناء لم يبق له بعدها ما تقدمه وقع يزيل ما حصل عنده من ذكر الألف"[398].

وقال الإمام الزركشي: "فإن في الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تهويلا على السامع، ليشهد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه، وحكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة تعظيم للمدة، ليكون أول ما يباشر السمع ذكر الألف واختصار اللفظ. فإن لفظ القرآن أحصر من تسعمائة وخمسين عاما، ولأن لفظ القرآن يفيد حصر العدد المذكور، ولا يحتمل الزيادة عليه ولا النقص"[399].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الآية: 17].

---

(396) التسهيل (2 / 334).

(397) الإتقان (1 / 573).

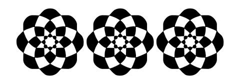
(398) المصدر نفسه (2/ 238).

(399) البرهان (3 / 49).

إن قيل: لم نكّر الرزق أولا ثم عرّفه في قوله: (فابتغوا عند الله الرزق)؟ فالجواب: أنه نكّره في قوله: (لا يملكون لكم رزقا) لقصد العموم في النفي، فإن النكرة في سياق النفي تقتضي العموم، ثم عرّفه بعد ذلك لقصد العموم في طلب الرزق كله من الله، لأنه لا يقتضي العموم في سياق الإثبات إلا مع التعريف، فكأنه قال: "ابتغوا الرزق كله عند الله"(400).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الآية: 48].

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "فإن قلت: ما فائدة قوله بيمينك؟ قلت: ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط، زيادة تصوير لما نفى عنه من كونه كاتبا. ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات: "رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه"، كان أشد لإثباتك أنه تولى كتابته؟"(401).



(400) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 334- 335).
(401) الكشاف (3 / 458).

سورة الروم

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الآية: 36].

قلت: إن قيل: كيف قال هنا في الرحمة: (وإذا أذقنا النّاس رحمةً فرحوا بها) وقال في الشر: (إن تصبهم سيئة)؟ فالجواب: لأن (إذا) للقطع بوقوع الشرط، بخلاف (إن) فإنها للشك في وقوعه، ففي ذلك إشارة إلى أن الخير الذي يصيب به عباده أكثر من الشر. قاله العلامة ابن جزي(402).

قلت: فإن قيل قد قال قبلها: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 33] فدخلت إذا على الجملة، وهي قطعا للوقوع؟

الجواب: أجل دخلت "إذا" هنا على: (مس الناس ضر) فهي قطعا للوقوع، لأن شيئا من الضر لابد أن يصيب الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155] ولكن استعمل في الضر فعل (مس) إشارة إلى تخفيف الضرر والتقليل والتهوين من شأنه، كما في قوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12] وقوله سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83] وأما عند ذكر الرحمة فإنه جل وعلا قال: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 33] فاستعمل فعل"أذاق"، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: 9، 10] وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

(402) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 346)

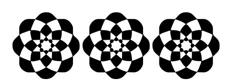
وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 49 - 51] فلم يقل: مستهم رحمة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الآية: 49].

قلت: فإن قيل لم قال: (من قبل)، ثم كررها بقوله: (من قبله). فهلا اكتفى بواحدة منهما؟

الجواب: أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ أن يكون هذا تكرارا، ورد عمن يزعم ذلك، ثم قال: "وأمّا قوله: (من قبل أن ينزّل عليهم من قبله) فليس من التّكرار بل تحته معنى دقيق والمعنى فيه: وإن كانوا من قبل أن ينزّل عليهم الودق من قبل هذا النّزول لمبلسين، فهنا قبليّتان: قبليّة لنزوله مطلقًا، وقبليّة لذلك النّزول المعيّن أن لا يكون متقدّمًا على ذلك الوقت، فيئسوا قبل نزوله يأسين: يأسًا لعدمه مرئيًّا ويأسًا لتأخّره عن وقته؛ فقبل الأولى ظرف اليأس، وقبل الثّانية ظرف المجيء والإنزال. ففي الآية ظرفان معمولان وفعلان مختلفان عاملان فيهما وهما: الإنزال والإبلاس، فأحد الظّرفين متعلّق بالإبلاس والثّاني متعلّق بالنّزول؛ وتمثيل هذا: أن تقول إذا كنت معتادًا للعطاء من شخصٍ، فتأخّر عن ذلك الوقت ثمّ أتاك به قد كنت آيسًا"(403).

وقال الإمام أبو البقاء العكبري: "قوله تعالى: (من قبله): قيل: هي تكرير ل-: (قبل الأولى، والأولى أن تكون الهاء فيها للسّحاب، أو للرّيح، أو للكسف. والمعنى: وإن كانوا من قبل نزول المطر من قبل السّحاب أو الرّيح؛ فتتعلّق «من» بـ: (ينزّل)"(404).



(403) مجموع الفتاوى 278/15 - 279.
(404) التبيان في إعراب القرآن (2 / 1042).

سورة لقمان

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الآية: 14].

قلت: إن قيل قوله تعالى: (أن اشكر) هو تفسير للوصية، فلم اعترض بينها وبين تفسيرها بقوله (حملته أمّه وهنًا على وهنٍ)؟

فالجواب: قال الإمام الزمخشري ﷺ: "لما وصى بالوالدين، ذكر ما تكابده الأمّ وتعانيه من المشاق والمتاعب في حمله وفصاله هذه المدّة المتطاولة، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصًا، وتذكيرًا بحقها العظيم مفردًا، ومن ثمّ قال رسول الله ﷺ لمن قال له: من أبر؟ «**أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أُمَّكَ**»ثم قال بعد ذلك «**ثُمَّ أَبَاكَ**»(405).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الآية: 27].

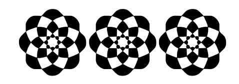
إن قيل: لم لم يقل: (والبحر مدادا) كما قال في الكهف: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف: 109]؟

فالجواب: أنه أغنى عن ذلك قوله: (يمده) لأنه من قولك: مد الدواة وأمدها. فإن قيل: لم قال: (من شجرة) ولم يقل: "من شجر" باسم الجنس الذي يقتضي العموم؟

(405) تفسير الكشاف (3 / 495) والتسهيل لعلوم التنزيل (2 / 350)، وأما الحديث فقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وأصله في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك قال ثم من قال ثم أمك قال ثم من قال ثم أمك قال ثم من قال ثم أبوك.

فالجواب: أنه أراد تفصيل الشجر إلى شجرة حتى لا يبقى منها واحدة. فإن قيل: لم قال: (كلمات الله) ولم يقل: "كلم الله" بجمع الكثرة؟

فالجواب: أن هذا أبلغ لأنه إذا لم تنفد الكلمات، مع أنه جمع قلة، فكيف ينفد الجمع الكثير[406].



(406) التسهيل (2 / 351).

سورة السجدة

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الآيات: 20، 21].

فإن قيل: لم وصف هنا العذاب وأعاد عليه الضمير، ووصف في"سبأ"النار وأعاد عليها الضمير، وقال: (عذاب النار التي كنتم بها تكذبون)؟

قال الإمام ابن جزي ﵀: "الجواب من ثلاثة أوجه: الأول: أنه خص العذاب في السجدة بالوصف اعتناء به لما تكرر ذكره في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21].

والثاني: أنه قدم في السجدة ذكر النار فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ الضمير، لكنه جعل الظاهر مكان المضمر، فكما لا يوصف المضمر لم يوصف ما قام مقامه، وهو النار. ووصف العذاب ولم يصف النار.

والثالث: وهو الأقوى أنه امتنع في "السجدة" وصف النار فوصف العذاب، وإنما امتنع وصفها لتقدم ذكرها. فإنك إذا ذكرت شيئا ثم كررت ذكره لم يجز وصفه، كقولك: "رأيت رجلا فأكرمت الرجل"، فلا يجوز وصفه لئلا يفهم أنه غيره"[407].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [الآية: 22].

قلت: إن قيل لم لم يقل: (إنا منهم منتقمون)، فيعود الضمير على من ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها؟

---

(407) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 354).

فالجواب: وضع المجرمين موضع المضمر ليصفهم بالإجرام، وقدم المجرور على منتقمون للمبالغة[408].

وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: هلا قيل: إنا منه منتقمون؟ قلت: لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة"[409].

وإن قيل: لم أتى هنا بعطف (ثم)، وفي الكهف بالفاء (فأعرض عنها)؟

فالجواب: أن الإنكار الوارد في"الكهف"المقصود منه مشركوا مكة، ولذلك ناسب فيه الإنكار بعطف الفاء، الدالة على الترتيب والتعقيب، وأما في"السجدة"فالمقصود كل من يعرض عن ذكر الله تعالى. ومن ثم عطف جملة (أعرض) بحرف ثم الدالة على التراخي استبعادا وتعجبا من حالهم.

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "(ثم) في قوله: (ثمّ أعرض عنها) للاستبعاد،...كما تقول لصاحبك: "وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها"، استبعادا لتركه الانتهاز. ومنه "ثم" في بيت الحماسة "لجعفر بن علبة الحارثيّ":

لا يكشف الغمّاء إلاّ ابن حرّةٍ   يَرَى غَمَرَاتِ المـوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا[410]

وقال الإمام أبو جعفر الغرناطي رحمه الله: للسائل أن يسأل عن ورود آية الكهف بفاء التعقيب: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [الكهف: 57] وآية السجدة بثم المقتضية المهلة: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**﴾؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: "أن سورة الكهف مكية، والخطاب فيها من أولها إلى الآية المتكلم فيها لم يخرج إلى غير العرب، أعني أنه لم يتعرض فيها إلى إخبار بحال غيرهم، إلا ما عرفوه من قصة أهل الكهف

(408) المصدر نفسه (2 / 354).

(409) تفسير الكشاف (3 / 515).

(410) المرجع السابق.

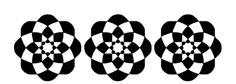
وخبرهم، وهو من سؤالات قريش بتنبيه يهود إياهم حسبما وقع في الحديث، فقوله في الآية المذكورة: (بآيات ربّه)، والمراد بالآيات: القرآن ودلائله الواضحة، وإن كان اللفظ مقتضيًا كل ما يسمى آية، إلا أن آية القرآن أعمد ما قصد هنا، ويشهد لذلك قوله ﷻ: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**﴾ [الكهف: 57]، وما تقدم الآية من قوله: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**﴾ [الكهف: 54] الآية من قوله: ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى**﴾ [الكهف: 55]، والمراد به القرآن، قال تعالى: ﴿**هَذَا هُدًى**﴾ [الجاثية: 11]، والحجة قائمة عليهم عقب سماعهم وتدبرهم، فورد بالفاء المقتضية التعقيب على ما يجب.

وأما آية السجدة، وإن كانت السورة مكية أيضًا، فإن الآية عامة في حق العرب وغيرهم، والإخبار فيها إنما هو عن جميع من شاهد آية بينة وكذب، ودليل هذا ما تقدمة مما هو على إطلاقه في العرب وغيرهم من قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ**﴾ [السجدة: 18]، هذا عام في المكلفين، ثم فصل حالهم فيما بعد، ثم قال معلمًا بحال الجميع على ما توره العرب عند التعجب، ليباعد بين الأحوال: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [السجدة: 22]، فالمراد بهذه الآيات كل ما قامت به الدلالة ووضح منه الشاهد، كناقة صالح، عليه السلام، وانفلاق صخرة عنها،... إلى آيات الكتاب العزيز المتلوة قرآنًا، إلى ما لا يحصى من آيات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فلما انطوت (الآيات) في قوله: (بآيات ربّه) من التعميم بحسب الشاهد مما اقترن بها على ما لا يتوقف فيه ذو عقل إلا أن يمنعه مانع من ذلك، عظم مرتكب المعرض فعطف بـ (ثم)، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [السجدة: 22] استبعادًا للتوقف عن الإيمان والتصديق عند مشاهدة ما لاغبار عليه من الدلائل، ولا إشكال فيه.

وجواب ثان، وهو أنه لما ذكر في آية الكهف إرسال الرسل، عليهم السلام، في قوله تعالى: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**﴾ [الكهف: 56]، فذكر إرسالهم وتكذيب قومهم إياهم، وإنما وقع تكذيب المكذبين عند دعاء الرسل إياهم معقبًا به دعاءهم، فجرى مع هذا وناسبه قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [الكهف: 57]،

لأنهم إنما أعرضوا عقب دعاء الرسل إياهم وعند جدالهم المذكور في قوله: ﴿**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**﴾ [الكهف: 56]، إنما ارتكبوا الجدال جوابًا للرسل ليدحضوا الحق بباطلهم، فالتعقيب هنا بين، فورد بالفاء.

وأما آية السجدة فلم يقع فيها ذكر إرسال الرسل، ولا جرى في الآية (ذكر تكذيب) ولا دعاء وإن كانت آيها عامة في العرب، وإنما ورد فيها انقسام المكلفين بحسب السوابق في إشارة قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ**﴾ [السجدة: 18]، ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، وأن الفاسقين مأواهم النار، وأن حالهم فيها كما ذكر تعالى: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا**﴾ [الحج: 22]، ولا شك أن استحقاق جزائهم بذلك إنما هو تماديهم على الكفر مدى حياتهم إلى الوفاة، ولم يقع هنا إشارة إلى مباشرتهم الرسل بالتكذيب، فلما لم يكن في الكلام ذكر مباشرة الرسل والمواجهة بالتكذيب، صار إعراضهم وتكذيبهم كأنه إنما علم وتحصل بذكر الجزاء، وإن كان المؤمنون قد علموا ذلك بالخبر الصادق، وأما بتأخر العلم به (للمكذب) حتى يباشر الجزاء -والجزاء متأخر- فناسب ذلك العطف بثم المقتضية للمهلة، فقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [السجدة: 22] فورد كل على ما يناسب، والله أعلم"[411].



(411) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد (2 / 320 -321 - 322).

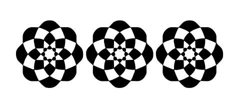
سورة الأحزاب

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63].

قلت: إن قيل كيف قال: (قريبا). والساعة مؤنث، والمعهود أن يكون التركيب: "لعل الساعة تكون قريبة"؟

أجاب العلامة ابن جزي رحمه الله بقوله: "إنما قال قريبا بالتذكير والساعات مؤنثة على تقدير شيئا قريبا أو زمانا قريبا، أو لأن تأنيثها غير حقيقي"(412).

وقال أبو عبيدة رحمه الله في مجاز القرآن: "(لعلّ السّاعة تكون قريبًا) مجازه مجاز الظرف هاهنا، ولو كان وصفًا للساعة، لكان قريبة. وإذا كان ظرفًا فإن لفظها في الواحد والاثنين والجميع من المذكر والمؤنث واحد بغير الهاء، وبغير تثنية، وبغير جمع"(413).



(412) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 380).

(413) مجاز القرآن (1 / 101) أبو عبيدة هذا هو الإمام العلامة البحر، أبو عبيدة، معمر بن المثنى التيمي، مولاهم البصري، النحوي، صاحب التصانيف. ولد في سنة عشر ومئة، في الليلة التي توفي فيها الحسن البصري... قارب مئة عام، أو كملها، فقيل: مات سنة تسع ومئتين، وقيل: مات سنة عشر.قال الذهبي: قد كان هذا المرء من بحور العلم، ومع ذلك فلم يكن بالماهر بكتاب الله، ولا العارف بسنة رسول الله ﷺ، ولا البصير بالفقه واختلاف أئمة الاجتهاد، بلى وكان معافى من معرفة حكمة الاوائل، والمنطق وأقسام الفلسفة، وله نظر في المعقول، ولم يقع لنا شيء من عوالي روايته. ينظر سير أعلام النبلاء (9 / 445- 447).

سورة سبأ

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23].

إن قيل: بم اتصل قوله: (حتّى إذا فزّع عن قلوبهم) ولأي شيء وقعت حتى غائية؟

فالجواب: "أنه اتصل بما فهم من الكلام، من أن ثم انتظارا للإذن وفزعا وتوقفا حتى يزول الفزع بالإذن في الشفاعة. ويقرب هذا في المعنى من قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبأ: 38] ولم يفهم بعض الناس اتصال هذه الآية بما قبلها فاضطربوا فيها حتى قال بعضهم: هي في الكفار بعد الموت، ومعنى (فزع عن قلوبهم) رأوا الحقيقة فقيل لهم: (ماذا قال ربكم فيقولون: (قال الحق) فيقرون حين لا ينفعهم الإقرار. والصحيح أنها في الملائكة، لورود ذلك في الحديث(414)، ولأن القصد الرد على الكفار الذين عبدوا الملائكة، فذكر شدة خوف الملائكة من الله وتعظيمهم له". قاله العلامة ابن جزي(415).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا..﴾ [الآية: 33].

---

(414) قال البخاري في صحيحه:حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا (فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا) للذي قال: (الحق وهو العلي الكبير) فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء".

(415) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 388).

إن قيل: لم أثبت الواو هنا، دون التي قبلها فقال: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [سبأ: 32]؟

فالجواب:قال العلامة ابن عاشور ﵀: "لم تجر حكاية هذا القول على طريقة حكاية المقاولات الّتي تحكى بدون عطفٍ على حسن الاستعمال في حكاية المقاولات كما استقريناه من استعمال الكتاب المجيد وقدّمناه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] الآية، فجيء بحرف العطف في حكاية هذه المقالة مع أنّ المستضعفين جاوبوا بها قول الّذين استكبروا ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾ [سبأ: 32] الآية لنكتةٍ دقيقةٍ، وهي التّنبيه على أنّ مقالة المستضعفين هذه هي في المعنى تكملة لمقالتهم المحكية بقوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 31] تنبيها على أن مقالتهم تلقّفها الّذين استكبروا فابتدروها بالجواب للوجه الّذي ذكرناه هنالك بحيث لو انتظروا تمام كلامهم وأبلعوهم ريقهم لحصل ما فيه إبطال كلامهم ولكنّهم قاطعوا كلامهم من فرط الجزع أن يؤاخذوا بما يقوله المستضعفون"[416].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الآية: 62].

قلت: إن قيل لم قال هنا: ويقدر له، وقال قبلها: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 36] دون قوله: له؟

فالجواب -والله أعلم-: لما كان التقدير في الآية، هو التضييق الذي يقابل البسط في الرزق، بين الحق سبحانه أن تضييق الرزق على بعض الخلق في بعض الأحيان، هو لصالحهم ولمنافعهم، وليس للإضرار بهم، ولذلك قال: (ويقدر له)، ولم يقل: (ويقدر عليه)، أي يضيق عليه، ولذلك يقول الحق سبحانه في سياق واضح: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27].

(416) التحرير والتنوير (22 / 207 - 208).

سورة فاطر

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الآية: 2].

إن قيل: لم أنث الضمير في قوله (فلا ممسك لها) وذكره في قوله (فلا مرسل له) وكلاهما يعود على (ما الشرطية؟

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "هما لغتان: الحمل على المعنى وعلى اللفظ، والمتكلم على الخيرة فيهما، فأنث على معنى الرحمة، وذكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تأنيث فيه، ولأنّ الأوّل فسر بالرحمة، فحسن اتباع الضمير التفسير، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير"[417].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية: 11].

إن قيل: إن التعمير والنقص لا يجتمعان لشخص واحد، فكيف أعاد الضمير في قوله: (ولا ينقص من عمره) على الشخص المعمر؟

قال ابن أبي العز ﷺ: "وأما قوله تعالى: (وما يعمّر من معمّرٍ ولا ينقص من عمره إلّا في كتابٍ)، فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى: (من عمره) إنه بمنزلة قولهم: "عندي درهم ونصفه"، أي: ونصف درهم آخر، فيكون المعنى: ولا ينقص من عمر معمر آخر، وقيل: الزيادة والنقصان في الصحف التي في أيدي الملائكة، وحمل قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 38، 39]، [على أن المحو والإثبات من الصحف التي في أيدي الملائكة، وأن قوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾]. اللوح المحفوظ. ويدل على هذا الوجه سياق الآية، وهو قوله: (لكلّ أجلٍ

(417) الكشاف (3 / 596 - 597).

كتاب)، ثم قال: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، أي: من ذلك الكتاب، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول، وهو قوله تعالى: (وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلّا بإذن الله لكلّ أجلٍ كتاب). فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله، ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (38) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، أي: أن الشرائع لها أجل وغاية تنتهي إليها، ثم تنسخ بالشريعة الأخرى، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء. وفي الآية أقوال أخرى، والله أعلم بالصواب"[418].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الآية: 12].

إن قيل: إن الحلية لا تخرج إلا من البحر الملح دون العذب، فكيف قال: (ومن كل) أي كل واحد منهما؟

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "الجواب من ثلاثة أوجه، الأول: أن ذلك تجوز في العبارة،كما قال: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: 130] والرسل إنما هي من الإنس.

الثاني: أن المرجان إنما يوجد في البحر الملح حيث تنصب أنهار الماء العذب، أو ينزل المطر، فلما كانت الأنهار والمطر -وهي البحر العذب- تنصب في البحر الملح،كان الإخراج منهما جميعا.

الثالث: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح والعذب وهذا قول يبطله الحس"[419].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [الآية: 24].

(418) شرح العقيدة الطحاوية (1/ 132).
(419) شرح العقيدة الطحاوية (2 / 398).

إن قيل: كيف ذلك، وقد كان بين الأنبياء فترات وأزمنة طويلة، ألا ترى أن بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة، لم يبعث فيها نبي؟

فالجواب: أن دعوة عيسى ومن تقدمه من الأنبياء كانت قد بلغتهم، فقامت عليهم الحجة.

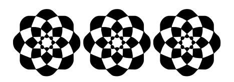
فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين قوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [السجدة: 3] [القصص: 46]؟

فالجواب: أنهم لم يأتهم نذير معاصر لهم، فلا يعارض ذلك من تقدم قبل عصرهم، وأيضا فإن المراد بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24] أن نبوة محمد ﷺ ليست ببدعة، فلا ينبغي أن تنكر. لأن الله أرسله كما أرسل من قبله،والمراد بقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [القصص: 46] أنهم محتاجون إلى الإنذار لكونهم لم يتقدم من ينذرهم فاختلف سياق الكلام فلا تعارض بينهما. قاله صاحب التسهيل(420).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الآية: 32].

إن قيل: لم قدم الظا لم ووسط المقتصد وأخر السابق؟

أجاب الزمخشري بقوله: "للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل"(421).



(420) التسهيل (2 / 400 - 401).

(421) الكشاف (3 / 613) تنبيه: قوله: "والسابقون" بالرفع على اعتبار الواو واو استئناف لا واو عطف.

سورة يس

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [الآية: 16].

قلت: إن قيل: لم قال هنا: (لمرسلون). وقال قبلها: (إنا إليكم مرسلون). بحذف اللام؟

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "لأن الأوّل (إنا إليكم مرسلون) ابتداء إخبار، والثاني (إنّا إليكم لمرسلون) جواب عن إنكار"[422].

وقال الشيخ ابن عادل ﷺ: "قوله: (إنّآ إليكم مّرسلون) جرد خبر «إنّ» هذه من لام التوكيد، وأدخلها في خبر الثانية، لأنهم في الأولى استكملوا مجرد الإنكار فقابلتهم الرسل بتوكيد واحد وهوا لإتيان بـ «إنّ» وفي الثانية بالغوا في الإنكار فقابلتهم (الرسل) بزيادة التأكيد، فأتوا بـ «إنّ» وبـ «اللاّم»"[423].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [الآية: 77].

إن قيل: الفاء تدل على التعقيب، وكونه خصيما لا يكون عقيب خلقه من نطفة؟

فجوابه من وجهين: أحدهما أنه أشار إلى مايؤول حاله إليه فأجرى المنتظر مجرى الواقع، وهو من باب التعبير بآخر الأمر عن أوله كقوله: ﴿أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: 36] وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: 13] أي سبب الرزق وهو المطر.

والثانى أنه إشارة إلى سرعة نسيانهم مبدأ خلقهم. قاله أبو البقاء العكبري[424].

(422) الكشاف (4 / 8 - 9).
(423) اللباب في علوم الكتاب (16/ 183).
(424) إملاء ما من به الرحمن (2 / 78).

سورة الصافات

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الآية: 67].

إن قيل: لم عطف هذه الجملة بـ: ثم؟

فالجواب من وجهين: أحدهما أنه لترتيب تلك الأحوال في الزمان، فالمعنى: أنهم يملأون البطون من شجر الزقوم، وبعد ذلك يشربون الحميم. والثاني أنه لترتيب مضاعفة العذاب، فالمعنى: أن شربهم للحميم أشد مما ذكر قبله(425).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الآية: 102].

إن قيل: لم شاوره في أمر هو حتم من الله؟

أجاب الزمخشري بقوله: "لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله، فيثبت قدمه ويصبره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله: ولأنّ المغافصة بالذبح مما يستسمج، وليكون سنة في المشاورة"(426).

قوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: 105].

إن قيل: إنه أمر بالذبح ولم يذبح فكيف قيل له: (صدقت الرؤيا)؟

---

(425) التسهيل (2 / 426).

(426) الكشاف (4 / 54). قوله: "المغافصة" يقال: غافصت الرجل، أي: أخذته على غرة. و"يستسمج" أي يستقبح.

فالجواب: أنه قد بذل جهده، إذ قد عزم على الذبح، ولو لم يفده الله لذبحه، ولكن الله هو الذي منعه من ذبحه لما فداه. فامتناع ذبح الولد إنما كان من الله وبأمر الله، وقد قضى إبراهيم ما عليه[427].

قلت: وأيضًا، الأعمال بالنيات، والعزم على فعل الشيء يكتب عند الله تعالى، إن حسنة فحسنة، وإن سيئة فسيئة، ففي الحديث عن أبي كبشة الأنماري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ فَأَمَّا الثَّلَاثُ الَّذِي أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ فَإِنَّهُ مَا نَقَّصَ مَالَ عَبْدٍ صَدَقَةٌ وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عِزًّا وَلَا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ بَابَ فَقْرٍ وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ فَإِنَّهُ قَالَ إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ حَقَّهُ قَالَ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ قَالَ وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا قَالَ فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ قَالَ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ قَالَ وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ قَالَ وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ قَالَ هِيَ نِيَّتُهُ فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ**»[428].

قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الآية: 110].

إن قيل: لم قال هنا في قصة إبراهيم: (كذلك) دون قوله: (إنا) وقال في غيرها: (إنا)؟

فالجواب: أنه قد تقدم في قصة إبراهيم نفسها: (إنا كذلك) فأغنى عن تكرار إنا[429].

قوله تعالى: ﴿**وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الآية: 179].

---

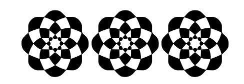
(427) التسهيل (2 / 431).

(428) رواه الترمذي (4/ 562) برقم 2325، وابن ماجه وقال الترمذي حديث حسن صحيح. قال الشيخ الألباني صحيح لغيره. ينظر صحيح الترغيب والترهيب (1 / 212).

(429) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 432).

إن قيل: لم قال أولًا: ﴿**وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الصافات: 175] وقال هنا: (أبصر) فحذف الضمير المفعول؟

فالجواب من وجهين: "أحدهما أنه اكتفى بذكره أولا عن ذكره ثانيًا، فحذفه اقتصارًا. والآخر أنه حذفه ليفيد العموم فيمن تقدم وغيرهم. كأنه قال: "أبصر جميع الكفار"بخلاف الأول، فإنه في قريش خاصة"[430].



(430) المصدر نفسه (2 / 437).

سورة ص

قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [الآية: 17].

إن قيل: ما المناسبة بين أمر الله لسيدنا محمد ﷺ بالصبر على أقوال الكفار، وبين أمره له بذكر داوود؟

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "فالجواب عندي أن ذكر داوود ومن بعده من الأنبياء في هذه السورة فيه تسلية للنبي ﷺ، ووعد له بالنصر، وتفريج الكرب، وإعانة له على ما أمر به من الصبر، وذلك أن الله ذكر ما أنعم به على داوود من تسخير الطير والجبال وشدة ملكه وإعطائه الحكمة وفصل الخطاب، ثم الخاتمة له في الآخرة بالزلفى وحسن المآب. فكأنه يقول: يا محمد كما أنعمنا على داوود بهذه النعم، كذلك ننعم عليك، فاصبر ولا تحزن على ما يقولون. ثم ذكر ما أعطى سليمان من الملك العظيم وتسخير الريح والجن والخاتمة بالزلفى وحسن المآب.

فكأنه يقول يا محمد: كما أنعمنا على داوود بهذه النعم، كذلك ننعم عليك، فاصبر ولا تحزن على ما يقولون... إلخ. وقال ابن عطية: المعنى: اذكر داوود ذا الأيدي في الدين فتأس به، وتأيد كما تأيد"[431].

قلت: المناسبة ظاهرة في أمر الله نبيه ﷺ بالصبر، وقوله: (واذكر عبدنا داوود..) فما ذلك إلا ليتأسى بهم عليهم السلام، سواء في صبرهم على أذى قومهم، أو في صبرهم على طاعة ربهم. وقد فاقهم -ﷺ- في الصبر على قومه، والصبر على طاعة ربه، حتى صار إمام الأنبياء والمرسلين، بتوفيق رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [الآية: 22].

قال ابن العربي رحمه الله: "فإن قيل: لم فزع وهو نبيّ وقد قويت نفسه بالنّبوّة، واطمأنّت بالوحي، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة، وأظهر على يديه من الآيات؟ قلنا: لأنّه لم يضمن له العصمة، ولا أمن من القتل

(431) التسهيل 422/2.

والإذاية، ومنهما كان يخاف، وقد قال الله لموسى عليه السلام: (لا تخف) وقبله قيل ذلك للوطٍ؛ فهم فزعون من خوفٍ ما لم يكن قيل لهم [فيه]: إنّكم منه معصومون"[432].

وقد رد العلامة ابن عاشور رحمه الله هذا الجواب ثم قال: "والأحسن أن نجيب:

أوّلًا: بأنّ الخوف انفعال جبلي وضعه الله في أحوال النّفوس عند رؤية المكروه فلا تخلو من بوادره نفوس البشر فيعرض لها ذلك الانفعال بادىء ذي بدءٍ ثمّ يطرأ عليه ثبات الشّجاعة فتدفعه على النّفس، ونفوس النّاس متفاوتة في دوامه وانقشاعه، فأمّا إذا أمّن الله نبيئًا فذلك مقام آخر كقوله لموسى: (لا تخف) وقوله للنبي ﷺ ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة: 137].

وثانيًا: بأنّ الّذي حصل لداوود عليه السلام فزع وليس بخوفٍ. والفزع أعمّ من الخوف، إذ هو اضطراب يحصل من الإحساس بشيءٍ، شأنه أن يتخلّص منه. وقد جاء في حديث خسوف الشّمس، أنّ رسول الله ﷺ خرج فزعًا -أي مسرعًا مبادرًا للصّلاة توقّعًا أن يكون ذلك الخسوف نذير عذابٍ-، ولذلك قال القرآن: (ففزع منهم) ولم يقل: خاف. وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿**فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**﴾ [الذاريات: 28] أي توجّسًا ما لم يبلغ حدّ الخوف. وأمّا قول الخصم لداوود: (لا تخف)، فهو قول يقوله القادم بهيئةٍ غير مألوفةٍ من شأنها أن تريب النّاظر.

وثالثًا: أنّ الأنبياء مأمورون بحفظ حياتهم لأنّ حياتهم خير للأمّة، فقد يفزع النّبيء من توقّع خطرٍ خشية أن يكون سببًا في هلاكه فينقطع الانتفاع به لأمّته. وقد جاء في حديث عائشة -رضي الله عنها-: "أن النبيء ﷺ أرق ذات ليلةٍ فقال: «**لَيْتَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِي صَالِحًا يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ**»، إذ سمعنا صوت السّلاح فقال: من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقّاصٍ جئت لأحرسك. قالت: فنام النبي ﷺ حتّى سمعنا غطيطه"[433].

---

(432) أحكام القرآن لابن العربي (7 / 11).

(433) **متفق عليه**: صحيح البخاري (6/ 2642) برقم 6804، صحيح مسلم (4/ 1875) برقم 2410.

وروى التّرمذيّ[434]: أنّ العبّاس كان يحرس النبيء ﷺ حتّى نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67] فتركت الحراسة"[435].

قوله تعالى على لسان داوود: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ [الآية: 24].

إن قيل: كيف قال له داوود: (لقد ظلمك) قبل أن يثبت عنده ذلك؟ فالجواب: أنه روي أن الآخر اعترف بذلك، وحذف ذكر اعترافه اختصارا. ويحتمل أن يكون قوله: (لقد ظلمك) على تقدير صحة قوله. وقد قيل: إن قوله لأحد الخصمين (لقد ظلمك) قبل أن يسمع حجة الآخر. كانت خطيئته التي استغفر منها وأناب[436].

قوله تعالى على لسان سليمان: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [الآية: 33].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "فإن قيل كيف نختار القول الأول - يريد قول الجمهور وهو مسح السوق والأعناق بالسيف - وهي عقوبة لمن لم يذنب على وجه التشفي، وهذا بفعل الجبارين أشبه منه بفعل الأنبياء؟

فالجواب: أنه -أي سليمان عليه السلام- نبي معصوم، فلم يكن إلا ليفعل ما قد أجيز له فعله. وجائز أن يباح له ما يمنع له في شرعنا، على أنه إذا ذبحها كانت قربانا. وأكل لحمها جائز، فما وقع تفريط"[437].

وقال بعض العلماء منكرين: تفويت الصلاة ذنب لا يفعله سليمان، وعقر الخيل لغير فائدة لا يجوز، فكيف يفعله سليمان؟ وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة حتى يعقرها؟

فأجاب بعضهم: إنما عقرها ليأكلها الناس، وكان زمانهم زمان مجاعة فعقرها تقربا إلى الله. وقال بعضهم:

---

(434) سنن الترمذي (5/ 251) برقم 3046.
(435) ينظر التحرير والتنوير (23 / 233 - 232).
(436) التسهيل 446/2 - 44.
(437) التبصرة 201/1.

لم تفته الصلاة، ولا عقر الخيل، بل كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار إليهم، فأزالوها حتى دخلت اصطبلاتها، فلما فرغ من صلاته، قال: ردوها علي فطفق يمسح عليها بيده كرامة لها ومحبة. ذكره ابن جزي[438].

قلت: جواب ابن الجوزي أقرب للصواب. وأما تفويت الصلاة، فيجوز في حق الأنبياء السهو والنسيان حتى يخرج وقت الصلاة، وليس ذلك ذنبا، كما وقع للنبي ﷺ في غزوة الخندق، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش. قال: "يا رسول الله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب"، قال النبي ﷺ: «**وَاللَّهِ مَا صَلَّيْتُهَا**»، فقمنا إلى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب"[439].

قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي**﴾ [الآية: 35].

فإن قيل: لأي شيء قال (لا ينبغي لأحدٍ من بعدي)، وظاهر هذا طلب الإنفراد به؟ حتى قال فيه الحجاج: إنه كان حسودا.؟

فالجواب من وجهين:أحدهما أنه إنما قال ذلك لئلا يجري عليه مثل ما جرى من أخذ الجني لملكه، فقصد أن لا يسلب ملكه عنه في حياته ويصير إلى غيره، والآخر أنه طلب ذلك ليكون معجزة ودلالة على نبوته[440].

قوله تعالى على لسان أيوب: ﴿**أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾ [الآية: 41].

إن قيل لم نسب ما أصابه من البلاء إلى الشيطان؟

فالجواب من أربعة أوجه: أحدها أن سبب ذلك كان من الشيطان، فإنه روي أنه دخل على بعض الملوك

(438) المصدر نفسه 448/2.

(439) أخرجه البخاري في صحيحه (1/ 214) برقم 571، وأحمد في مسنده والنسائي في سننه وغيرهم.

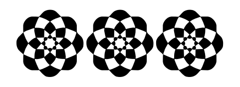
(440) التسهيل 452/2.

فرأى منكرا فلم يغيره، وقيل إنه كانت له شاة فذبحها وطبخها وكان له جار جائع فلم يعط جاره منها شيئًا.

والثاني: أنه أراد ما وسوس له الشيطان في مرضه من الجزع وكراهة البلاء، فدعا إلى الله أن يدفع عنه وسوسة الشيطان بذلك.

والثالث: أنه روي أن الله سلط الشيطان عليه ليفتنه فأهلك ماله فصبر، وأهلك أولاده فصبر، وأصابه الجذام والمرض الشديد فصبر فنسب ذلك إلى الشيطان لتسليط الشيطان عليه.

والرابع: روي أن الشيطان لقي امرأته فقال لها قولي لزوجك إن سجد لي سجدة أذهبت ما به من المرض فذكرت المرأة ذلك لأيوب فقال لها ذلك عدو الله الشيطان وحينئذ دعا"[441].



(441) المصدر نفسه 2/452 - 453.

سورة الزمر

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الآية: 6].

إن قيل: كيف عطف قوله: (ثمّ جعل) على (خلقكم) بـ (ثمّ) التي تقتضي الترتيب والمهلة، ولا شك أن خلقة حواء كانت قبل خلقة بني آدم؟

قال الإمام الزمخشري: "هما آيتان من جملة الآيات التي عدّدها دالا على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم، وخلق حواء من قصيراه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة، والأخرى لم تجر بها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بـ: (ثم) على الآية الأولى، للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود.

وقيل: (ثم) متعلق بمعنى واحدة، كأنه قيل: خلقكم من نفس واحدة، ثم شفعها الله بزوج.

وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء"[442].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الآية: 8].

إن قيل: لمَ قال هنا: (وإذا مسّ) بالواو، وقال بعدها ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 49] بالفاء؟

أجاب الزمخشري بقوله: "السبب في ذلك أنّ هذه وقعت مسببة عن قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: 45] على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأزّ من

---

(442) تفسير الكشاف (4 / 113- 114). القصيرى: أسفل الأضلاع. وقيل: الضلع التي تلي الشاكلة بين الجنب والبطن.

ذكره، دون من استبشر بذكره، وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه. قلت: ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه وقوله: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الزمر: 46] ثم ما عقبه من الوعيد العظيم: تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنه قيل: قل يا رب، لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجرأة، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت"[443].

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الآيات: 11، 12].

إن قيل: كيف عطف أمرت على أمرت،والمعنى واحد؟

فالجواب: "أن الأول أمر بالعبادة والإخلاص، والثاني أمر بالسبق إلى الإسلام، فهما معينان اثنان، وكذلك قوله: (قل اللّه أعبد مخلصًا له ديني) ليس تكرارا، لقوله: (أمرت أن أعبد اللّه) لأن الأول إخبار بأنه مأمور بالعبادة، والثاني إخبار بأنه يفعل العبادة. وقدم اسم الله تعالى للحصر واختصاص العبادة به وحده جل وعلا". قاله العلامة ابن جزي[444].

وقوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [الآية: 22].

قلت: إن قيل: القلب يقسو عن ذكر الله، فكيف قال هنا: (من ذكر الله)؟

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "ويحتمل عندي أن يكون قاسية تضمن معنى خالية فلذلك تعدى بمن والمعنى أن قلوبهم خالية من ذكر الله"[445].

---

(443) المصدر نفسه (4 / 134).

(444) التسهيل 465/2.

(445) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 466).

وقال الإمام الزمخشري ﷺ: "قوله تعالى (من ذكر الله) من أجل ذكره، أي: إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125] وقرىء: «عن ذكر الله».

فإن قلت: ما الفرق بين "من" و"عن" في هذا؟

قلت: إذا قلت: قسا قلبه من ذكر الله، فالمعنى ما ذكرت، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه، وإذا قلت: عن ذكر الله، فالمعنى: غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه. ونظيره: سقاه من العيمة، أي من أجل عطشه، وسقاه عن العيمة: إذا أرواه حتى أبعده عن العطش"(446).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الآية: 23].

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "إن قلت: كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت: إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير. ألا تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس، وسور وآيات، وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات، ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب، إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة، وأصله: كتابًا متشابهًا فصولًا مثاني"(447).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الآية: 23].

إن قيل: كيف تعدى (تلين) بـ"إلى"؟ فالجواب: أنه تضمن معنى فعل تعدى بـ"إلى"، كأنه قال: تميل –أو تسكن أو تطمئن– قلوبهم إلى ذكر الله. فإن قيل: لم ذكرت الجلود أولا وحدها، ثم ذكرت القلوب بعد ذلك معها؟

---

(446) الكشاف (4 / 122).
(447) الكشاف (4 / 123).

فالجواب: "أنه لما قال –أولا– تقشعر، ذكر الجلود وحدها، لأن القشعريرة من وصف الجلود، لا من وصف غيرها. ولما قال ثانيا: (تلين) ذكر الجلود والقلوب، لأن اللين توصف به الجلود والقلوب. أما لين القلوب فهو ضد قسوتها، وأما لين الجلود فهو ضد قشعريرتها، فاقشعرت أولا من الخوف، ثم لانت بالرجاء". قاله العلامة ابن جزي(448).

قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الآية: 28].

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "إن قلت: فهلا قيل: مستقيما، أو غير معوج؟ قلت: فيه فائدتان، إحداهما: نفى أن يكون فيه عوج قط، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1] والثانية: أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان. وقيل: المراد بالعوج: الشك واللبس. وأنشد:

وقد أتاك يقين غير ذي عوجٍ ... من الإله وقول غير مكذوب"(449)

وأجاب ابن جزي بقوله: "قوله تعالى: (غير ذي عوج) أبلغ في نفي العوج عنه، كأنه قال: ليس فيه شيء من العوج أصلا(450).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الآية: 38].

إن قيل: كيف قال: كاشفات، وممسكات بالتأنيث، بعد قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: 36]؟

فالجواب: قال الإمام الزمخشري ﷺ: "أنثهن وكن إناثا، وهن اللات والعزى ومناة. قال اللّه تعالى:

(448) التسهيل 467/2.
(449) تفسير الكشاف (4 / 125).
(450) التسهيل 468/2.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾ [النجم: 19 – 21] ليضعفها ويعجزها، زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة، لأنّ الأنوثة من باب للين والرخاوة، كما أنّ الذكورة من باب الشدّة والصلابة، كأنه قال: "الإناث اللاتي هنّ اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهنّ وأعجز". وفيه تهكم أيضا[451].

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الآية: 65].

إن قيل الموحى إليهم جماعة، والخطاب بقوله: (لئن أشركت) لواحد؟ فالجواب: أنه أوحى إلى كل واحد منهم على حدة.

فإن قيل: كيف خوطب الأنبياء بذلك وهم معصومون من الشرك؟

فالجواب، أن ذلك على وجه الفرض والتقدير، أي لو وقع منهم شرك لحبطت أعمالهم، لكنه لم يقع منهم شرك بسبب العصمة. ويحتمل أن يكون الخطاب لغيرهم، وخوطبوا هم ليدل المعنى على غيرهم بالطريق الأولى[452].

قلت: الاحتمال هو من باب: "إياك أعني واسمعي يا جارة"[453]، فالله سبحانه قد عصم أنبياءه من الشرك، وإنما كأنه يقول: أيها الناس، هؤلاء أنبيائي ورسلي قد عصمتهم من الشرك، ولو فرض أنهم أشركوا

---

(451) تفسير الكشاف (4 / 130).

(452) التسهيل 474/2.

(453) أول من تكلم بهذا هو سيار بن مالك الفزاري قاله لأخت حارثة بن لأم الطائي –فصار يضرب به المثل– وذلك أنه نزل بها، فنظر إلى بعض محاسنها فهويها، واستحيا أن يخبرها بذلك، فجعل يشبب بامرأة غيرها، فلما طال ذلك، وضاق ذرعًا بما يجد، وقف لها فقال:

كانت لنا من غطفان جاره ... حلالة ظعانة سياره
كأنها من هيئة وشاره ... والحلي حلي التبر والحجاره
مدفع ميثاء إلى قراره ... إياك أعني فاسمعي يا جاره

-وذلك محال- لحبطت أعمالهم، فخافوا أنتم من أن تقعوا في الشرك، فإنكم غير معصومين.

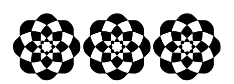
وأيضا في الآية دوام اعتصام الأنبياء بربهم والتوكل عليه والتضرع إليه، فهم معصومون من الشرك بتوفيقه جل وعلا وحفظه. كما قال شعيب لقومه: ﴿**وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا**﴾ [الأعراف: 89].

قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الآية: 73].

قلت: إن قيل لم قال في الجنة: ﴿**وفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ بالواو، وقال في النار ﴿**فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر: 71] بغير واو؟

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "أن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل مجيء أهلها. والمعنى"حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة"، فالواو واو الحال. وجواب"إذا" -على هذا- محذوف. وأما أبواب النار، فإنها فتحت حين جاؤوها، فوقع قوله (فتحت) جواب الشرط، فكأنه بغير واو"[454].

قلت: أما من جعل الواو هنا واو الثمانية، فإن الراجح من أقوال أهل العلم أنها ليست كذلك. كما قال ابن كثير رحمه الله: "ومن زعم أن "الواو" في قوله: (وفتحت أبوابها) واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النّجعة وأغرق في النزع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة". ثم ساق بعضها[455].



(454) التسهيل 476/2.

(455) تفسير ابن كثير (7 / 121) وينظر تفسير القرطبي (8 / 271) وتفسير الألوسي (7 / 378) وتفسير البحر المحيط (6 / 234) وغيرهم.

سورة غافر

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الآية: 7].

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "إن قلت: ما فائدة قوله (ويؤمنون به) ولا يخفى على أحد أنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون؟

قلت -أي الزمخشري-: فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: 17] فأبان بذلك فضل الإيمان"[456].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا...﴾ [الآيات: 10، 11].

إن قيل: كيف اتصال قولهم (أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)، بما قبله؟

فالجواب: أنهم كانوا في الدنيا يكفرون بالبعث، فلما دخلوا النار مقتوا أنفسهم على ذلك، فأقروا به حينئذ ليرضوا الله بإقرارهم، فقولهم (ربّنا أمتّنا اثنتين) الآية. إقرار بالبعث على أكمل الوجوه طمعا منهم أن يخرجوا عن المقت الذي مقتهم الله، إذ كانوا يدعون إلى الإيمان فيكفرون. (فاعترفنا بذنوبنا).

فإن قيل: كيف يكون قولهم: (أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) سببا لاعترافهم بالذنوب؟

فالجواب: أنهم كانوا كافرين بالبعث، فاعترفوا بذنوبهم، وهي إنكار البعث وما أوجب لهم إنكاره من المعاصي. فإن من لا يؤمن بالآخرة لا يبالي بالوقوع في المعاصي[457].

---

(456) تفسير الكشاف (4 / 152).

(457) التسهيل 479/2.

قوله تعالى على لسان مؤمن من آل فرعون: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ [الآية: 28].

إن قيل كيف قال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا﴾ بعد أن كان قد آمن به؟

الجواب: أنه لم يقل ذلك على وجه التكذيب له، وإنما قاله على وجه الفرض والتقدير، وقصد بذلك المحاجة لقومه، فقسّم أمر موسى إلى قسمين، ليقيم عليهم الحجة في ترك قتله على كل وجه من القسمين(458).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ...﴾ [الآية: 30].

إن قيل كيف كتم إيمانه من قبل، وهنا صرح به وأظهره؟

الجواب: كتم إيمانه أول الأمر ثم صرح به بعد ذلك، وجاهرهم مجاهرة ظاهرة، لما وثق بالله، حسبما حكى الله من كلامه، إلى قوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: 44] الآية(459).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [الآيات: 36، 37].

قال الإمام الزركشي: "إن قيل: لأي علة نسب الظن إلى الله وهو شك؟

قيل فيه جوابان: أحدهما أن يكون الظن لفرعون، وهو شك. لأنه قال قبله: (إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا)، فالظن على هذا لفرعون. والثاني أن يكون تم الكلام عند قوله: (أسباب السموات فأطلع إلى إله

(458) المصدر نفسه 481/2.
(459) المصدر نفسه 482/2.

موسى وإني لأظنه) على معنى وإني لأعلمه كاذبا، فإذا كان الظن لله كان علما ويقينا، ولم يكن شكا. كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 20]"[460].

قوله تعالى حكاية عن قول مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [الآيات: 38، 39].

إن قيل: لم كرر المؤمن نداء قومه مرارًا؟

فالجواب: أن ذلك لقصد التنبيه لهم، وإظهار الملاطفة والنصيحة. فإن قيل: لم جاء بالواو في قوله: ﴿وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر: 32] في الثالث دون الثاني؟

فالجواب: أن الثاني بيان للأول وتفسير، فلم يصح عطفه عليه، بخلاف الثالث فإنه كلام آخر، فصح عطفه عليه[461].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [الآية: 49].

إن قيل: هلا قال: "وقال الذين في النار لخزنتها"، فلم صرح باسمها؟

فالجواب: لأن في ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا. قاله الزمخشري[462].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا..﴾ [الآية: 51].

قلت: إن قيل: فهذا زكرياء ويحي عليهما السلام قد قتلهما قومهما؟

فالجواب: إنما ضمن الله نصر الرسل خاصة، لا نصر الأنبياء كلهم، وعلى هذا فإن زكرياء ويحي كانا

(460) البرهان (2 / 84 - 85).
(461) التسهيل 483/2.
(462) الكشاف (4 / 171).

نبيئين ولم يكونا رسولين. وكما قال تعالى عن اليهود ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 21]. وقوله تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نبيء قتل﴾ [آل عمران: 146] على قراءة ورش عن نافع.

قلت: فإن قيل: فكيف بقوله: (والّذين آمنوا). فهم معطوفون على (رسلنا). وهذا يقتضي نصرهم، فما لنا نراهم مهزومين؟

فالجواب من وجهين:

أولًا: وعد الله للمؤمنين بالنصر متعلق بنصرهم لدينه، كما في قوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]، فإذا انتفى الشرط انتفى مشروطه. ومعنى هذا، أن أمة الإسلام -الآن- لم تستوف الشروط التامة للنصر، فلا غرو -إذًا- ولا عجب أن نراها تذوق الهزيمة تلو الأخرى.

ثانيًا: نصر الله لعباده المؤمنين له حالتان: حالة يظهر فيها نصر المؤمن على عدوه بمفرده، وحالة يظهر فيها نصره على عدوه وهو مع طائفة المؤمنين. والله تعالى قد وعد نصر الذين آمنوا في حال كونهم أمة متمسكة بدينها، لا في حال كونهم أفرادا أو فرقا متشاكسة؛ فالمؤمن الفرد يمكن أن ينال منه العدو فيفوز بالشهادة والفردوس الأعلى، بل يمكن للعدو أن ينال من طائفة وطائفتين مسلمتين، لكنه لا قدرة له على استئصال الأمة المسلمة برمتها، بدليل قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «.. **وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»[463]" والله أعلم.

يقول سيد قطب ﷺ مبينا معنى النصر في الآية: "فأما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية. ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة.

وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان.

(463) رواه مسلم في صحيحه (4/ 2215) برقم 2889، وأحمد والترمذي من حديث ثوبان رضي الله عنه.

إن وعد الله قاطع جازم: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**..﴾.. بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب، وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد؛ فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل! ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور. ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. وهي مقاييس بشرية صغيرة. فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان. ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها. فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها! والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى. وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة.. إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك -في منطق العقيدة- أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار. كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار. هذه صورة وتلك صورة. وهما في الظاهر بعيد من بعيد. فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب! والحسين -ضوان الله عليه- وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصرا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرا. فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين. من المسلمين. وكثير من غير المسلمين! وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال.

ما النصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقدينا من الصور. ومن القيم. قبل أن

نسأل: أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا! على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة. ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة. لقد انتصر محمد -ﷺ- في حياته. لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض. فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا. من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة. فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة.

ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية، وفق تقدير الله وترتيبه.

وهنالك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك. إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا. ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها. وحقيقة الإيمان كثيرا ما يتجوز الناس فيها. وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله. وإن هنالك لأشكالا من الشرك خفية لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده، ويتوكل عليه وحده، ويطمئن إلى قضاء الله فيه، وقدره عليه، ويحس أن الله وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختار الله. ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول. وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي الله، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير.

فسيكل هذا كله لله، ويلتزم، ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير، وذلك معنى من معاني النصر، النصر على الذات والشهوات، وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال"ا.هـ[464].

قوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [الآية: 60].

قلت: إن قال قائل: كم سألت الله من حاجة فلم يقضها لي؟

(464) في ظلال القرآن (5/ 3085 إلى 5/ 3087).

فالجواب: أن استجابة الدعاء مقيدة بشروط كما أشرنا من قبل، عند قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الآية: 76].

قلت: إن قيل: كيف أفرد الطفل وجمع الفعل؟ أجاب صاحب التسهيل بقوله: "أفرد الطفل لأنه أراد به الجنس، ولذلك وصفه بالجمع"[465].

قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الآية: 76].

إن قيل:أليس قياس النظم أن يقال: "فبئس مدخل المتكبرين"، كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار، وصل في المسجد الحرام فنعم المصلى؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء"[466].

قلت: إنما قال: (مثوى) ولم يقل: "مدخل"، لأن المثوى غاية ونهاية، والمدخل بداية ومقدمة، فحسن ذكر الغاية بعد المدخل، فإن قولك: "ثوى في موضع ما"، أي: أقام به. وعلى هذا فمعنى الآية: أنه قيل لهم: "ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مقام المتكبرين". والله سبحانه أعلم.

وإن قيل: فهلا قال: "فبئس مثواكم" ليعود الضمير على (ادخلوا)؟

فالجواب -والله أعلم-: إنما أظهر الضمير المضمر لبيان الصفة التي أوجبتهم دخول النار، ألا وهي التكبر والاستكبار. وسجلها عليهم ليتجنبها أولوا الألباب ما داموا في هذه الدار.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ [الآية: 79].

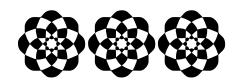
---

(465) التسهيل (2 / 258).
(466) تفسير الكشاف (4 / 179).

قلت: إن قيل: ما الحكمة في تكرير الركوب على الأنعام، بقوله: (لتركبوا منها)، و (وعليها وعلى الفلك تحملون) فالحمل هنا يراد به الركوب؟

الجواب: إنما كرره بعد قوله: (لتركبوا منها) لأنه أراد بالركوب الأول المتعارف في القرى والبلدان، وأراد بالحمل عليها، الأسفار البعيدة. قاله ابن عطية[467].

قلت:ويقوي هذا القول، أنه سبحانه قال: ﴿**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [النحل: 7]، فهذا يخص الحمل، وهو حمل المتاع على الأنعام والركوب عليها في السفر، ثم قال: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً**﴾ [النحل: 8]، وهذا الركوب المتعارف عليه. فبينت الآيات في "النحل" المراد منها في "غافر". والله أعلم.



(467) التسهيل لعلوم التنزيل (2 / 488).

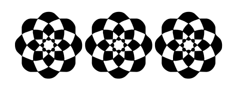
سورة فصلت

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [الآيات: 9 – 11].

إن قيل: هذا الترتيب يقتضي أن الأرض خلقت قبل السماء، فكيف الجمع بين هذا وبين قوله سبحانه في موضع آخر: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: 30]؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوّة، ثم دحاها بعد خلق السماء، كما قال تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها)"(468).

قلت: وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديمًا وحديثًا، والعمدة في ذلك ما أجاب به عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه، وقد سبق أن أشرنا إليه في حديثنا عن "فضل الاشتغال بالقرآن".



(468) الكشاف (4 / 189).

سورة الشورى

قوله تعالى: ﴿حم (1) عسق﴾ [الآيات: 1، 2].

قال الإمام الزركشي: "إن قيل لم قطعوا (حم عسق) ولم يقطعوا (المص) و (كهيعص)؟ قيل: (حم) قد جرت في أوائل سبع سور فصارت اسما للسور فقطعت مما قبلها"(469).

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية: 5].

إن قيل: ما وجه قوله: (والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم..) الآية. بما قبلها؟

فالجواب: أنا إن فسرنا تفطّر السماوات بأنه من عظمة الله، فإنه يكون تسبيح الملائكة أيضا تعظيما له، فينتظم الكلام. وإن فسرنا تفطرها بأنه من كفر بني آدم، فيكون تسبيح الملائكة تنزيها لله تعالى عن كفر بني آدم، وعن أقوالهم القبيحة. قاله العلامة ابن جزي(470).

قلت: تفسير تفطّر السماوات بأنه من كفر بني آدم، هو اللائق في هذا الموضع، لما دل عليه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: 90] في "مريم" أي من قول المشركين: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: 88]؛ فناسب تسبيح الملائكة هنا في "الشورى" بعد ذكر (تكاد السّموات يتفطّرن من فوقهنّ). كما ولا يبعد القول الأول، لما ورد في الحديث: «**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى**

(469) البرهان (1 / 431).
(470) التسهيل 2/498 - 499.

الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ»[471] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**﴾ [الآية: 11].

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "تقديره: يذرؤكم في هذا التدبير، وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجا". فإن قيل: لم قال: (يذرؤكم فيه)، وهلا قال: يذرؤكم به؟ فالجواب: أن هذا التدبير جعل كالمنبع والمعدن للبث والتدبير"[472].

قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ**﴾ [الآية: 17].

إن قيل: ما وجه اتصال ذكر الكتاب والميزان بذكر الساعة؟

فالجواب: أن الساعة يوم الجزاء والحساب. فكأنه قال: اعدلوا وافعلوا الصواب قبل اليوم الذي تحاسبون فيه على أعمالكم[473].

قوله تعالى: ﴿**يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ**﴾ [الآية: 19].

قلت: إن قيل: كيف خصّص هنا الرزق بالمشيئة، في حين أطلقها في قوله: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾ [هود: 6]؟

الجواب: أن قوله تعالى: (يرزق من يشاء) يعني الرزق الزائد على المضمون لكل دابة المذكور في الآية الأخرى: (إلّا على الله رزقها) أي: ما تقوم به الحياة، فإن هذا على العموم لكل حيوان طول عمره، والزائد

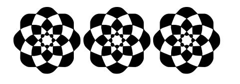
(471) رواه الترمذي (4/ 556) برقم 2312، وابن ماجة الحاكم وأحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (4 / 221).
(472) الكشاف (4 / 212).
(473) التسهيل 1/3.

خاص بمن شاء الله. قاله صاحب التسهيل[474].

قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الآية: 52].

إن قيل: أما كونه لم يكن يدري ما الكتاب، فلا إشكال فيه، وأما الإيمان ففيه إشكال، لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم؟

فالجواب: أن الإيمان يحتوي على معارف كثيرة. وإنما كمل له معرفتها بعد بعثه، وقد كان مؤمنا بالله قبل ذلك. فالإيمان هنا، يعني به كمال المعرفة، وهي التي حصلت له بالنبوة ﷺ[475].



(474) التسهيل 3/2.
(475) المصدر نفسه 3/ 11 - 12.

سورة الزخرف

قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الآية: 13].

إن قيل: ما مناسبة هذا للركوب؟

فالجواب: أن راكب السفينة أو الدابة متعرض للهلاك بما يخاف من غرق السفينة أو سقوطه عن الدابة[476]. فأمر بذكر الحشر ليكون مستعدا للموت الذي قد يعرض له[477].

قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الآية: 27].

قلت: إن قيل: كيف قال هنا: (سيهدين) وفي الشعراء: (فهو يهدين)؟ فالجواب: "قال مرة فهو يهدين ومرّة فإنّه سيهدين فجمع بينهما وقدّر، كأنه قال: "فهو يهدين وسيهدين"، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال". قاله الزمخشري[478].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ...﴾ [الآية: 36].

قلت: إن قيل ما الفرق ما بين يعش بضم الشين، وبين فتحها؟

فالجواب: "قرئ: ومن يعش، بضم الشين وفتحها. والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشي. وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل عشا. ونظيره: عرج: لمن به الآفة، وعرج: لمن مشى مشية العرجان من غير عرج. قال الحطيئة:

---

(476) قلت: أو ما يحدث في عصرنا من حوادث السير وما أكثرها.

(477) التسهيل 3/14.

(478) الكشاف (4 / 246).

مــتى تأتــه تعشــو إلى ضــوء نــاره   تجـد خـير نـار عنـدها خـير موقـد

أي: تنظر إليها نظر العشيّ لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء. وهو بين في قوله حاتم الطائي:

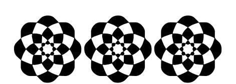
نــاري ونــار الجــار واحــدة   وإليــه قبلــي تنــزل القــدر
مــا ضــرني جــار أجــاوره   ألا يكــون لبابــه ســتر
أعشــو إذا مــا جــارتي بــرزت   حــتى يــواري جــارتي الخــدر

وقرئ: يعشو، على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط. وحق هذا القارئ أن يرفع " نقيض". ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم عن ذكر الرّحمن – وهو القرآن – كقوله تعالى: (صمّ بكم عمي) وأما القراءة بالضم فمعناها: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى، كقوله تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [النمل: 14]". قاله الزمخشري[479].

قوله تعالى: ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا**﴾ [الآية: 45].

إن قيل: كيف أمر النبي ﷺ أن يسأل الرسل المتقدمين وهو لم يدركهم؟

فالجواب من ثلاثة أوجه، الأول: أنه رآهم ليلة الإسراء. الثاني: أن المعنى اسأل أمة من أرسلنا قبلك. الثالث: أنه لم يرد سؤالهم حقيقة، وإنما المعنى أن شرائعهم متفقة على توحيد الله، بحيث لو سئلوا: أمع الله آلهة؟ لأنكروا ذلك ودانوا بالتوحيد. قاله العلامة ابن جزي[480].



---

(479) الكشاف 4/ 250 إلى 252
(480) التسهيل 3/ 21 - 22

سورة الدخان

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الآية: 7].

إن قيل: ما معنى الشرط الذي هو قوله: (إن كنتم موقنين)؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: "كانوا يقرون بأن للسماوات والأرض ربا وخالقا، فقيل لهم: إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان. كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهر، وسخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته"[481].

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الآيات: 10 – 16].

إن قيل: كيف يستقيم قوله: (إنّا كاشفوا العذاب قليلًا) على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: "إذا أتت السماء بالدخان تضور[482] المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوّثوا وقالوا: (ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون) منيبون، فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوما، فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون، ثم قال: (يوم نبطش البطشة الكبرى) يريد يوم القيامة، كقوله تعالى: (فإذا جاءت الطّامّة الكبرى). إنّا منتقمون أي ننتقم منهم في ذلك اليوم"[483].

(481) تفسير الكشاف 4 /271- 272.

(482) التضور: الصياح والتلوي عند الألم.

(483) تفسير الكشاف 4 / 273- 274.

قال مقيده –عفا الله عنه–: اختلف الصحابة ﭫ في معنى الدخان هنا، فمنهم من ذهب إلى أنه قد مضى، منهم عبد الله بن مسعود ﭬ قال: "إنّما كان هذا؛ لأنّ قريشًا لما استعصوا على النّبيّ –ﷺ– دعا عليهم بسنين كسني يوسف ؛ فأصابهم قحط وجهد، حتّى أكلوا العظام. فجعل الرّجل ينظر إلى السّماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدّخان من الجهد. فأنزل الله تعالى: ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [الدخان: 10، 11]، فأتي رسول الله –ﷺ– فقيل: يا رسول الله، استسق الله لمضر، فإنّها قد هلكت! قال: "لمضر! إنّك لجريء!"، فاستسقى فسقوا. فنزلت: ﴿**إِنَّكُمْ عَائِدُونَ**﴾ [الدخان: 15]، فلمّا أصابتهم الرّفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرّفاهية. فأنزل الله ﻷ: ﴿**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ**﴾ [الدخان: 16]، يعني يوم بدرٍ[484].

وذهب آخرون إلى أن الدخان لم يأت بعد، قال الإمام القرطبي ؒ: "وممن قال إن الدخان لم يأت بعد: علي وابن عباس وابن عمرو وأبو هريرة وزيد بن علي والحسن وابن أبي مليكة وغيرهم. وروى أبو سعيد الخدري مرفوعا أنه دخان يهيج بالناس يوم القيامة، يأخذ المؤمن منه كالزكمة. وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه، ذكره الماوردي"[485].

قال العلامة محمد الأمين ؒ: "وقد ثبت في صحيح مسلمٍ أنّ الدّخان من أشراط السّاعة. ولا مانع من حمل الآية الكريمة على الدّخانين: الدّخان الّذي مضى، والدّخان المستقبل جمعًا بين الأدلّة"[486].

قوله تعالى: ﴿**أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ [الآية: 37].

إن قيل: ما معنى قوله تعالى: (أهم خير أم قوم تبّعٍ) ولا خير في الفريقين؟ قال الإمام الزمخشري ؒ: "معناه أهم خير في القوّة والمنعة، كقوله تعالى: ﴿**أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ**﴾ [القمر: 43] بعد ذكر آل فرعون. وفي تفسير ابن عباس ﭭ: أهم أشدّ أم قوم تبع"[487].

---

(484) **متفق عليه**: صحيح البخاري (4/ 1823) برقم 4544، صحيح مسلم (4/ 2155) برقم 2798.

(485) تفسير القرطبي 16 / 130.

(486) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (2 / 457).

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (48) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الآيات: 47 – 49].

إن قيل: هلا قيل: "صبوا فوق رأسه من الحميم"، كقوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: 19]، لأنّ الحميم هو المصبوب لا عذابه؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدّته، إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة، كقوله:

كـم امـرئ كـان في خفـض وفي دعـة ... صبّت عليه صروف الدّهر من صبب[488]

وكقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250]، فذكر العذاب معلقا به الصب، مستعارا له، ليكون أهول وأهيب"[489].

قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الآية: 53].

إن قيل: الإستبرق هو الديباج القوي يلبس فوق الثياب وهو معرب استبره فارسية، وهو الغليظ مطلقًا ثم خص بغليظ الديباج، ثم عرب. فكيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمي؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "إذا عرب خرج من أن يكون عجميا، لأن معنى التعريب أن يجعل عربيا بالتصرف فيه، وتغييره عن منهاجه، وإجرائه على أوجه الإعراب"[490].

=

(487) تفسير الكشاف4 / 280.

(488) الصبب: مكان الصباب الماء وانحداره. يقول: كثير من الناس كان في لين عيش وفي راحة، توالت عليه حوادث الدهر كأنها سيل منحدر من صبب، فاستعار الصب لنزول الحوادث بالشخص على طريق التصريح، والصب ترشيح أو شبه الحوادث بالسيل على سبيل المكنية. والصبب: تخييل. والصب: ترشيح. والصروف: جمع صرف، كحروف جمع حرف: مكاره الزمن ومصائبه.

(489) تفسير الكشاف 4 / 281- 282

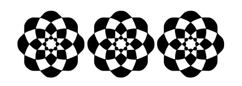
(490) تفسير الكشاف 4 / 282.

سورة الجاثية

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ [الآية: 28].

إن قيل: كيف أضاف الكتاب تارة إليهم، كما في هذه الآية، وتارة إلى الله تعالى، عند قوله: (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ) الآية؟

فالجواب: أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتة فيه، وأضافه إلى نفسه لأنه مالكه، وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه. قاله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ[491].



(491) المصدر نفسه 37/3.

سورة الأحقاف

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الآية: 15].

إن قيل: ما معنى: (في) في قوله تعالى: (وأصلح لي في ذرّيّتي)؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: "معناه: أن يجعل ذرّيته موقعا للصلاح ومظنة له كأنه قال: هب لي الصلاح في ذرّيتي وأوقعه فيهم ونحوه:

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها إلى الضيف، يجرح في عراقيبها نصلي[492]

على أنه حذف مفعول يجرح لتضمنه معنى يؤثر بالجرح. قال الطيبي: أي: يعث الجرح في عراقيبها نصلي، جعل لازمًا ثم عدي كما يعدى اللازم مبالغة.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: 19].

إن قيل: الدرجات هي ما يرتقى عليه من أسفل إلى أعلى، في سلم أو بناء، وإن قصد بها النّزول إلى محلّ منخفض من جبّ أو نحوه فهي دركات، كما قال تعالى: **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾** [الأنعام: 83] وقال سبحانه: **﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾** [الإسراء: 21]، وقال عن المنافقين: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾** [النساء: 145] فكيف وصف بها كلا المنزلتين، منزلة

---

(492) تفسير الكشاف 4 / 302. هذا البيت من أواخر قصيدة لذي الرمة عدة أبياتها ستة وثلاثون بيتًا، شبب فيها بمليح ووصف فيها القفار وناقته. إلى أن قال:

أعاذل عوجي من لسانك عن فما كل من يهوى رشادي على شكلي
فما لام يومًا من أخٍ، وهو صادق إخاي ولا اعتلت على ضيفها إبلي
إذا كان فيها الرسل لم تأت دونه فصالي، ولو كانت عجافًا، ولا أهلي
وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

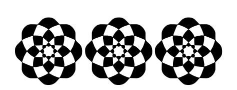
أهل الجنة ومنزلة أهل النار؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: "يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب، لاشتمال كل على الفريقين". انتهى[493].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الآية: 30].

إن قيل: كيف قالوا: (من بعد موسى) ومعلوم أن القرآن نزل بعد الإنجيل؟ الجواب: قال الإمام القرطبي ﷺ: "قال عطاء: كانوا يهودا فأسلموا، ولذلك قالوا: (أنزل من بعد موسى).

وعن ابن عباس أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام، فلذلك قالت: (أنزل من بعد موسى)". انتهى[494].

وقال الإمام ابن كثير ﷺ: "ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: (أنزل من بعد موسى). وهكذا قال ورقة ابن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل –عليه السلام– عليه أول مرة، فقال: بخ بخ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جذعًا". انتهى[495].



(493) تفسير الكشاف 4 / 304.

(494) تفسير القرطبي 16 / 217.

(495) تفسير ابن كثير (7 / 302 - 303).

سورة محمد

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [الآية: 4].

إن قيل: بم تعلقت (حتّى)؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "لا تخلو إما أن تتعلق بالضرب والشد: أو بالمن والفداء، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي رضى الله عنه: أنهم لا يزالون على ذلك أبدا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل: إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام.

وعند أبي حنيفة رحمه الله: إذا علق بالضرب والشد، فالمعنى: أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين. وإذا علق بالمن والفداء، فالمعنى: أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها، إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل". انتهى(496).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [الآية: 15].

إن قيل: كيف دخل قوله تعالى: (كمن هو خالد في النّار وسقوا ماءً حميمًا فقطّع أمعاءهم) في سياق الحديث عن مثل الجنة؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار، ودخوله في حيزه، وانخراطه في سلكه، وهو قوله تعالى: (أفمن كان على بيّنةٍ من ربّه كمن زيّن له سوء عمله) فكأنه قيل: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار؟ أى كمثل جزاء من هو خالد في النار؟ فإن قلت: فلم عرّي في حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟ قلت: تعريته من حرف الإنكار

(496) تفسير الكشاف 4 / 317- 318.

فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم. ونظيره قول القائل:

أفـــــــــرح أن أرزأ الكـــــــــــرام وأن أورث ذودًا شصائصًـــــــا نـــــبلا[497]

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود، مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال: "أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله"، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أزن به[498]، فكأنه قال له: نعم مثلي يفرح بمرزاة الكرام وبأن يستبدل منهم ذودا يقل طائله. وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار"[499].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [الآية: 24].

إن قيل: لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: "أما التنكير ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك. أو يراد على بعض القلوب: وهي قلوب المنافقين. وأما إضافة الأقفال، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح ". انتهى[500].

---

(497) السبب في قول هذا الشعر أنّ هذا الشاعر كان له تسعة إخوة فهلكوا وهذا جزء هو ابن عمه وكان ينافسه فزعم أن حضرميًا سرّ بموت إخوته لأنه ورثهم فقال حضرميّ هذا البيت وقبله:

يـــزعم جــــزء ولم يقـــل جلـــلا أني تزوجـــــت ناعمــــا جــــذلا
إن كنـــت أزننتـــني بهـــا كــــذبًا جــــزء فلاقيـــت مثلهــــا عجــــلا
أفــــــرح أن أرزأ الكـــــــــرام وأن أورث ذودًا شصائصًـــــــا نـــــــبلا

يريد أأفرح فحذف الهمزة وهو على طريق الانكار أي لا وجه للفرح بموت الكرام من إخوتي لإرث شصائص لا ألبان لها، واحدتها شصوص ونبلًا صغارًا وروي أنّ جزءًا هذا كان له تسعة إخوة جلسوا على بئر فانخسفت بهم فلما سمع حضرميّ بذلك قال إنّا لله كلمة وافقت قدرا يريد قوله: فلاقيت مثلها عجلًا. ينظر لسان العرب 1 / 45.

(498) ما أزن به: أي ما تهم به، يقال (زنن) زنّه بالخير زنًّا وأزنّه ظنّه به أو اتّهمه وأزننته بشيء اتّهمته به. لسان العرب (13 / 200)

(499) تفسير الكشاف (4 / 321)

(500) تفسير الكشاف 4 / 326.

سورة الفتح

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الآيات: 1، 2].

إن قيل: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "لم يجعل فتح مكة علة للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة: وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز، كأنه قيل: يسرنا لك فتح مكة، ونصرناك على عدوّك، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة -من حيث إنه جهاد للعدوّ- سببا للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحا بحرب أو بغير حرب، لأنه منغلق ما لم يظفر به، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح.

وقيل: هو فتح الحديبية، ولم يكن فيه قتال شديد، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه: رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم". انتهى[501].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الآية: 4].

إن قيل: ما الحكمة في قوله هنا في حق المؤمنين: (ليزدادوا إيمانًا مّع إيمانهم) في حين قال في حق الكفار: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]، ولم يقل: إنما نملي لهم ليزدادوا كفرا مع كفرهم؟

فالجواب: أن كفر الكافر طارئ، وليس فطريا، والإثم الذي يرتكبونه هو الذي أوقعهم في الكفر، وأما الإيمان فهو الأصل، كما قال ﷺ: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه كما تناتج الإبل من بهيمةٍ جمعاء هل تحسّ فيها من جدعاء؟ قالوا يا رسول الله أرأيت الّذي يموت وهو صغير؟**

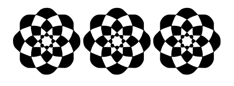
(501) تفسير الكشاف 4 / 332.

قال: الله أعلم بما كانوا عاملين»[502]، ولهذا قال: (ليزدادوا إيمانًا مّع إيمانهم)، وهذه الآية من بين الآيات التي يحتج بها أهل السنة على المرجئة والجهمية ومن سلك سبيلهم في قولهم: "الإيمان لا يقبل زيادة ولا نقصانا". وقد قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف: 13] كما قال: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ [محمد: 17]، (4) وقال ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [التوبة: 124]، وقال: ﴿**لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ**﴾ [الفتح: 4] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك"[503].

قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الآية: 27].

إن قيل: (محلقين) حال الداخلين، والدّاخل لا يكون إلا محرمًا،والمحرم لا يكون محلّقًا، فكيف ذلك؟

الجواب: قال الشيخ ابن عادل رحمه الله: "إن قوله: (آمنين) متمكّنين من أن تتموا الحجّ محلّقين"[504].



(502) رواه الإمام مالك في الموطأ موطأ مالك (2/ 339)، والشيخان من حديث أبي هريرة.
(503) تفسير ابن كثير 5 / 140.
(504) اللباب في علوم الكتاب 17 /509 – 510.

سورة الحجرات

قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الآية: 2].

إن قيل: ما الفائدة من قوله: (ولا تجهروا له بالقول) مع أن الجهر مستفاد من قوله: (لا ترفعوا أصواتكم)؟

فالجواب: أن المنع من رفع الصوت هو أن لا يجعل كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي ﷺ أو صوته، والنهي عن الجهر منع من المساواة، أي لا تجهروا له بالقول كما تجهرون لنظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا"[505].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: 5].

إن قيل: هل من فرق بين (حتّى تخرج إليهم) وبين لو أنه قال: (إلى أن تخرج)؟ قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنّ «حتى» مختصة بالغاية المضروبة. تقول: "أكلت السمكة حتى رأسها"، ولو قلت: حتى نصفها، أو صدرها: لم يجز. و«إلى» عامّة في كل غاية، فقد أفادت «حتى» بوضعها: أنّ خروج رسول الله ﷺ إليهم غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمرا دون الانتهاء إليه.

فإن قلت: فأي فائدة في قوله: (تخرج إليهم)؟ قلت: فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم". انتهى[506].

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الآية: 7].

---

(505) اللباب في علوم الكتاب 17 /525.
(506) تفسير الكشاف 4 / 359.

إن قيل: ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: "القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأى رسول الله ﷺ لآرائهم، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه.

فإن قلت: فلم قال: (يطيعكم) دون: أطاعكم؟ قلت: للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه. وأنه كلما عنّ لهم رأي في أمر كان معمولا عليه، بدليل قوله: (في كثيرٍ من الأمر) كقولك: فلان يقري الضيف ويحمي الحريم، تريد: أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرّا". انتهى[507].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الآية: 9].

إن قيل: ما وجه قوله: (اقتتلوا) والقياس اقتتلتا، كما قرأ ابن أبي عبلة. أو اقتتلا، كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: "هو مما حمل على المعنى دون اللفظ، لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس"[508].

فإن قيل: لم خُص الاثنان بالذكر دون الجمع؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين، وقيل: المراد بالأخوين الأوس والخزرج، وقرئ: بين إخوتكم وإخوانكم. والمعنى: ليس المؤمنون إلا إخوة، وأنهم خلص لذلك متمحضون، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه. انتهى[509].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12].

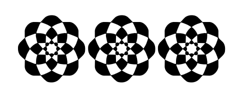
---

(507) تفسير الكشاف4 / 361- 362.

(508) تفسير الكشاف 4 / 364.

(509) تفسير الكشاف 4 / 366.

إن قيل: ما الفرق بين (كثيرًا) حيث جاء نكرة، وبين لو جاء معرفة؟ قال الإمام الزمخشري ﷺ: مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية، وإنّ في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين، لئلا يجترئ أحد على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل، وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة، مع استشعار للتقوى والحذر، ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطا بما يكثر منه دون ما يقل، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبا، وما اتصف منه بالقلة مرخصا في تظننه. والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها: أنّ كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر: كان حراما واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي ﷺ: "إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء"[510] وعن الحسن: "كنا في زمان، الظن بالناس حرام، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت، وظنّ بالناس ما شئت ". وعنه: "لا حرمة لفاجر". وعنه: "إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب". انتهى[511].



(510) لفظ الحديث عن ابن عباس، قال: نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة، فقال: « ما أعظم حرمتك »، وفي رواية أبي حازم لما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة، قال: "مرحبا بك من بيت ما أعظمك وأعظم حرمتك، وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك، إن الله حرم منك واحدة وحرم من المؤمن ثلاثا: دمه، وماله، وأن يظن به ظن السوء » شعب الإيمان للبيهقي (14 / 221).

(511) تفسير الكشاف 4 / 371- 372.

سورة ق

قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [الآية: 33].

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت: للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته، مع علمه أنه الواسع الرحمة، كما أثنى عليه بأنه خاش، مع أنّ المخشى منه غائب، ونحوه: (والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات"[512].

قلت: كما صح عن عائشة رضي الله عنها قالت: "سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة)، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات". رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد وغيره.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [الآيات: 17، 18].

إطلاق الآية يدل على أن للكفار كتابا وحفظة، فإن قيل: فالذى يكتب عن يمينه إذن أي شيء يكتب، ولم يكن لهم حسنات؟

الجواب -والله أعلم-: لأن الملك الذي عن شماله لا يكتب إلا بإذن الملك الذي عن يمينه فيكون شاهدا على ذلك. ففي الحديث عن ابي أمامة رضي الله عنه مرفوعا: «**إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطئ فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة**»[513].

وأيضا حضور صاحب اليمين احتمال الإيمان في لحظة من اللحظات، ففي الصحيح أن النبي ﷺ قال:

(512) الكشاف (4 / 390).

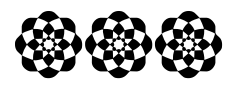
(513) صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ الألباني (1/ 422) سلسلة الأحاديث الصحيحة (3/ 210).

"إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم".

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [آية: 23]، ثم قال بعد هذا: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [آية: 27].

إن قيل: كيف ثبت واو العطف في قوله أولًا: (وَقَالَ قَرِينُهُ) ولم يثبت الواو في الآية الثانية؟

قال الإمام أبو جعفر الغرناطي رحمه الله: "والجواب عن ذلك: أن الآية معطوفة على ما قبلها من آيات هي إخبار عما يلقاه الإنسان المتقدم ذكره من الأهوال والشدائد في المواقف الأخراوية وما بين يديها، أولها قوله: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) (ق: 19)، ثم قال: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ) (ق: 20 - 21)، ثم قال: (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) (ق: 23)، فهذه إخبارات عن شدائد بعضها تلو بعض، فطابق ذلك ورود بعضها معطوفًا على بعض. وأما قوله: (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ) فهو إخبار مبتدأ مستأنف معرف بتبرّئ قرينه من جملة ما تأبطه واجترحه، ولا طريق لعطف ذلك على ما قبله، إنما هو استئناف إخبار، فورد كل من الآيتين على ما يجب ويناسب"(514).



(514) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (2/ 447).

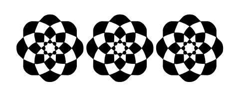
سورة الذاريات

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: 139 - 142].

إن قيل: كيف وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون، فقال عن يونس عليه السلام: (فالتقمه الحوت وهو مليم) وقال عن فرعون: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: 40]؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "موجبات اللوم تختلف، وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: 59]، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121]، لأنّ الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة". انتهى[515].

قال مقيده –غفر الله له–: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقد سئل عن عصمة الأنبياء؟: "فإنّ القول بأنّ الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصّغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطّوائف حتّى إنّه قول أكثر أهل الكلام كما ذكر "أبو الحسن الآمدي" أنّ هذا قول أكثر الأشعريّة وهو أيضًا قول أكثر أهل التّفسير والحديث والفقهاء بل هو لم ينقل عن السّلف والأئمّة والصّحابة والتّابعين وتابعيهم إلّا ما يوافق هذا القول.. إلخ"[516].



(515) تفسير الكشاف 4 / 403.
(516) مجموع الفتاوى - (4 / 319).

سورة الطور

قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية: 19].

إن قيل: قال سبحانه في حق الكفار في سورة التحريم: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: 7]، في حين قال هنا في حق المؤمنين: ﴿هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهل بينهما فرق؟

قال الرازي في تفسيره: "قلت بينهما بون عظيم من وجوه:

الأول: كلمة (إنما) للحصر أي لا تجزون إلا ذلك، ولم يذكر هذا في حق المؤمن فإنه يجزيه أضعاف ما عمل ويزيده من فضله، وحينئذ إن كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالأكل والشرب.

الثاني: قال هنا بما كنتم وقال هناك ما كنتم أي تجزون عين أعمالكم إشارة إلى المبالغة في المماثلة كما تقول: هذا عين ما عملت. وقد تقدم بيان هذا، وقال في حق المؤمن (بما كنتم) كأن ذلك أمر ثابت مستمر بعملكم هذا.

الثالث: ذكر الجزاء هناك وقال هاهنا (بما كنتم تعملون) لأن الجزاء ينبئ عن الانقطاع فإن من أحسن إلى أحد فأتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئا آخر"[517].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ [الآية: 21].

إن قيل: ما معنى تنكير الإيمان؟

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة. ويجوز أن يراد: إيمان الذرية الداني المحل: كأنه قال: بشيء من الإيمان، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم"[518].

---

(517) التفسير الكبير (28/ 206-207).

(518) المصدر نفسه (4 / 411).

سورة النجم

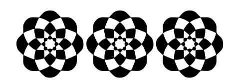
قوله تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ [الآية: 20].

قلت: إن قيل: لم أكد "مناة" بقوله: (الثّالثة الأخرى)؟

فالجواب: لأن مناة كانت صخرة عظيمة لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة، وهي أعظم من اللات والعزى، ولذلك أكدها سبحانه بقوله: (الثّالثة الأخرى)، كذا قال ابن عطية[519].

وذهب الزمخشري إلى أن قوله: (الأخرى) ذمّ، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار، كقوله تعالى: (قالت أخراهم لأولاهم) أى وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم[520].

قلت: وقول الزمخشري أقرب إلى الصواب لما فيه من إهانة لصخرة صماء تعبد من دون الله جل وعلا. والله أعلم.



(519) التسهيل 97/3.
(520) الكشاف 423/4.

سورة القمر

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [الآية: 9].

إن قيل: ما معنى قوله تعالى: (فكذّبوا) بعد قوله: (كذّبت)؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "معناه: كذبوا فكذبوا عبدنا أي: كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب. أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا، أي: لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأسا: كذبوا نوحا، لأنه من جملة الرسل"[521].

قال العلامة ابن المنير رحمه الله في حاشيته على الكشاف: "قد تقدم كلامه على قوله تعالى: (وكذّب الّذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذّبوا رسلي)، وأجاب عنه بجوابين، أحدهما متعذر هاهنا، والآخر ممكن وهو أن ذلك كقول القائل: أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مضى لي جوابان، أحدهما: يمكن إجراؤه هنا، وحاصله منع ورود السؤال، لأن الأول مطلق والثاني مقيد، فليس تكرارا. وهو كقوله في هذه السورة: (فتعاطى فعقر) فإن تعاطيه هو نفس عقره، ولكن ذكره من جهة عمومه، ثم من ناحية خصوصه إسهابا، وهو بمثابة ذكره مرتين، وجواب آخر هنا: وهو أن المكذب أولا محذوف دل عليه ذكر نوح، فكأنه قال: كذبت قوم نوح نوحا، ثم جاء بتكذيبهم ثانيا مضافا إلى قوله: (عبدنا) فوصف نوحا بخصوص العبودية، وأضافه إليه إضافة تشريف، فالتكذيب المخبر عنه ثانيا أبشع عليهم من المذكور أولا لتلك اللمحة، والله أعلم. انتهى[522].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [الآية: 17].

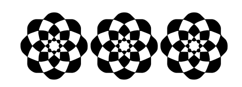
إن قيل: ما فائدة تكرير هذه الآية أربع مرات في السورة؟

---

(521) تفسير الكشاف 4 / 433.

(522) حاشية الكشاف للعلامة ابن المنير 4 / 433.

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فائدته أن يجدّدوا عند استماع كل نبإ من أنباء الأوّلين ادكارا واتعاظا، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن[523] تارات، لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله تعالى: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ عند كل نعمة عدّها في سورة الرحمن، وقوله جل وعلا: ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾ عند كل آية أوردها في سورة "المرسلات"، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة القلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان"[524].



(523) قوله «و يقعقع لهم الشن» القربة الخلق، كذا في الصحاح.

(524) تفسير الكشاف 4 / 439.

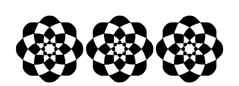
سورة الرحمن

قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الآية: 29].

قلت: إن قيل: كيف قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ والقلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة؟

أورد الزمخشري ههنا قصة فيها الجواب، فقال: "عن عبد الله بن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له: أشكلت علي ثلاث آيات، دعوتك لتكشفها لي: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 31] وقد صحّ أنّ الندم توبة. وقوله تعالى: (كلّ يومٍ هو في شأنٍ) وقد صح أنّ القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: 39] فما بال الأضعاف؟

فقال الحسين: يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمّة. ويكون توبة في هذه الأمّة، لأنّ اللّه تعالى خص هذه الأمّة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم، وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل، ولكن على حمله، وأما قوله –سبحانه– ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فمعناه: ليس له إلا ما سعى عدلا، ولي أن أجزيه بواحدة ألفا فضلا، وأما قوله –جل وعلا– ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإنها شئون يبديها لا شئون يبتدئها. فقام عبد الله وقبل رأسه وسوّغ خراجه"[525].



(525) المصدر نفسه (4 / 448).

سورة الواقعة

قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ [الآية: 29].

إن قيل: غير الطلح أحسن منه؟

فالجواب: أن الصحابة -رضي الله عنهم- مروا بوجٍّ -وهو واد بالطائف مخصب- فأعجبهم سدره، فقالوا: يا ليت لنا مثل هذا، فنزلت هذه الآية. ووعدهم ما يعرفون ويميلون إليه"(526). قاله مجاهد وأبو العالية والضحاك.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الآية: 25].

قال ابن الجوزي: "إن قيل التأثيم لا يسمع، فكيف ذكر مع المسموع؟ فالجواب: أن العرب تتبع آخر الكلام أوله، وإن لم يحسن في أحدهما ما يحسن في الآخر. فيقولون: أكلت خبزًا ولبنًا. قال الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوما ... وزججن الحواجب والعيون

والعين لا تزجج، فردّها على الحاجب.

وقال آخر:

ولقد رأيتك في الوغى ... متقلدا سيفا ورمحا

وأنشدني آخر:

علفتها تبنًا وماءً باردًا

(526) لباب النزول (1 / 187).

انتهى كلامه رحمه الله[527].

قلت: وقد يكون ذكر التأثيم -هنا- مع اللغو، إشارة إلى أن إثم اللغو لا يوجد في الجنة، لأنه لا لغو فيها، ولا يصدر من أهلها. فإن التأثيم مصدر بمعنى: لا يؤثم أحد هناك نفسه ولا غيره. وعلى هذا فالمعنى: لا يسمعون فيها لغوا، ولا يسمعون فيها ما يؤثم صاحبه عليه، أو يأثمون هم إذا سمعوه، كالغيبة والنميمة والاستهزاء والتنابز بالألقاب. وكما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا**﴾ [النبأ: 35] الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (54) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ**﴾ [الآيات: 54، 55].

إن قيل كيف عطف قوله: (فشاربون) على (فشاربون)، ومعناهما واحد؟ فالجواب: أن المعنى مختلف، لأن الأول يقتضي الشرب مطلقًا، والآخر يقتضي الشرب الكثير المشبه لشرب الهيم، وهو الجمل الذي أصابه الهيام، وهو داء معطش، يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقم[528].

قوله تعالى: ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا**﴾ [الآية: 65].

إن قيل لم ثبتت اللام هنا، وسقطت في قوله تعالى: ﴿**لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا**﴾ [الواقعة: 70]؟ قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "الجواب من وجهين، أحدهما: أنه أغنى إثباتها أولا عن إثباتها ثانيا مع قرب الموضعين. والآخر: أن هذه اللام تدخل للتأكيد فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب، للدلالة على أن الطعام أوكد من الشراب، لأن الإنسان -غالبًا- لا يشرب إلا بعد أن يأكل"[529].

وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: لم أدخلت اللام على جواب "لو" في قوله: (لجعلناه حطامًا) ونزعت منه هاهنا؟

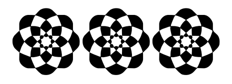
(527) زاد المسير (5 / 474).
(528) التسهيل 123/3.
(529) المصدر نفسه 125/3.

قلت: إنّ "لو" لما كانت داخلة على جملتين معلقة ثانيتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط، ولم تكن مخلصة للشرط ك"إن" ولا عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها في مضموني جملتيها أنّ الثاني امتنع لامتناع الأوّل، افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق، فزيدت هذه اللام لتكون علما على ذلك، فإذا حذفت بعد ما صارت علما مشهورا مكانه، فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفا ومأنوسا به، لم يبال بإسقاطه عن اللفظ، استغناء بمعرفة السامع. ألا ترى إلى ما يحكى عن رؤبة أنه كان يقول: خير، لمن قال له: كيف أصبحت؟ فحذف الجار لعلم كل أحد بمكانه. وتساوى حالي حذفه وإثباته لشهرة أمره. وناهيك بقول أوس:

حــــتى إذا الكــــلّاب قــــال لهــــا   كــــاليوم مطلوبــــا ولا طلبــــا"[530]

وقال العلامة ابن عاشور رحمه الله: "وذكر الشّيخ محمّد بن سعيدٍ الحجريّ التّونسيّ في حاشيته على شرح الأشمونيّ... قال: "فإن قيل لم أكّد الفعل باللّام في الزّرع ولم يؤكّد، في الماء؟ قلت: لأنّ الزّرع ونباته وجفافه بعد النّضارة حتّى يعود حطامًا ممّا يحتمل أنّه من فعل الزّارع أو أنّه من سقي الماء، وجفافه من عدم السّقي، فأخبر سبحانه أنّه الفاعل لذلك على الحقيقة وأنّه قادر على جعله حطامًا في حال نموّه لو شاء، وإنزال الماء من السّماء ممّا لا يتوهّم أنّ لأحدٍ قدرةً عليه غير الله تعالى" انتهى[531].

قلت: هذه اللام هي لام التوكيد في الكلام،و لا يجيء ذكرها إلا لضرب من المبالغة، وفائدتها أنها إذا عبر عن أمر يعز وجوده أو فعل يكثر وقوعه، يؤتى بها تحقيقا لذلك.



(530) تفسير الكشاف (4 / 466) معنى البيت: لم أنظر كاليوم مطلوبًا، والضمير لكلبة الصيد والكلّاب معلّم الكلاب أو الصياد أي: ليس المطلوب والطلب في هذا اليوم مثلها في غيره بل أعظم.

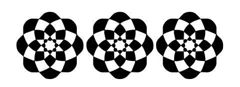
(531) التحرير والتنوير (27 /325).

سورة الحديد

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الآيات: 22، 23].

إن قيل إن الإنسان لا يملك نفسه أن يفرح بالخير ويحزن للشر، كما قال عمر ابن الخطاب ﷺ لما أتي بمال كثير: "اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا، اللهم فاجعلني أنفقه في حق وأعوذ بك من شره."[532]. فهل نلام على ذلك؟

فالجواب: أن النهي عن الفرح إنما هو عن الذي يقود إلى الكبر والطغيان وعن الحزن الذي يخرج عن الصبر والتسليم[533].



(532) مصنف ابن أبي شيبة (8 / 19).
(533) المصدر نفسه 3 / 139.

سورة المجادلة

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الآية: 1].

إن قيل: ما معنى (قد)؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "معناه التوقع، لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها"[534].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الآية: 2].

إن قيل: المظاهر إنما قال: "أنت عليّ كظهر أمّي"، فشبه بأمه، ولم يقل: إنها أمه، فما معنى أنه جعله: (منكرًا من القول وزورًا). والزّور: الكذب، وهذا ليس بكذب؟.

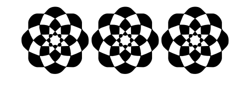
قال الشيخ ابن عادل رحمه الله: "إنّ قوله إن كان خبرًا فهو كذب، وإن كان إنشاء فكذلك؛ لأنه جعله سببًا للتّحريم، والشّرع لم يجعله سببًا لذلك.

وأيضًا فإنما وصف بذلك، لأن الأم مؤبدة التحريم، والزّوجة لا يتأبّد تحريمها بالظّهار، وهذا ضعيف؛ لأنّ المشبه لا يلزم أن يساوي المشبه به من كلّ وجهٍ.

فإن قيل: قوله: ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ يقتضي أن لا أم إلا الوالدة، وهذا مشكل لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: 23]، وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6]، والحمل على حرمة النكاح لا يفيد؛ إذ لا يلزم من عدم كون الزّوجة أمًّا عدم الحرمة، فظاهر الآية الاستدلال بعدم الأمومة على عدم الحرمة؟.

(534) تفسير الكشاف 4 / 485.

فالجواب: أنا نقول: هذه الزّوجة ليست بأم حتى تحصل الحرمة بسبب الأمومة، ولم يرد الشرع بجعل هذه اللفظة سببًا للحرمة، فإذن لا تحصل الحرمة هناك ألبتّة فكان وصفهم لها بالحرمة كذبًا وزورًا". انتهى[535].



(535) اللباب في علوم الكتاب 18 / 520 - 521.

سورة الحشر

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الآية: 9].

إن قيل: كيف قال تبوؤا الدار والإيمان، وإنما تتبوأ الدار أي تسكن ولا يتبوأ الإيمان؟

فالجواب من وجهين، الأول: أن معناه تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان فهو كقولك: "علفتها تبنا وماء باردا" تقديره: علفتها تبنا وسقيتها ماءً باردًا.

الثاني: أن المعنى أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطن لهم لتمكنهم فيه، كما جعلوا المدينة كذلك.

فإن قيل قوله: (من قبلهم) يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول االمدينة وبالإيمان، فأما سبقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه، لأنها كانت بلدهم. وأما سبقهم لهم بالإيمان فمشكل، لأن أكثر المهاجرين أسلم قبل الأنصار؟

فالجواب من وجهين، أحدهما: أنه أراد بقوله: (من قبلهم) من قبل هجرتهم. والآخر: أنه أراد تبوؤا الدار مع الإيمان معا، أي جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين، لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان، لا بتبويء الدار. فيكون الإيمان على هذا مفعولا معه وهذا الوجه أحسن، لأنه جواب عن هذا السؤال وعن السؤال الأول، فإنه إذا كان الإيمان مفعولا معه لم يلزم السؤال الأول، إذ لا يلزم إلا إذا كان الإيمان معطوفًا على الدار[536].

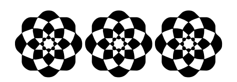
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الآية: 18].

---

(536) المصدر نفسه 3 / 157.

إن قيل: ما الحكمة في تكرير الأمر بالتقوى؟

فالجواب من وجهين، أحدهما: أنه تأكيد، والآخر -وهو الأحسن- أنه أمر أولا بالتقوى استعدادا ليوم القيامة، ثم أمر به ثانيا لأن الله خبير بما يعملون. فلما اختلف الموجبان كرره مع كل واحد منهما[537].



(537) المصدر نفسه 3 / 161.

سورة الممتحنة

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الآية: 2].

إن قيل: كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ثم قال: (وودّوا) بلفظ الماضي؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: الماضي وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة، كأنه قيل: "وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم"، يعني: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا: من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض، وردّكم كفارا، وردكم كفارا أسبق المضارّ عندهم وأوّلها، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، لأنكم بذّالون لها دونه، والعدوّ أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه. انتهى[538].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الآية: 10].

إن قيل: كيف سمى الظنّ علما في قوله: (فإن علمتموهنّ) الآية؟

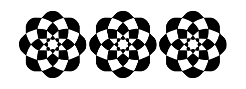
قال الإمام الزمخشري رحمه الله: إيذانا بأن الظن الغالب وما يفضي إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم، وأن صاحبه غير داخل في قوله تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم)، فإن قلت: فما فائدة قوله سبحانه: (الله أعلم بإيمانهنّ) وذلك معلوم لا شبهة فيه؟ قلت: فائدته بيان أن لا سبيل لكم إلى ما تطمئن به النفس ويثلج به الصدر من الإحاطة بحقيقة إيمانهن، فإنّ ذلك مما استأثر به علام الغيوب، وأن ما يؤدي إليه الامتحان من العلم كاف في ذلك، وأن تكليفكم لا يعدوه". انتهى[539].

(538) تفسير الكشاف 4 / 513.
(539) تفسير الكشاف4 / 518.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: 12].

إن قيل: لو اقتصر على قوله تعالى: (ولا يعصينك) إذ قد علم أن رسول الله ﷺ لا يأمر إلا بمعروف؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "نبه بذلك على أنّ طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب"(540).



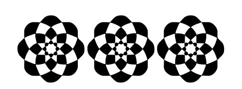
(540) تفسير الكشاف 4 / 520.

سورة الصف

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الآية: 6].

قلت: إن قيل: لم قال عيسى ابن مريم: (يا بني إسرائيل) في حين قال موسى: (يا قوم)؟

فالجواب: إنما قال موسى: (يا قوم) وقال عيسى: (يا بني إسرائيل) لأنه لم يكن له فيهم أب(541).



(541) المصدر نفسه 3 / 172.

سورة الجمعة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الآية: 11].

إن قيل لم قال: (انفضوا إليها) بضمير المفرد وقد ذكر التجارة واللهو؟ فالجواب من وجهين، أحدهما: أنه أراد انفضوا إلى اللهو وانفضوا إلى التجارة ثم حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. قاله الزمخشري[542].

والآخر: أنه قال ذلك تهمما بالتجارة إذ كانت أهم، وكانت هي سبب اللهو ولم يكن سببها. قاله ابن عطية.

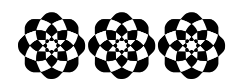
فإن قيل: ما الحكمة في تقديم اللهو هنا على التجارة، وقدم التجارة قبل هذا على اللهو؟ فالجواب: أن كل واحد من الموضعين جاء على ما ينبغي فيه، وذلك أن العرب تارة يبتدئون بالأكثر ثم ينزلون إلى الأقل، كقولك: "فلان يخون في الكثير والقليل"، فبدأت بالكثير ثم أردفت عليه الخيانة فيما دونه. وتارة يبتدئون بالأقل ثم يرتقون إلى الأكثر، كقولك: "فلان أمين على القليل والكثير"، فبدأت بالقليل ثم أردفت عليه الأمانة فيما هو أكثر منه. ولو عكست في كل واحد من المثالين لم يكن حسنا، فإنك لو قدمت في الخيانة القليل لعلم أنه يخون في الكثير من باب أولى وأحرى، ولو قدمت في الأمانة ذكر الكثير لعلم أنه أمين في القليل من باب أولى وأحرى. فلم يكن لذكره بعد ذلك فائدة.

وكذلك قوله: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) قدم التجارة هنا ليبين أنهم ينفضون إليها وأنهم مع ذلك ينفضون إلى اللهو الذي هو دونها.

وقوله: (خير من اللهو ومن التجارة) قدم اللهو ليبين أن ما عند الله خير من اللهو، وأنه أيضا خير من التجارة التي هي أعظم منه، ولو عكس كل واحد من الموضعين لم يحسن. قاله العلامة ابن جزي[543].

(542) الكشاف 4 / 537.

قلت: وعندي -والله أعلم- أنه سبحانه قدم التجارة على اللهو في الموضع الأول، لأن سبب انفضاض من انفض كان هو التجارة، وليس اللهو. وأخر التجارة وقدم اللهو في الموضع الثاني لأن غفلة الغافلين باللهو أكثر من غفلتهم بالتجارة، ألا ترى في عصرنا كيف يتهافت الناس بالآلاف لمتابعة كرة القدم! وما ذلك إلا شغفا باللهو، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



=

(543) التسهيل (3 / 178).

سورة المنافقون

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: 4].

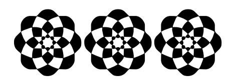
قلت: إن قيل ما فائدة وصف الخشب بأنها مسندة؟

فالجواب: قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "شبهوا في استنادهم –وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير– بالخشب المسندة إلى الحائط؛ ولأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع. ويجوز أن يراد بالخشب المسندة: الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان؛ شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم"(544).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: 5].

قلت: إن قيل: كيف أسندت الأقوال في هذه الآية وما بعدها إلى ضمير الجماعة، علما أن القائل لها واحد وهو رأس المنافقين عبد الله بن سلول؟

قال العلامة ابن جزي رحمه الله: "إنما أسندت تلك الأقوال إلى ضمير الجماعة، لأنه كان له أتباع من المنافقين يوافقونه عليها"(545).



(544) الكشاف 4 / 540.
(545) التسهيل 3 / 181.

سورة التغابن

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الآية: 3].

إن قيل: كيف أحسن صورهم؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حسن صورته أنه خلق منتصبا غير منكب، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] فإن قلت: فكم من دميم مشوّه الصورة، سمج الخلقة تقتحمه العيون؟ قلت: لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب، فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطا بينا وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح، وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه. ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك، وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها.

وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال، والبيان". انتهى[546].

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الآية: 16].

إن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية والتي في آل عمران: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102]؟

قال الإمام أبو بكر الجصاص رحمه الله: "وقد اختلف في نسخه؛ فروي عن ابن عبّاسٍ وطاوسٍ أنّها محكمة غير منسوخةٍ، وعن قتادة والرّبيع بن أنسٍ والسّدّيّ أنّها منسوخة بقوله تعالى: (فاتّقوا اللّه ما استطعتم)؛ فقال بعض أهل العلم: لا يجوز أن تكون منسوخةً؛ لأنّ معناه اتّقاء جميع معاصيه، وعلى جميع المكلّفين اتّقاء جميع المعاصي. ولو كان منسوخًا لكان فيه إباحة بعض المعاصي، وذلك لا يجوز.

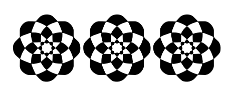
(546) تفسير الكشاف 4 / 546- 547.

وقيل: إنّه جائز أن يكون منسوخًا بأن يكون معنى قوله (حقّ تقاته) القيام بحقوق اللّه تعالى في حال الخوف والأمن، وترك التّقيّة فيها، ثمّ نسخ ذلك في حال التّقيّة والإكراه، ويكون قوله تعالى: (ما استطعتم) فيما لا تخافون فيه على أنفسكم، يريد: فيما لا يكون فيه احتمال الضّرب والقتل؛ لأنّه لا يطلق نفي الاستطاعة فيما يشقّ على الإنسان فعله. كما قال تعالى: ﴿**وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا**﴾ [الكهف: 101] ومراده مشقّة ذلك عليهم". انتهى[547].

وقال الإمام محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: "قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ الآية؛ هذه الآية تدلّ على التّشديد البالغ في تقوى اللّه تعالى، وقد جاءت آية أخرى تدلّ على خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾، والجواب بأمرين:

الأوّل: أنّ آية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخة لقوله: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ وذهب إلى هذا القول سعيد بن جبيرٍ وأبو العالية والرّبيع بن أنسٍ وقتادة ومقاتل بن حيّان وزيد بن أسلم والسّدّيّ وغيرهم، قاله ابن كثيرٍ.

الثّاني: أنّها مبيّنة للمقصود بها، والعلم عند الله تعالى". انتهى[548].



(547) أحكام القرآن للجصاص 2 / 313.

(548) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب 1 / 51.

سورة الطلاق

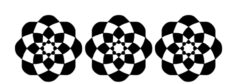
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [آية: 1].

إن قيل: لم نودي النبي ﷺ وحده ثم جاء بعد ذلك خطاب الجماعة؟

فالجواب: أنه لما كان حكم الطلاق يشترك فيه النبي ﷺ وأمته قيل: (إذا طلقتم) خطابا له ولهم، وخص هو عليه الصلاة والسلام بالنداء تعظيما له كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: "يا فلان افعلوا" أي افعل أنت وقومك، ولأنه عليه الصلاة والسلام هو المبلغ لأمته فكأنه قال: "يا أيها النبي إذا طلقت أنت وأمتك". وهذا ما رجحه صاحب التسهيل(549).

وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: "خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب، لأنّ النبي إمام أمّته وقدوتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: "يا فلان افعلوا كيت وكيت"، إظهارا لتقدّمه واعتبارا لترؤسه، وأنه مدرة قومه ولسانهم، والذي يصدرون عن رأيه ولا يستبدّون بأمر دونه، فكان هو وحده في حكم كلهم، وسادّا مسدّ جميعهم"(550).

قلت: وقد يكون تخصيص النبي ﷺ بالنداء لأن سبب نزول الآية كونه ﷺ طلق حفصة رضي الله عنها، فقد روى قتادة عن أنس قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل له راجعها فإنها صوامة قوامة، وهي من إحدى أزواجك ونسائك في الجنة.



(549) التسهيل 3 / 184.

(550) الكشاف 4 / 552 قوله «و أنه مدرة قومه» في الصحاح: العرب تسمى القرية مدرة اه، فالمعنى أنه بمنزلة القرية لقومه.

سورة التحريم

قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [الآية: 12].

قلت: إن قيل: كيف قال هنا: (فنفخنا فيه) وقال في "الأنبياء" ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91]؟

فالجواب: أي أجرينا فيها روح عيسى لما نفخ جبريل في جيب درعها، ونسب الله النفخ إلى نفسه لأنه كان بأمره. والروح هنا هو الذي في الجسد، وأضاف الله الروح إلى نفسه للتشريف أوللملك. قاله العلامة ابن جزي[551].

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر مريم عليها السلام باسمها في سورة التحريم، في حين لم يذكرها بالاسم العلم في سورة الأنبياء، وإنما قال: (والّتي أحصنت فرجها..)؟

الجواب –والله أعلم–: لأن سياق الآية جاء في ذكر مجموعة من الأنبياء عليهم السلام، إلى أن قال تعالى في شأنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]، فلما أراد أن يذكر عيسى عليه السلام جاء ذكر أمه عليها السلام تبعا له في السياق. فذكرها بالاسم الموصول، وبصفتها المتعلقة بولدها: "والتي أحصنت فرجها" أحصنته فصانته من كل مباشرة. وأما في سورة التحريم فكان ذكرها هو المقصود، لا ذكر عيسى عليه السلام، وأيضا ليقابل امرأة فرعون وامرأة لوط.

وللعلامة ابن عاشور رحمه الله جواب آخر، قال: "وعبر عنها بالموصول دلالة على أنها قد اشتهرت بمضمون الصلة كما هو شأن طريق الموصوليه غالبا، وأيضا لما في الصلة من معنى تسفيه اليهود الذين تقولوا عنها

(551) التسهيل 2 / 202.

إفكا وزورا، وليبنى على تلك الصلة ما تفرع عليها من قوله تعالى: ﴿ **فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا**﴾ الصلة أيضا، فكأنه قيل: "والتي نفخنا فيها من روحنا"، لأن كلا الأمرين موجب ثناء"[552].

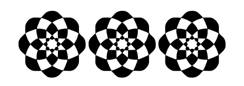
وأما قوله تعالى: ﴿**وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾.

إن قيل لم قال: (من القانتين) بجمع المذكر وهي أنثى؟

فالجواب، قال الإمام الزمخشري ﷺ: "لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، فغلب ذكوره على إناثه. ومن للتبعيض. ويجوز أن يكون لابتداء الغاية، على أنها ولدت من القانتين، لأنها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله عليهما"[553].

قلت: أو معنى: (من القانتين) أي: من جماعة القانتين بما فيهم الرجال والنساء، كما قال في موضع آخر: ﴿**يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [آل عمران: 43] أي: ولتكن صلاتك مع المصلين أي في الجماعة؛ أو انظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم في عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم. قاله الزمخشري[554].

وقال العلامة ابن عاشور ﷺ: "إذن لها بالصّلاة مع الجماعة، وهذه خصوصيّة لها من بين نساء إسرائيل إظهارًا لمعنى ارتفاعها عن بقيّة النّساء، ولذلك جيء في الرّاكعين بعلامة جمع التّذكير"[555].



(552) التحرير والتنوير (17/137 -138).

(553) تفسير الكشاف (4 / 573).

(554) المصدر نفسه 1 / 362.

(555) التحرير والتنوير 3 / 244.

سورة الملك

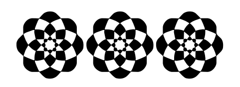
قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الآية: 19].

إن قيل: لم لم يقل: قابضات على طريقة صافات؟

فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مد الأطراف هو الأصل في السباحة. فذكر بصيغة اسم الفاعل لدوامه وكثرته. وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلا للاستراحة والاستعانة، فذكر بلفظ الفعل لقلته[556].

وقال العلامة ابن عاشور ﵀: "وأوثر الفعل المضارع في (يقبضن) لاستحضار تلك الحالة العجيبة وهي حالة عكس بسط الجناحين إذ بذلك العكس يزداد الطّيران قوّةً امتداد زمانٍ.

وجيء في وصف الطّير بـ (صافّاتٍ) بصيغة الاسم لأنّ الصّفّ هو أكثر أحوالها عند الطّيران فناسبه الاسم الدّالّ على الثّبات، وجيء في وصفهنّ بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التّجدّد، أي ويجدّدن قبض أجنحتهنّ في خلال الطّيران للإستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عند ما يحسسن بتغلّب جاذبيّة الأرض على حركات الطّيران، ونظيره قوله تعالى في الجبال والطّير: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 18، 19] لأنّ التّسبيح في وقتين، والطّير محشورة دومًا"[557].



(556) التسهيل لعلوم التنزيل 3 / 205.
(557) التحرير والتنوير 29 / 39.

سورة القلم

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الآية: 42].

إن قيل: كيف يدعون في الآخرة إلى السجود وليست الآخرة دار تكليف؟ فالجواب: أن مسألة التكليف يوم القيامة، أمر جائز، وليس هناك أي تعارض بين النصوص، والحديث الصحيح يوضح لنا ذلك، وهو عمدة أهل السنة، فقد روى الأسود بن سريع عن النبي ﷺ قال: "أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة: فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: رب جاء الإسلام وما أعقل شيئا والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها سحب إليها"[558].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "والتّكليف إنّما ينقطع بدخول دار الجزاء وهي الجنّة والنّار وأمّا عرصات القيامة فيمتحنون فيها كما يمتحنون في البرزخ فيقال لأحدهم: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ وقال تعالى: **﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾** [القلم: 43، 42] قد ثبت في الصّحيح من غير وجهٍ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: "يتجلّى الله لعباده في الموقف إذا قيل: ليتبع كلّ قومٍ ما كانوا يعبدون فيتبع المشركون آلهتهم ويبقى المؤمنون فيتجلّى لهم الرّبّ الحقّ في غير الصّورة الّتي كانوا يعرفون فينكرونه ثمّ يتجلّى لهم في الصّورة الّتي يعرفون فيسجد له المؤمنون وتبقى ظهور المنافقين كقرون البقر فيريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون، وذلك قوله: (يوم يكشف عن ساقٍ) الآية". والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع"[559].

---

(558) رواه أحمد وصححه الألباني حديث رقم: 881 في صحيح الجامع.

(559) مجموع الفتاوى (24 / 373) أصل الحديث في الصحيحين وغيرهما بغير اللفظ الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله.

وقد أفاض تلميذه الإمام ابن القيم في هذه المسألة في كتابه القيم ما لا مزيد عليه -فيما أعلم- وهذا جزء من كلامه إذ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قيل: فالآخرة دار جزاء وليست دار تكليف فكيف يمتحنون في غير دار التكليف؟ فالجواب: أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار، وأما في البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ وهي تكليف.

وأما في عرصة القيامة فقال تعالى: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ [القلم: 42] صريح في أن الله يدعو الخلائق إلى السجود يوم القيامة، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك، ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حسرة عليهم عقوبة لهم لأنهم كلفوا به الدنيا وهم يطيقونه، فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال تعالى: (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) دعوا إليه في وقت حيل بينهم وبينه، كما في الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناسا قالوا: "يا رسول الله، هل نرى ربنا..". فذكر الحديث بطوله إلى أن قال: فيقول تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيقول المؤمنون: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم. فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا -مرتين أو ثلاثا-، حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب. فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة.." وذكر الحديث.

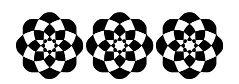
وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسألة، فمن أجاب في الدنيا طوعا واختيارا أجاب في البرزخ، ومن امتنع من الإجابة في الدنيا منع منها في البرزخ ولم يكن تكليفه في الحال وهو غير قادر قبيحا بل هو مقتضى الحكمة الإلهية لأنه مكلف وقت القدرة وأبى، فإذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة.

والمقصود أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار، وقد تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح وفيه التكليف في عرصة القيامة، فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة، فعلم أن الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضى الحكمة هذا القول، والله أعلم"[560].

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [الآية: 49].

قلت: إن قيل: ألم يقل سبحانه في آية أخرى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 145] فكيف قال هنا: (لولا أن تداركه نعمة من ربّه لنبذ بالعراء وهو مذموم)؟

فالجواب: أن المنفي هو الذم لا نبذه بالعراء فإنه قد قال في الصافات: (فنبذناه بالعراء) فالمعنى: لولا رحمة الله لنبذ بالعراء وهو مذموم، لكنه نبذ وهو غير مذموم[561].



(560) طريق الهجرتين (1 / 594 - 595).
(561) التسهيل (3 / 214).

سورة الحاقة

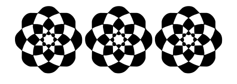
قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الآية: 12].

قلت: إن قيل: لم أفرد الأذن، وهلا قال: وتعيها آذان واعية. فيعود الجمع على ما تقدم؟

فالجواب: قال الإمام الزمخشري ﵀: "للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم؛ وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله، وأن ما سواها لا يبالي بهم بالة وإن ملأوا ما بين الخافقين"[562].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الآية: 32].

إن قيل: ما الفائدة في تطويل هذه السلسلة؟ قال الإمام الرازي ﵀: "قال سويد بن أبي نجيح: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة. وإذا كان الجمع من الناس مقيدين بالسلسلة الواحدة، كان العذاب على كل واحد منهم بذلك السبب أشد"[563].



(562) تفسير الكشاف (4 / 600).
(563) مفاتيح الغيب (30 / 101).

سورة المعارج

قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [الآية: 11].

إن قيل: ما موقع (يبصرونهم)؟ قال الإمام الزمخشري ﵀: هو كلام مستأنف، كأنه لما قال: (ولا يسئل حميم حميمًا) قيل: لعله لا يبصره، فقيل: يبصرونهم، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم.

فإن قلت: لم جمع الضميران في (يبصّرونهم) وهما للحميمين؟ قلت: المعنى على العموم لكل حميمين لا لحميمين اثنين. ويجوز أن يكون (يبصّرونهم) صفة، أي: حميما مبصرين معرّفين إياهم". انتهى[564].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الآيات: 22 - 34].

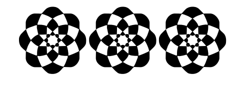
إن قيل: كيف قال (على صلاتهم دائمون) ثم (على صلاتهم يحافظون)؟ قال الإمام الزمخشري ﵀: "معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، كما روي عن النبي ﷺ «**أفضل العمل أدومه وإن قلّ**»[565] وقول عائشة ﵂: «**كان عمله ديمة**»[566].

(564) تفسير الكشاف 4 / 610.

(565) لم أجد هذا اللفظ، وإنما لفظ الحديث وهو في الصحيحين وغيرهما: "سددوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل". وهذا لفظ البخاري باب القصد والمداومة على العمل.

(566) **متفق عليه**: صحيح البخاري (2/ 701) برقم 1886، صحيح مسلم (1/ 541) برقم 783.

ومحافظتهم عليها: أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسننتها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم[567]، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها"[568].



(567) الإحباط عنا نسبي وليس على إمذهب المعتزلة والخزارج، إذ لا يحبط الأعمال كلها إلا الكفر والشرك، أما الذنوب الأخرى فتضعف الإيمان ولا تخرجه من الملة، وقد افاض الإمام ابن القيم رحمه الله في هذه المسالة عند شرحه لحديث: "من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله". فقال رحمه الله: والذي يظهر في الحديث والله أعلم بمراد رسوله، أن الترك نوعان: ترك كلي لا يصليها أبدا، فهذا يحبط العمل جميعه. وترك معين في يوم معين، فهذا يحبط عمل ذلك اليوم. فالحبوط العام في مقابلة الترك العام، والحبوط المعين في مقابلة الترك المعين". الصلاة وحكم تاركها 84 - 85.

(568) تفسير الكشاف 4 / 612- 613.

سورة نوح

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الآية: 4].

إن قيل: كيف قال: (ويؤخّركم) مع إخباره بامتناع تأخير الأجل، وهل هذا إلا تناقض؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "قضى الله مثلا أنّ قوم نوح إن آمنوا عمرهم ألف سنة، وإن بقوا على كفرهم أهلكهم على رأس تسعمائة، فقيل لهم: آمنوا يؤخركم إلى أجل مسمى، أى: إلى وقت سماه الله وضربه أمدا تنتهون إليه لا تتجاوزونه، وهو الوقت الأطول تمام الألف. ثم أخبر أنه إذا جاء ذلك الأجل الأمد لا يؤخر كما يؤخر هذا الوقت، ولم تكن لكم حيلة، فبادروا في أوقات الإمهال والتأخير".انتهى[569].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [الآيات: 5، 6].

إن قيل: ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا، ثم دعاهم جهارا، ثم دعاهم في السرو العلن، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد، فافتتح بالمناصحة في السر، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان". انتهى[570].

قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [الآية: 10].

إن قيل: إنّ نوحًا – عليه الصلاة والسلام – أمر الكفار أولًا بالعبادة، والطّاعة، فأيّ فائدةٍ في أن أمرهم بعد ذلك بالاستغفار؟.

(569) تفسير الكشاف 4 / 615.

(570) تفسير الكشاف 4 / 616.

قال الشيخ ابن عادل ﷺ: "لما أمرهم بالعبادة قالوا له: إن كان الدين الذي كنّا عليه حقًّا، فلم تأمرنا بتركه، وإن كان باطلًا، فكيف يقبلنا بعد أن عصيناه، فقال نوح – عليه الصلاة والسلام –: "إنكم وإن كنتم قد عصيتموه ولكن استغفروا من تلك الذنوب فإنّه سبحانه كان غفارًا ".

فإن قيل: فلم قيل: إنه كان غفارًا، ولم يقل: إنّه غفار؟

فالجواب: كأنه يقول: لا تظنوا أن غفرانه إنما حدث الآن بل هو أبدًا هكذا عادته أنه غفار في حق من استغفر"[571].

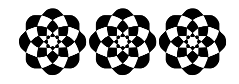
قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا**﴾ [الآيات: 26 – 28].

إن قيل: كيف جاز أن يريد لهم الضلال ويدعو الله بزيادته؟ قال العلامة ابن المنير ﷺ في حاشيته: "إنه إنما دعا عليهم بذلك بعد أن أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون، حيث قال له: ﴿**لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [هود: 36]. وهذا على مذهب أهل السنة الذين أجازوا أنه تعالى يفعل الشر كخلق الضلال في القلب، لأن فعله لا يخلو عن حكمة"[572].

فإن قيل: بم علم نوح عليه السلام أن أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قال االإمام لزمخشري ﷺ: "لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه، ويقول: "احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرنيه"، فيموت الكبير وينشأ

(571) اللباب في علوم الكتاب19 / 387.
(572) حاشية على تفسير الكشاف 4 / 620.

الصغير على ذلك، وقد أخبره الله ﷻ أنه ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ **قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [هود: 36][573].



(573) تفسير الكشاف 4 /621.

سورة الجن

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الآية: 19].

إن قيل: ما الحكمة في وصف النبي ﷺ بالعبودية، وهلا قال: وإنه لما قام رسول الله –أو نبي الله–؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "لأن تقديره: وأوحي إلي أنه لما قام عبد الله. فلما كان واقعا في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه: جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلل. أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر، حتى يكونوا عليه لبدا"[574].

قال مقيده –عفا الله عنه–: وأحسن من هذا أن يقال: "إن أشرف المراتب عند الله جل وعلا هي مرتبة العبودية، ولما كان نبينا ﷺ قد كملها الله تعالى له ناداه بها في أعلى مقاماته وأشرف أحواله، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ وقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] وقال عز من قائل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: 1]. قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ولهذا يقول المسيح حين يرغب إليه في الشفاعة: "اذهبوا إلى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر"، فاستحق تلك الرتبة العليا بتكميل عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له"[575].

وكما قال القاضي عياض رحمه الله:

ومما زادني شرفًا وتيهًا	وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي	وأن صيرت أحمد لي نبيا[576]

---

(574) تفسير الكشاف 4 / 630.

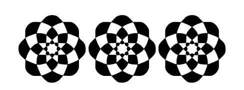
(575) مدارج السالكين 3 / 475.

(576) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (1 / 110).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ [الآية: 25].

إن قيل: ما معنى قوله: (أم يجعل له ربّي أمدًا) والأمد يكون قريبا وبعيدا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30]؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "كان رسول الله ﷺ يستقرب الموعد، فكأنه قال: ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة أم مؤجل ضربت له غاية"[577].



(577) تفسير الكشاف 4 / 632.

سورة المزمل

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [الآية: 1].

قلت: إن قيل: لم نودي النبي ﷺ بالحالة التي كان عليها -وهي التزمل- فهلا قال: يا محمد، أو يا أيها النبي؟

فالجواب: "قال السهيلي: في ندائه بالمزمل فائدتان، إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي: "قم أبا تراب""(578).

والفائدة الثانية: التنبيه لكل متزمل راقد بالليل ليتنبه إلى ذكر الله، لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب وكل من اتصف بتلك الصفة. ذكره ابن جزي(579).

قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [الآيات: 2 – 4].

إن قيل: لم قيد النقص من النصف بالقلة فقال: (أو انقص منه قليلا) وأطلق في الزيادة فقال: (أو زد عليه) ولم يقل قليلا؟

فالجواب: أن الزيادة تحسن فيها الكثرة، فلذلك لم يقيدها بالقلة. بخلاف النقص فإنه لو أطلقه لاحتمل أن ينقص من النصف كثيراً(580).

---

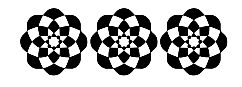
(578) الحديث في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: "جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة فلم يجد عليا في البيت فقال أين ابن عمك قالت كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقل عندي فقال رسول الله ﷺ لإنسان انظر أين هو فجاء فقال يا رسول الله هو في المسجد راقد فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول قم أبا تراب قم أبا تراب". اللفظ للبخاري.

(579) التسهيل (3 / 242).

(580) المصدر نفسه (3 / 244).

قال مقيده: ثبت في الصحيحين من حديث سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة -رضي الله عنها- كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا"[581]. الحديث.

وأما بالنسبة إلى قيام رمضان، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "والأفضل يختلف باختلاف أحوال المصلّين، فإن كان فيهم احتمال لطول القيام فالقيام بعشر ركعاتٍ وثلاثٍ بعدها -كما كان النّبيّ ﷺ يصلّي لنفسه في رمضان وغيره هو الأفضل- وإن كانوا لا يحتملونه، فالقيام بعشرين هو الأفضل، وهو الّذي يعمل به أكثر المسلمين، فإنّه وسط بين العشر وبين الأربعين. وإن قام بأربعين وغيرها جاز ذلك ولا يكره شيء من ذلك"[582].



(581) **متفق عليه**: صحيح البخاري (1/ 385) برقم 1096، صحيح مسلم (1/ 509) برقم 738.
(582) مجموع الفتاوى (22 / 272).

سورة المدثر

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: 31].

إن قيل: لما أثبت الاستيقان لأهل الكتاب وأثبت زيادة الإيمان للمؤمنين فما الفائدة في قوله بعد ذلك: (ولا يرتاب الّذين أوتوا الكتاب والمؤمنون)؟

الجواب: قال الإمام الرازي ﷺ: "إن المطلوب إذا كان غامضًا دقيق الحجة كثير الشبهة، فإذا اجتهد الإنسان فيه وحصل له اليقين، فربما غفل عن مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق، فيعود الشك والشبهة. فإثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي طريان الارتياب بعد ذلك، فالمقصود من إعادة هذا الكلام هو أنه حصل لهم يقين جازم، بحيث لا يحصل عقيبه البتة شك ولا ريب"[583].

قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [الآية: 31].

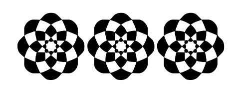
إن قيل: هذه السورة مكية ولم يكن حينئذ منافقون، وإنما حدث المنافقون بالمدينة؟

فالجواب: من وجهين، أحدهما: أن معناه "يقول المنافقون إذا حدثوا، ففيه إخبار بالغيب. والآخر: أن يريد من كان بمكة من أهل الشك[584].

قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [الآيات: 42 - 47].

(583) مفاتيح الغيب (30 / 182).
(584) المصدر نفسه (3 / 253).

إن قيل: لم أخر التكذيب وهو أفحش تلك الخصال الأربعة؟ قال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أريد أنهم بعد اتصافهم بتلك الأمور الثلاثة -ترك الصلاة وعدم إطعام المسكين والخوض في الباطل- كانوا مكذبين بيوم الدين، والغرض تعظيم هذا الذنب، كقوله: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾ [البلد: 17]"[585].



(585) مفاتيح الغيب (30 / 186).

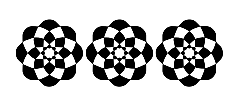
سورة القيامة

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16].

إن قيل: ما مناسبة قوله: (لا تحرك به لسانك) لما قبلها؟

فالجواب أنه لعله نزل معه في حين واحد، فجعل على ترتيب النزول[586].

قلت: وقد يكون قوله تعالى: (لا تحرّك به لسانك لتعجل به) نزل والنبي ﷺ يحرك لسانه يتعجل مخافة النسيان وهو يتلقى الآيات الأولى من السورة نفسها، فنزلت الآيات معترضات، يأمر الحق ﷻ فيها نبيه بالتريث وعدم الاستعجال، ثم استطرد الكلام متوجهًا به إلى الكفار بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (20) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: 20، 21] الآية. والدليل في ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي حرك به لسانه –ووصف سفيان يريد أن يحفظه– فأنزل الله: (لا تحرك به لسانك لتعجل به)[587]". والله أعلم.



(586) المصدر نفسه (3 / 258).

(587) **متفق عليه**: صحيح البخاري (1/ 6) برقم 5، صحيح مسلم (1/ 330) برقم 448.

سورة الإنسان

قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الآية: 6].

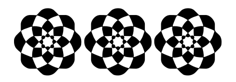
إن قيل: لم قال: (يشرب بها) ومعلوم أن العين يشرب منها، ولا يشرب بها؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "لم يقل: "يشرب منها" لأنه ضمن ذلك قوله يشرب. يعني: يروى بها، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل: "يشربون منها" لم يدل على الري. فإذا قيل: "يشربون بها" كان المعنى: يروون بها. فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى ما دونها..إلخ"[588].

قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الآية: 21].

إن قيل: كيف قال هنا: (وحلّوا أساور من فضّةٍ) وفي مواضع أخر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: 31] [الحج: 23] [فاطر: 33]؟

الجواب: أن ذلك يختلف باختلاف درجات أهل الجنة، قال رسول الله ﷺ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**»[589]، فلعل الذهب للمقربين، والفضة لأهل اليمين. ويحتمل أن يكون أهل الجنة لهم أساور من فضة ومن ذهب معا. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله[590].



(588) مجموع الفتاوى (11 / 178).

(589) **متفق عليه**: صحيح البخاري (4/ 1848) برقم 4597، صحيح مسلم (1/ 163) برقم 180.

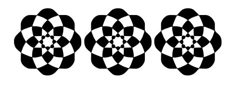
(590) التسهيل (3 / 265).

سورة المرسلات

قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [الآية: 30].

قال العلامة ابن عاشور ﷺ: "أي ذي ثلاث طوائف وأريد بها طوائف من الدّخان فإنّ النّار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها لشدّة انضغاطه في خروجه منها، فوصف الدّخان بأنّه ذو ثلاث شعبٍ لأنّه يكون كذلك يوم القيامة. وقد قيل في سبب ذلك: إنّ شعبةً منه عن اليمين وشعبةً عن اليسار وشعبةً من فوق، قال الفخر: "وأقول هذا غير مستبعدٍ لأنّ الغضب عن يمينه والشّهوة عن شماله والقوّة الشّيطانيّة في دماغه، ومنبع جميع الآفات الصّادرة عن الإنسان في عقائده وفي أعماله ليس إلّا هذه الثّلاثة، ويمكن أن يقال هاهنا ثلاث درجاتٍ وهي: الحسّ، والخيال، والوهم. وهي مانعة للرّوح من الاستنارة بأنوار عالم القدس".اهـ[591].

وقال أبو عمر: حدثني الشّيبانيّ: قال: إن قيل: لم قال سبحانه: (ثلاث شعب)؟ قيل: لأن الفأر إذا خرج من محبسه أخذ يمنة أو يسرة أو فوق، ولا رابع له[592].



(591) التحرير والتنوير (29 / 435 - 436).

(592) ينظر غريب القرآن للسجستاني (1 / 326 -327).

سورة النبإ

قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (1) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (2) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [الآيات: 1 – 3].

إن قيل: من زعم أنّ الضمير في يتساءلون للكفار، فما يصنع بقوله: (هم فيه مختلفون)؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "كان فيهم من يقطع القول بإنكار البعث، ومنهم من يشك. وقيل: الضمير للمسلمين والكافرين جميعا، وكانوا جميعا يسألون عنه. أما المسلم فليزداد خشية واستعدادا، وأما الكافر فليزداد استهزاء. وقيل: المتساءل عنه القرآن. وقيل: نبوّة محمد ﷺ"[593].

قال مقيده –عفا الله عنه–: فإن قيل: فما النبأ العظيم؟ الجواب: قال الشيخ عطية سا لم رحمه الله متمم أضواء البيان: "قيل: هو الرّسول –ﷺ– في بعثته لهم. وقيل: في القرآن الّذي أنزل عليه يدعوهم به. وقيل في البعث بعد الموت. وقد رجّح ابن جريرٍ: احتمال الجميع وألّا تعارض بينها. والواقع أنّها كلّها متلازمة؛ لأنّ من كذّب بواحدٍ منها كذّب بها كلّها، ومن صدّق بواحدٍ منها صدّق بها كلّها، ومن اختلف في واحدٍ منها لا شكّ أنّه يختلف فيها كلّها.

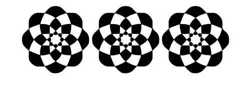
ولكنّ السّياق في النّبأ وهو مفرد. فما المراد به هنا بالذّات؟

قال ابن كثيرٍ والقرطبيّ: من قال إنّه القرآن: قال بدليل قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: 67، 68] ومن قال: إنّه البعث، قال بدليل الآتي بعدها: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: 17].

والّذي يظهر –والله تعالى أعلم–: أنّ أظهرها دليلًا هو يوم القيامة والبعث، لأنّه جاء بعده بدلائل وبراهين البعث كلّها، وعقّبها بالنّصّ على يوم الفصل صراحةً، أمّا براهين البعث فهي معلومة أربعة: خلق

(593) تفسير الكشاف 4 / 684.

الأرض والسّماوات، وإحياء الأرض بالنّبات، ونشأة الإنسان من العدم، وإحياء الموتى بالفعل في الدّنيا لمعاينتها. وكلّها موجودة هنا"[594].



(594) أضواء البيان 8 / 406- 407 الشيخ عطية محمد سالم تلميذ الإمام محمد الشنقيطي أتم التفسير من سورة الحشر إلى الناس.

سورة النازعات

قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [الآيات: 8، 9].

إن قيل: كيف صح إضافة الأبصار إلى القلوب؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "معناه أبصار أصحابها بدليل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: 10]"[595].

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [الآية: 46].

إن قيل: كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في نهار واحد. فإن قلت: فهلا قيل: إلا عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة؟ قلت: الدلالة على أن مدّة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا، ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه، فلما ترك اليوم أضافه إلى عشيته، فهو كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ [الأحقاف: 35]". انتهى[596].

قال الإمام الرازي رحمه الله: "إن قيل: قوله: (أو ضحاها) معناه ضحى العشية وهذا غير معقول، لأنه ليس للعشية ضحى! قلنا: الجواب عنه من وجوه:

أحدها: قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: الهاء والألف صلة للكلام، يريد لم يلبثوا إلا عشية أو ضحى.

وثانيها: قال الفراء والزجاج: المراد بإضافة الضحى إلى العشية إضافتها إلى يوم العشية، كأنه قيل: إلا عشية أو ضحى يومها. والعرب تقول: آتيك العشية أو غداتها، على ما ذكرنا.

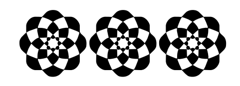
وثالثها: أن النحويين قالوا: يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فالضحى المتقدم على عشية، يصح أن يقال إنه ضحى تلك العشية، وزمان المحنة قد يعبر عنه بالعشية، وزمان الراحة قد يعبر عنه بالضحى، فالذين يحضرون في موقف القيامة يعبرون عن زمان محنتهم بالعشية، وعن زمان راحتهم بضحى تلك العشية،

---

(595) تفسير الكشاف 4 / 693.

(596) تفسير الكشاف 4 / 699- 700.

فيقولون: "كأن عمرنا في الدنيا ما كان إلا هاتين الساعتين". والله ﷻ أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"[597].



(597) مفاتيح الغيب 31 / 49.

سورة عبس

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [الآيات: 34 – 37].

إن قيل: لم ابتدأ بالأخ، ومن عادة العرب أن يبدأ بالأهمّ؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فلمّا سئلت عن هذا قلت: إنّ الابتداء يكون في كلّ مقامٍ بما يناسبه، فتارةً يقتضي الابتداء بالأعلى وتارةً بالأدنى، وهنا المناسبة تقتضي الابتداء بالأدنى لأنّ المقصود بيان فراره عن أقاربه مفصّلًا شيئًا بعد شيءٍ، فلو ذكر الأقرب أوّلًا لم يكن في ذكر الأبعد فائدة طائلة، فإنّه يعلم أنّه إذا فرّ من الأقرب فرّ من الأبعد، ولما حصل للمستمع استشعار الشّدّة مفصّلةً، فابتدئ بنفي الأبعد منتقلًا منه إلى الأقرب فقيل أوّلًا: (يفرّ المرء من أخيه) فعلم أنّ ثمّ شدّةً توجب ذلك. وقد يجوز أن يفرّ من غيره ويجوز أن لا يفرّ. فقيل: (وأمّه وأبيه) فعلم أنّ الشّدّة أكبر من ذلك بحيث توجب الفرار من الأبوين. ثمّ قيل: (وصاحبته وبنيه) فعلم أنّها طامّة بحيث توجب الفرار ممّا لا يفرّ منهم إلّا في غاية الشّدّة وهي: الزّوجة والبنون، ولفظ صاحبته أحسن من زوجته. قلت: فهذا في الخبر ونظيره في الأمر قوله: (ففدية من صيامٍ أو صدقةٍ أو نسكٍ) وقوله: (فكفّارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم) فإنّ الواجبات نوعان على التّرتيب. فيقدّم فيه الأعلى فالأعلى، كما في كفّارة الظّهار والقتل واليمين، وعلى التّخيير فابتدأ فيها بأخفّها ليبيّن أنّه كان مجزيًا لا نقص فيه، وإن ذكر الأعلى بعده للتّرغيب فيه لا للإيجاب، فانتقال القلب من العمل الأدنى إلى الأعلى أولى من أن يؤمر بالأعلى ثمّ يذكر له الأدنى فيزدريه القلب. ولهذا لما ذكر في جزاء الصّيد الأعلى ابتداءً كان لنا في ترتيبه روايتان، وإذا نصرنا المشهور قلنا قدّم فيه الأعلى لأنّ الأدنى بقدرته في قوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: 95]"[598].

(598) مجموع الفتاوى (16 / 74 – 75).

سورة التكوير

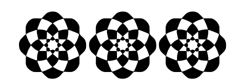
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [الآيات: 8، 9].

إن قيل: ما معنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذي قتلت به، وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها، نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى عليه السلام: **﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾** [المائدة: 116] انتهى[599].

قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [الآية: 18].

إن قيل: ما معنى تنفس الصبح؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "إذا أقبل الصبح: أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفسا له على المجاز. وقيل: تنفس الصبح"[600].



(599) تفسير الكشاف 4 / 708.
(600) تفسير الكشاف 4 / 711.

سورة الانفطار

قوله تعلى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الآية: 6].

إن قيل: ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور؟ قال الإمام ابن جزي ﷺ: "إن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكرا لإحسانه ومقابلة لكرمه، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة وأضاع الشكر الواجب"(601).

وقال الشيخ ابن عادل ﷺ: "إن قيل: كونه كريمًا يقتضي ألا يغتر الإنسان بكرمه؛ لأنه جواد مطلق، والجواد الكريم يستوي عنده طاعة المطيع، وعصيان المذنب، وهذا لا يوجب الاغترار وروي عن عليّ – ﷺ – أنّه دعا غلامه مرات، فلم يجبه، فنظر فإذ هو بالباب، فقال له: لم لا تجبني؟ فقال: "لثقتي بحلمك، وأمني من عقوبتك"، فاستحسن جوابه وأعتقه.

وقالوا –أيضًا– من كرم الرجل سوء أدب غلمانه، وإذا ثبت أن كرمه يقتضي الاغترار به فكيف جعله – هاهنا– مانعًا من الاغترار؟

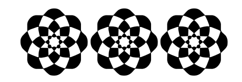
فالجواب من وجوه: الأول: أن المعنى لما كنت ترى حلم الله –تعالى– عن خلقه ظننت أن ذلك لا حساب، ولا دار إلا هذه الدار، فما الذي دعاك إلى الاغترار وجرّأك على إنكار الحشر والنشر، فإنّ ربك كريم، فهو من كرمه –تعالى– لا يعاجل بالعقوبة بسطًا في مدة التوبة، وتأخيرًا للجزاء، وذلك لا يقتضي الاغترار.

الثاني: أنّ كرمه تعالى لما بلغ إلى حيث لا يمنع العاصي من أن يطيعه، فبأن ينتقم للمظلوم من الظالم كان أولى، فإذًا كان كونه كريمًا يقتضي الخوف الشديد من هذا الاعتبار، وترك الجزاء والاغترار.

الثالث: أنّ كثرة الكرم توجب الجد والاجتهاد في الخدمة، والاستحياء من الاغترار.

(601) التسهيل لعلوم التنزيل 3 / 291.

الرابع: قال بعضهم: إنما قال: «بربّك الكريم» ليكون ذلك جوابًا عن ذلك السؤال حتى يقول: غرني كرمك، فلولا كرمك لما فعلت؛ لأنك رأيت فسترت، وقدرت فأمهلت. وهذا الجواب إنما يصح إذا كان المراد بقوله تعالى: (يا أيها الإنسان) ليس هو «الكافر»"[602].



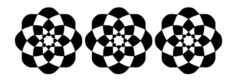
(602) اللباب في علوم الكتاب 20 / 197.

سورة المطففين

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (7) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (8) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (9) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الآيات: 7 – 10].

إن قيل: قد أخبر الله عن كتاب الفجار بأنه في سجين، وفسر سجينا بكتاب مرقوم، فكأنه قيل: إن كتابهم في كتاب مرقوم، فما معناه؟

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "(سجّينٍ) كتاب جامع هو ديوان الشر، دوّن الله فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفسقة من الجن والإنس، وهو كتاب مرقوم مسطور بين الكتابة. أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه، فالمعنى أن ما كتب من أعمال الفجار مثبت في ذلك الديوان، وسمي سجينا: فعيلا من السجن، وهو الحبس والتضييق، لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم، أو لأنه مطروح – كما روي تحت الأرض السابعة في مكان وحش مظلم، وهو مسكن إبليس وذرّيته استهانة به وإذالة، وليشهده الشياطين المدحورون، كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقرّبون"[603].



(603) تفسير الكشاف 4 / 721 وقوله: استهانة به وإذالة: أي إهانة.

سورة الانشقاق

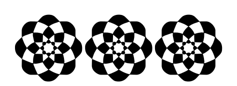
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الآيات: 6 - 8].

إن قيل: إنّ المحاسبة تكون بين اثنين، وليس في القيامة لأحد مطالبة قبل ربّه فيحاسبه؟

أجاب الإمام الرازي رحمه الله بقوله: "إن العبد يقول: إلهي، فعلت الطاعة الفلانيّة، والربّ -سبحانه وتعالى- يقول: فعلت المعصيّة الفلانيّة، فكان ذلك من الرب -سبحانه وتعالى- ومن العبد محاسبة، والدليل أنه -تعالى- خصّ الكفّار بأنه لا يكلمهم، فدل ذلك على أنه يكلم المطيعين، فتلك المكالمة محاسبة"[604].

إن قيل: أليس أنه تعالى قال في سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: 25]، فكيف قال هنا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: 10]؟

فالجواب: "أنّه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره". قاله الشيخ ابن عادل رحمه الله[605].



(604) مفاتيح الغيب 97/31.

(605) اللباب في علوم الكتاب 233/20.

سورة البروج

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [الآية: 8].

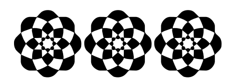
إن قيل: لم قال: (أن يؤمنوا) بلفظ المضارع، ولم يقل آمنوا بلفظ الماضي علما أن القصة قد وقعت؟

فالجواب: أن التعذيب إنما كان على دوامهم على الإيمان، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوهم. فلذلك ذكره بلفظ المستقبل، فكأنه قال: إلا أن يدوموا على الإيمان[606].

وقال أبو جعفر الغرناطي رحمه الله: "المعنى والله أعلم: وما فعلوا ذلك وما يفعلونه الا لإيمانهم، ألا ترى أن "أن" في قوله "أن يؤمنوا"من حيث أن مقتضاها الاستقبال لابد من تعلقها بفعل مناسب ولا يتعلق بالماضى، فلابد من تقدير فعل مستقبل يدل عليه الماضى الملفوظ به، فكأن قد قيل: "ولا ينقمون إلا لأجل إيمانهم"، وعلى هذا هو المعنى، لأن المراد تماديهم على ذلك الفعل، وبذلك يحصل ذمهم على مرتكبهم. ومن نحو هذا قول الشاعر "برج بن مسهر الطائي":

ونـــدمانٍ يزيـــد الكـــأس طيبًـــا ... ســـقيت وقـــد تغـــوّرت النّجـــوم

إنما يريد سقيت وأسقيه، لأن "إذا" من حيث هي ظرف زمان مستقبل، لا يعمل فيها إلا فعل مستقبل وبذلك يتم المعنى. إذ لم يرد أنه فعل ذلك مرة، إذ لا يمتدح بذلك وإنما يريد أن ذلك دأبه وعادته، وقد شهد المعنى للمقدر من اللفظ"[607].

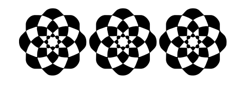


(606) التسهيل لعلوم التنزيل (3 / 306).
(607) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد (1 / 81- 82).

سورة الطارق

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الآيات: 4، 5].

إن قيل: ما وجه اتصال قوله تعالى: (فلينظر) بما قبله؟ قال الزمخشري رحمه الله: "وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا، أتبعه توصية الإنسان بالنظر في أوّل أمره ونشأته الأولى، حتى يعلم أنّ من أنشأه قادر على إعادته وجزائه، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبته"[608].



(608) تفسير الكشاف 4 / 735.

سورة الأعلى

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الآية: 9].

قال الشيخ ابن عادل رحمه الله: "إن قيل: الله -تعالى- عالم بعواقب الأمور بمن يؤمن، ومن لا يؤمن، والتعليق بالشرط، إنما يحسن في حق من ليس بعالم؟

فالجواب: أن أمر البعثة والدعوة شيء، وعلمه تعالى بالمغيبات، وعواقب الأمور غيره، ولا يمكن بناء أحدهما على الآخر، كقوله تعالى لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44]، وهو تعالى عالم بأنه لا يتذكر ولا يخشى.

فإن قيل: التذكير المأمور به، هل هو مضبوط بعدد أو لا؟ وكيف يكون الخروج عن عهدة التذكير؟

والجواب أن المعتبر في التذكير والتكرير هو العرف.

إن قيل: التذكير إنما يكون بشيء قد علم، وهؤلاء لم يزالوا كفارًا معاندين؟.

فالجواب: أن ذلك لظهوره وقوة دليله، كأنه معلوم، لكنه يزول بسبب التقليد والعناد، فلذلك سمي بالتذكير". انتهى(609).

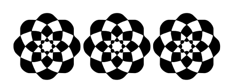
وقال الإمام الزمخشري رحمه الله: "إن قلت: كان الرسول ﷺ مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع، فما معنى اشتراط النفع؟

قلت -أي الزمخشري-: هو على وجهين، أحدهما: أنّ رسول اللّه ﷺ قد استفرغ مجهوده في تذكيرهم، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوّا وطغيانا، وكان النبي ﷺ يتلظى حسرة وتلهفا، ويزداد جدا في تذكيرهم وحرصًا عليه، فقيل له: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ

(609) اللباب لابن عادل 20 / 238.

يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45]، **﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾** [الزخرف: 89]، **﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾** [الأعلى: 9] وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير.

والثاني: أن يكون ظاهره شرطًا، ومعناه ذمّا للمذكرين، وإخبارا عن حالهم، واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم، وتسجيلا عليهم بالطبع على قلوبهم، كما تقول للواعظ: "عظ المكاسين إن سمعوا منك". قاصدا بهذا الشرط استبعاد ذلك، وأنه لن يكون (سيذّكّر) فيقبل التذكرة وينتفع بها من يخشى الله وسوء العاقبة، فينظر ويفكر حتى يقوده النظر إلى اتباع الحق: فأمّا هؤلاء فغير خاشين ولا ناظرين، فلا تأمل أن يقبلوا منك". انتهى[610].



(610) تفسير الكشاف 4 / 739- 740.

سورة الغاشية

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الآية: 6].

إن قيل: كيف قال هنا: (ليس لهم طعام إلا من ضريع) وقال في الحاقة: (ولا طعام إلّا من غسلينٍ)؟

فالجواب: أن الضريع لقوم، والغسلين لقوم، أو يكون أحدهما في حال، والآخر في حال[611].

قلت: لعل القول الأول أقرب للصحة، لأنه سبحانه قال في الحاقة: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: 36، 37] فحصر هذا الطعام على الخاطئين، وهم الذين تعمدوا اقتراف الذنب، أما في سورة الغاشية فجعل الضريع طعام المتخشع الذي ينصب في عمله، يحسب أنه يحسن صنعا.

قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "فإن قلت: كيف قيل: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾، وفي الحاقة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾؟

قلت: العذاب ألوان، والمعذبون طبقات، فمنهم: أكلة الزقوم، ومنهم: أكلة الغسلين، ومنهم: أكلة الضريع: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: 44]"[612].

وذهب الإمام الزركشي إلى أن قوله تعالى: (ليس لهم طعام إلّا من ضريعٍ) معناه: لا طعام لهم أصلا، لأن الضريع ليس بطعام البهائم، فضلا عن الإنس. وذلك كقولك: "ليس لفلان ظل إلا الشمس". تريد بذلك نفي الظل عنه على التوكيد"[613].

---

(611) التسهيل (3 / 316).
(612) الكشاف (4 / 743).
(613) البرهان (3 / 51).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الآيات: 17 - 20].

إن قيل: ما المناسبة بين هذه الاشياء؟

الجواب: قال ابن عادل رَحِمَهُ اللهُ: "قال الإمام الزمخشريّ رَحِمَهُ اللهُ: "من فسّر الإبل بالسحاب، فالمناسبة ظاهرة، وذلك تشبيه ومجاز، ومن حملها على الإبل، فالمناسبة بينها وبين السماء والأرض والجبال من وجهين:

الأول: أن القرآن نزل على العرب، وكانوا يسافرون كثيرًا، وكانوا يسيرون عليها في المهامه والقفار، مستوحشين، منفردين عن الناس، والإنسان إذا انفرد أقبل على التفكّر في الأشياء؛ لأنه ليس معه من يحادثه، وليس هناك من يشغل به سمعه وبصره، فلا بد من أن يجعل دأبه الفكر، فإذا فكر في تلك الحال، فأوّل ما يقع بصره على الجمل الذي هو راكبه، فيرى منظرًا عجيبًا، وإن نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يمينًا وشمالًا لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى تحت لم ير غير الأرض، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة[614] والانفراد، حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النّظر.

الثاني: أن جميع المخلوقات دالة على الصانع -جلت قدرته- إلا انها قسمان: منها ما للشهوة فيه حظّ كالوجه الحسن، والبساتين للنّزهة، والذهب والفضة، ونحوها، فهذه مع دلالتها على الصّانع، قد يمنع استحسانها عن إكمال النظر فيها.

ومنها ما لا حظّ فيه للشهوة كهذه الأشياء، فأمر بالنظر فيها، إذ لا مانع من إكمال النظر". انتهى[615].

(614) في طبعة الكتاب: "وقت الخلود والانفراد" والصواب ما أثبته، والله أعلم.

(615) اللباب في علوم الكتاب 20/ 302، ولعل الكلام منقول من مفاتيح الغيب للإمام الرازي، إذ لم أجد هذا الجواب عند الزمخشري في كشافه، ولعله ذكره في موضع آخر من كتبه.

سورة الفجر

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الآية: 17].

إن قيل: لم أنكر الله على الإنسان قوله ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: 15] و ﴿رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: 16]؟ والجواب من وجهين:

أحدهما: أن الإنسان يقول: ربي أكرمني، على وجه الفخر بذلك والكبر، لا على وجه الشكر. ويقول: ربي أهانني، على وجه التشكي من الله وقلة الصبر والتسليم لقضاء الله، فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك. فإن الواجب عليه أن يشكر على الخير ويصبر على الشر.

والآخر: أن الإنسان اعتبر الدنيا فجعل بسط الرزق فيها كرامة، وتضييقه إهانة. وليس الأمر كذلك، فإن الله قد يبسط الرزق لأعدائه ويضيقه على أوليائه، فأنكر الله عليه اعتبار الدنيا والغفلة عن الآخرة، وهذا الإنكار من هذا الوجه على المؤمن. وأما الكافر فإنما اعتبر الدنيا لأنه لا يصدق بالآخرة ويرى أن الدنيا هي الغاية فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك السؤال.

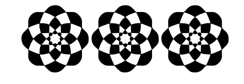
الثاني إن قيل: قد قال الله: (فأكرمه) فأثبت إكرامه، فكيف أنكر عليه قوله (ربي أكرمن)؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه لم ينكر عليه ذكره للإكرام، وإنما أنكر عليه ما يدل عليه كلامه من الفخر وقلة الشكر، أو من اعتبار الدنيا دون الآخرة –حسبما ذكرنا في معنى الإنكار–.

الثاني: أنه أنكر عليه قوله (ربي أكرمن) إذا اعتقد أن إكرام الله له باستحقاقه للإكرام على وجه التفضل والإنعام، كقول قارون: (إنما أوتيته على علم عندي).

الثالث: أن الإنكار إنما هو لقوله (ربي أهان) لا لقوله (ربي أكرمن) فإن قوله: (ربي أكرمن) اعتراف بنعمة الله، وقوله: (ربي أهانن) شكاية من فعل الله. قاله العلامة ابن جزي رحمه الله[616].



(616) التسهيل لعلوم التنزيل (3 / 321).

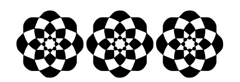
سورة البلد

قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [الآيات: 1، 2].

إن قيل: إن السورة مكية، وفتح مكة كان عام ثمانية من الهجرة؟

فالجواب: أن هذا وعد بفتح مكة، كما تقول لمن تعده بالكرامة: "أنت مكرم" يعني فيما يستقبل(617).

قلت: يستقيم هذا الجواب إذا ما فسرت الآية: (وأنت حلّ بهذا البلد) بمعنى حل حلال يجوز لك في هذا البلد ما شئت من قتلك الكفار، وغير ذلك مما لا يجوز لغيرك، أما إذا فسر الحل بمعنى: حال أي ساكن بمكة، أو بمعنى تستحل حرمتك ويؤذيك الكفار، فحينئذ ينتفي السؤال أصلا، لأنه لا تعارض هناك. والله أعلم.



(617) التسهيل (3 / 325).

سورة الشمس

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الآيات: 5 – 7].

إن قيل: لم عدل عن "من" إلى قوله (ما) في قول من جعلها موصولة؟

فالجواب: قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء، والقادر العظيم الذي بناها"(618).

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الآية: 7].

إن قيل لم نكر النفس؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد الجنس، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 14] والآخر: أنه أراد نفس آدم، والأول هو المختار(619).

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [الآية: 14].

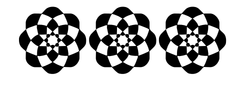
قلت: إن قيل كيف نسب العقر للجمع، وقد انبعث لها شخص واحد وهو قدار بن سالف أحيمر ثمود؟

فالجواب: نسب العقر إليهم جميعا لأنهم رضوا بفعله، ولم ينكروا عليه. ولذلك ورد في الحديث عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: "يا أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده".

(618) تفسير الكشاف (4 / 759).

(619) المصدر نفسه وينظر التسهيل لعلوم التنزيل (3 / 329).

وفي رواية لأبي داود: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب"[620].



(620) رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح وابن ماجه والنسائي ابن حبان في صحيحه (1/ 536) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب 286/2.

سورة الليل

قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الآيات: 14 - 18].

إن قيل: (الأشقى) و (الأتقى) وردتا على صيغة أفعل تفضيل، مما قد يفهم منه أن الشقي لا يصلى النار، وأن التقي لا يدخل الجنة، وهذا مشكل، أوقع أهل الأهواء في بدعة الإرجاء، فما معنى الآيات؟

الجواب: قال الإمام القرطبي رحمه الله: "سمعت سلم بن الحسن يقول: سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الارجاء بالارجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر، لقوله جل ثناؤه: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: 15، 16] وليس الأمر كما ظنوا. هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى. ولأهل النار منازل، فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به. وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب، لم يكن في قوله: (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فائدة، وكان (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ) كلاما لا معنى له"[621].

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله بعدما ذكر قول الإمام القرطبي: "وقد أتبع الأشقى بصفة الّذي كذّب وتولّى لزيادة التّنصيص على أنّهم المقصود بذلك فإنّهم يعلمون أنّهم كذّبوا الرّسول ﷺ وتولّوا، أي أعرضوا عن القرآن، وقد انحصر ذلك الوصف فيهم يومئذٍ فقد كان النّاس في زمن ظهور الإسلام أحد فريقين: إمّا كافر وإمّا مؤمن تقيّ، ولم يكن الّذين أسلموا يغشون الكبائر لأنّهم أقبلوا على الإسلام بشراشرهم، ولذلك عطف وسيجنّبها الأتقى إلخ تصريحًا بمفهوم القصر وتكميلًا للمقابلة.

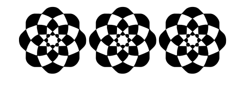
(621) تفسير القرطبي (20 / 87).

والأشقى والأتقى مراد بهما: الشّديد الشّقاء والشّديد التّقوى ومثله كثير في الكلام"[622].

ومما أجاب به الزمخشري رحمه الله قوله: "الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل: الأشقى، وجعله مختصا بالصلي، كأن النار لم تخلق إلا له. وقيل: الأتقى، وجعله مختصا بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له. وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر رضى اللّه عنه يتزكّى من الزكاء"[623].

قال مقيده –عفا الله عنه–: ولعل هذا هو القول الصحيح، فقد ورد أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو المعني بـ (الأتقى)، كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك"[624].

كما أن الأشقى هو أبو جهل أو أمية بن خلف. وقد أوضح هذا الإشكال الإمام السيوطي رحمه الله فقال: "الألف واللام إنما تفيد العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع –زاد قوم: أومفرد بشرط أن لا يكون هناك عهد– واللام في (الأتقى) ليست موصولة، لأنها لا توصل بأفعل التفضيل إجماعًا، فبطل القول بالعموم، وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضي الله عنه"[625]. والله أعلم.



(622) التحرير والتنوير (30 / 390).
(623) تفسير الكشاف (4 / 764).
(624) تفسير ابن كثير (8 / 422).
(625) الإتقان (1 / 91).

سورة الضحى

قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الآيات: 3 - 5].

إن قيل: كيف اتصل قوله تعالى: (وللآخرة خير لك من الأولى) بما قبله؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "لما كان في ضمن نفي التوديع والقلي: أنّ الله مواصلك بالوحي إليك، وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل، وهو السبق والتقدّم على جميع أنبياء الله ورسله، وشهادة أمته على سائر الأمم، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته، وغير ذلك من الكرامات السنية". انتهى[626].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الآيات: 6 - 11].

إن قيل: إن الله تعالى منّ على النبي ﷺ في هذه السورة بثلاثة أشياء، ثم أمره أن يذكر نعمة ربه، فما وجه المناسبة؟

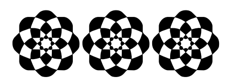
أجاب الشيخ ابن عادر رحمه الله فقال: "وجه المناسبة أن تقول: قضاء الدين واجب، والدين نوعان: مالي وإنعامي، والإنعامي أقوى وجوبًا لأن المال قد يسقط بالإبراء، والإنعامي يتأكد بالإبراء، والمالي يقضى مرة فينجو منه الإنسان، والإنعامي يجب عليه قضاؤه طول عمره، فإذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم، هو مملوك، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم المالك، فكان العبد يقول: إلهي أخرجتني من العدم، إلى الوجود بشرًا مستويًا، طاهر الظاهر نجس الباطن، بشارة منك، تستر عليّ ذنوبي بستر عفوك، كما سترت نجاستي بالجلد الظاهر، فكيف يمكنني قضاء نعمتك التي لا حصر لها، فيقول تبارك وتعالى: الطريق إلى ذلك

(626) تفسير الكشاف 4 / 766.

أن تفعل في حق عبيدي ذلك، وكنت عائلًا فأغنيتك، فافعل في حق الأيتام ذلك ثم إذا فعلت كل ذلك، فاعلم أنما فعلته بتوفيقي، ولطفي، وإرشادي، فكن أبدًا ذاكرًا لهذه النعم"[627].

فإن قيل: ما الحكمة في أن الله جل وعلا أخر ذكر نفسه عن حق اليتيم والسائل؟.

فالجواب: "كأنه سبحانه وتعالى يقول: أنا غني، وهما محتاجان، وحق المحتاج أولى بالتقديم، واختار قوله: (فحدث) على قوله (فخبّر) ليكون ذلك حديثًا عنه وينساه، ويعيده مرة أخرى". قاله الشيخ ابن عادل رحمه الله[628].



(627) اللباب لابن عادل 20 /389.

(628) المصدر نفسه 20/ 394.

سورة الشرح

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الآية: 1].

إن قيل: لم قال: (لك ذكرك) و (لك صدرك) مع أن المعنى مستقل دون ذلك؟

فالجواب: أن قوله: (لك) يدل على الاعتناء به والاهتمام بأمره.قاله العلامة ابن جزي[629].

وأجاب ابن عادل الحنبلي رحمه الله بقوله: "كأنه تعالى يقول: لام بلام، فأنت إنما تفعل الطاعات لأجلي، وأنا أيضًا جميع ما أفعله لأجلك"[630].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الآية: 5].

إن قيل: ما وجه ارتباط هذا مع ما قبله؟

فالجواب: أنه ﷺ كان بمكة هو وأصحابه في عسر من إذاية الكفار ومن ضيق الحال، ووعده الله باليسر، وقد تقدم تعديد النعم تسلية وتأنيسا لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه، كأنه يقول: إن الذي أنعم عليك بهذه النعم سينصرك ويظهرك ويبدل لك هذا العسر بيسر قريب. ولذلك كرر إن مع االعسر يسرا مبالغة[631].

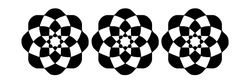
قلت: فإن قيل: لم لم يقل: "فإن بعد العسر يسرا"، ما دام اليسر يأتي بعد العسر؟

---

(629) التسهيل لعلوم التنزيل (3 / 337).
(630) اللباب في علوم الكتاب 399/20.
(631) التسهيل (3 / 338).

قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "وإنما ذكره بلفظ (مع) التي تقتضي المقاربة ليدل على قرب اليسر من العسر "(632).

قلت: لكن جاء لفظ (بعد) في سورة الطلاق عند قوله تعالى: ﴿**سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: 7]، فيحمل"بعد"هنا، على بعد قريب، إذ كل ما هو آت فهو قريب، وكما قال تعالى: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا**﴾ [المعارج: 4 – 7]. والله أعلم.

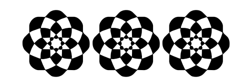


(632) المصدر نفسه (3 / 337).

سورة التين

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [الآيات: 7، 8].

إن قيل: (فما يكذّبك) من المخاطب به؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات، أي: فما يجعلك كاذبا بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل"[633].



(633) تفسير الكشاف 4 / 774.

سورة العلق

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [الآية: 2].

إن قيل: لم قال (من علقٍ) على الجمع، وإنما خلق من علقة، كقوله: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: 5]؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 2]"[634].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [الآية: 6].

إن قيل: إن فرعون ادعى الربوبية فقال الله تعالى لموسى عليه السلام في حقه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: 24] [النازعات: 17]، وههنا ذكر في أبي جهل: (ليطغى)[635] فأكده بهذه اللام فما السبب في هذه الزيادة؟

قال الإمام الرازي رحمه الله فيه وجوه: "أحدها: أنه قال لموسى: (اذهب إلى فرعون إنّه طغى) وذلك قبل أن يلقاه موسى -عليه السلام- وقبل أن يعرض عليه الأدلة، وقبل أن يدعي الربوبية، وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله ﷺ حين رد عليه -أبو جهل- أقبح الرد.

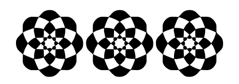
وثانيها: أن فرعون مع كمال سلطته ما كان يزيد كفره على القول وما كان ليتعرض لقتل موسى عليه السلام، ولا لإيذائه. وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان يقصد قتل النبي ﷺ وإيذاءه.

---

(634) تفسير الكشاف 4 / 775- 776.

(635) روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل هل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال، فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته -أو لأعفرن وجهه في التراب- قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي -زعم ليطأ على رقبته- قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: "إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة"، فقال رسول الله ﷺ: "لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا " قال: فأنزل الله ﷻ -لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه- (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت إن كذب وتولى).

وثالثها: أن فرعون أحسن إلى موسى أولًا، وقال آخرًا: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90]، وأما أبو جهل فكان يحسد النبي ﷺ في صباه، وقال في آخر رمقه: "بلغوا عني محمدًا أني أموت ولا أحد أبغض إلي منه(636)". انتهى(637).



(636) الراجح –والله أعلم– أن آخر كلمة قالها أبو جهل هي: "هل هو إلا رجل قتله قومه!". قال عبد الله بن مسعود ﷺ: فجعلت أتناوله بسيف لي غير طائل، فأصبت يده، فندر –أي سقط– سيفه، فأخذته فضربته حتى قتلته. ينظر السيرة النبوية لابن كثير (443/2). وأما ما ذكره الرازي فلم أجده فيما اطلعت عليه.

(637) مفاتيح الغيب (32 / 19).

سورة القدر

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [الآية: 1].

إن قيل: كيف قال هنا: (إنا أنزلناه) وقال في الحجر: (إنا نحن نزلنا الذكر)؟ فالجواب:

"إنّما خصّ لفظ الإنزال دون التّنزيل،لما روي أنّ القرآن أنزل دفعةً واحدةً إلى السماء الدنيا، ثمّ نزّل منجّمًا بحسب المصالح". ذكره الزبيدي ﷺ(638).

فائدة: الفرق بين أنزل ونزل:

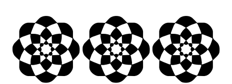
قال الحافظ العلامة أبو جعفر الغرناطي ﷺ: "إن لفظ نزل يقتضى التكرير لأجل التضعيف تقول: "ضرب" مخففا لمن وقع ذلك عليه مرة واحدة، ويحتمل الزيادة، والتقليل أنسب وأقوى.

أما إذا قلنا: "ضرب" بتشديد الراء، فلا يقال إلا لمن كثر ذلك منه. فقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 3] يشير إلى تفصيل المنزل وتنجيمه بحسب الدعاوى، وأنه لم ينزل دفعة واحدة. أما لفظ (أنزل) فلا يعطى ذلك إعطاء نزل، وإن كان محتملا. وكذا جرى في أحوال هذه الكتب، فإن التوراة إنما أوتيها موسى ﷺ جملة واحدة في وقت واحد وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 145] الآية أي المجموع، وأما الكتاب العزيز فنزل مقسطا من لدن ابتداء الوحي وقوله ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] إلى آخر عمره ﷺ ونزول قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: 281]، ولنزوله مقسطا ما قال الكفار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ فقال تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ

(638) تاج العروس 30 / 479، وينظر معه للفائدة ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد للإمام الحافظ ابي جعفر الغرناطي1 / 103-104.

عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء: 136] وهو القرآن ثم قال: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ والمراد التوراة، فورد ذكر التوراة فجاء كما ورد حين أفصح بذكر أسمائهم في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 3] ثم قال: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، وحيث يذكر أحد هذه الكتب مفردا عن غيره أو بغير الألف واللام العهدية فيأتى بلفظ (أنزل) فيهما وإن أريدا معا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: 59] ومنه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4]، وهذا كثير في القرآن حيث يعبر عن ذلك بـ (ما) وإن كانت موصولة فليس فيها من العهد ما في "الذي" وفي "الألف واللام" ولا وقع الإفصاح باسم المنزل، وهذا فرق واضح لأن "ما" تفارق الموصولية فتخرج إلى الإبهام فلا تكون فيها عهدية، أما "الذي" فلا تفارق ولا تخرج، فالعهدية فيها لازمة. وكذا اذا ذكر أحد هذه الكتب مفردا عن غيره لم ينكر وروده بلفظ (أنزل) و (نزل) لأنهما يكونان بمعنى واحد كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1]، وأما حيث يجتمع ذكرهما مفصحا باسم كل واحد أو بأداة العهد كما تقدم، فلا يكون إلا على ما تقرر من حيث أن لفظ التضعيف أقوى من إعطاء معنى التنجيم والتفصيل كما تقدم، وهذا مطرد على كثرة ما ورد منه وتكرر.

ولم يرد إنزال التوراة بالتضعيف إلا في قوله تعالى: (من قبل أن تنزل التوراة)"[639].



(639) ملاك التأويل 1 / 103- 104.

سورة البينة

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [الآية: 1].

إن قيل: لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أوّلا، ثم أفرد أهل الكتاب في قوله: (وما تفرّق الّذين أوتوا الكتاب)؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف". انتهى(640).

فإن قيل: ما الفائدة في تقديم أهل الكتاب في الكفر على المشركين حيث قال: (لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين)؟

قال الإمام الرازي رحمه الله: "إن الواو لا تفيد الترتيب، ومع هذا ففيه فوائد:

أحدها: أن السورة مدنية، فكأن أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر. وثانيها: أنهم كانوا علماء بالكتب، فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد -ﷺ- أتم فكان إصرارهم على الكفر أقبح. وثالثها: أنهم لكونهم علماء يقتدي غيرهم بهم فكان كفرهم أصلًا لكفر غيرهم، فلهذا قدموا في الذكر. ورابعها: أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم، فقدموا في الذكر.

فإن قيل: لم قال: (من أهل الكتاب) ولم يقل: "من اليهود والنصارى"؟ الجواب: لأن قوله: (من أهل الكتاب) يدل على كونهم علماء، وذلك يقتضي إما مزيد تعظيم فلا جرم ذكروا بهذا اللقب دون اليهود والنصارى، أو لأن كونه عالما يقتضي مزيد قبح في كفره. فذكروا بهذا الوصف تنبيهًا على تلك الزيادة من العقاب"(641).

---

(640) تفسير الكشاف 4 / 782.

(641) مفاتيح الغيب (32 / 39).

سورة الزلزلة

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الآيات: 1، 2].

إن قيل: ما معنى (زلزالها) بالإضافة؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة ومشيئة الله، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده. ونحوه قولك: "أكرم التقي إكرامه، وأهن الفاسق إهانته"، تريد: ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة. أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه". انتهى(642).

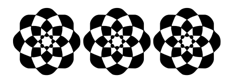
قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الآيات: 4، 5].

إن قيل: لم قال: (أوحى لها) ولم يقل: أوحى إليها؟

قال الإمام الرازي رحمه الله: "فيه وجهان: الأول: قال أبو عبيدة: (أوحى لها) أي: أوحى إليها. وأنشد العجاج:

الحمد لله الذي استقلت	بإذنه السماء واطمأنت
بإذنه الأرض فما تعنت	وحى لها القرار فاستقرت

الثاني: لعله إنما قال: (لها) أي فعلنا ذلك لأجلها، حتى تتوسل الأرض بذلك إلى التشفي من العصاة"(643).



(642) تفسير الكشاف 4 / 783.

(643) مفاتيح الغيب (32 / 57). وقول العجاج: "وحى" أي: أوحى. فالعرب تقول أوحى ووحى. (لسان العرب (15 / 379)).

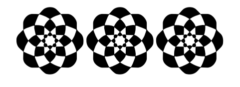
سورة العاديات

قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ [الآيات: 1 – 4].

إن قيل: علام عطف (فأثرن)؟ قال الإمام الزمخشري رحمه الله: "عطف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه، لأنّ المعنى: واللاتي عدون فأورين، فأغرن فأثرن"[644].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [الآية: 9].

إن قيل: لم قال: (بعثر ما في القبور) ولم يقل: من في القبور؟ ثم إنه – تعالى – لما قال: (ما في القبور) ما الحكمة في قوله بعدها: (إنّ ربّهم بهم يومئذٍ لخّبير)؟ فالجواب عن الأول: "إن ما في الأرض غير المكلفين أكثر، فأخرج الكلام على الأغلب، أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء، بل يصيرون كذلك بعد البعث، فلذلك كان الضمير الأول غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء". قاله الشيخ ابن عادل رحمه الله[645].



(644) تفسير الكشاف 4 / 788.
(645) اللباب لابن عادل 20 /467.

سورة القارعة

قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)﴾.

إن قيل: هاهنا قال: (ومآ أدراك ما القارعة)، ثم قال في آخر السورة: (فأمّه هاوية ومآ أدراك ما هيه)، ولم يقل: وما أدراك ما هاوية؟

أجاب الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس أما كونها هاوية فليس كذلك فظهر الفرق بين الموضعين وثانيها أن ذلك التفصيل لا سبيل لأحد إلى العلم به إلا بأخبار الله وبيانه لأنه بحث عن وقوع الوقعات لا عن وجوب الواجبات فلا يكون إلى معرفته دليل إلا بالسمع"[646].

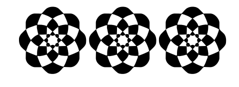
قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [الآية: 4].

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن قيل: الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار، فكيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معًا؟ قلنا: شبه الواحد بالصغير والكبير، لكن في وصفين. أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأخرى، وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع. ويحتمل أن يقال: إنها تكون كبارًا أولًا كالجراد، ثم تصير صغارًا كالفراش بسبب احتراقهم بحر الشمس. وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهًا أخرى، أحدها ما روي أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: "الناس عالم ومتعلم وسائر الناس همج رعاع"[647]، فجعلهم الله في الأخرى كذلك (جزاء

(646) مفاتيح الغيب (32 / 68).

(647) الرواية الصحيحة: "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالما أو متعلما" رواه الترمذي والن ماجه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر تفصيل ذلك في السلسلة الصحيحة (6 / 296) للشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، أما ما ذكره الإمام الرازي هنا فموقوف عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. والله أعلم.

وفاقًا) وثانيها: أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه فقال: (كالفراش) لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش، لأن الفراش لا يعذب، وهؤلاء يعذبون ونظيره: (كالانعام بل هم أضلّ) الآية". انتهى[648].



(648) مفاتيح الغيب (32 / 69).

سورة التكاثر

قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [الآيات: 1، 2].

إن قيل: الزائر هو الذي يزور ساعة ثم ينصرف، والميت يبقى في قبره فكيف يقال: إنه زار القبر؟ والثاني أن قوله (حتّى زرتم المقابر) إخبار عن الماضي فكيف يحمل على المستقبل؟

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللهُ: "الجواب عن الأول: أنه قد يمكث الزائر لكن لا بد له من الرحيل وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب.

وعن الثاني: أن المراد من كان مشرفًا على الموت لكبر أو لغيره كما يقال: "إنه على شفير قبره"، وإما أن المراد من تقدمهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 61]"[649].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [الآية: 8].

إن قيل: ما النعيم الذي يسئل عنه الإنسان ويعاتب عليه؟ فما من أحد إلا وله نعيم؟ قال الإمام الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: "هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم والعمل، ولا يحمل نفسه مشاقهما، فأما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده، وتقوّى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل، وكان ناهضا بالشكر: فهو من ذاك بمعزل، وإليه أشار رسول الله ﷺ فيما يروى: أنه أكل هو وأصحابه تمرا وشربوا عليه ماء فقال: «**الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين**»"[650].

---

(649) مفاتيح الغيب (32 / 74).

(650) تفسير الكشاف 4 / 793 أما الحديث فقد ضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ انظر الكلم الطيب (1 / 151)، والصحيح ما جاء عن عبدالله بن الزبير بن العوام عن أبيه قال لما نزلت هذه الآية (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قال الزبير: يا رسول الله، فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: "أما إنه سيكون". رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن. وقوله ص ﷺ لأبي بكر =

سورة العصر

قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)﴾.

إن قيل: لم قال الشافعي ﷺ: "لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم"؟

الجواب: قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ مبينا صحة هذه القوله ومؤكدا لها: "وهو كما قال –أي الشافعي– فإنّ الله تعالى أخبر أنّ جميع النّاس خاسرون إلّا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا؛ ومع غيره موصيًا بالحقّ موصيًا بالصّبر. وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصّالح سببًا لعلوّ الدّرجة وعظيم الأجر؛ كما سئل النّبيّ ﷺ: أيّ النّاس أشدّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثمّ الصّالحون؛ ثمّ الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرّجل على حسب دينه. فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقّة خفّف عنه. ولا يزال البلاء بالمؤمن حتّى يمشي على وجه الأرض وليس عليه خطيئة "، وحينئذٍ فيحتاج من الصّبر ما لا يحتاج إليه غيره: وذلك هو سبب الإمامة في الدّين؛ كما قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمّةً يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون). فلا بدّ من الصّبر على فعل الحسن المأمور به وترك السّيّئ المحظور؛ ويدخل في ذلك الصّبر على فعل الأذى وعلى ما يقال؛ والصّبر على ما يصيبه من المكاره؛ والصّبر عن البطر عند النّعم: وغير ذلك من أنواع الصّبر"[651].

قال الإمام ابن القيم ﵀: "بيان ذلك –أي ما قاله الشافعي–، أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله. إحداها معرفة الحق، الثانية عمله به، الثالثة تعليمه من لا يحسنه، الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه. فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد (في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، وهم الذين عرفوا الحق وصدعوا به،

=

وعمر ﷺ: "والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم". رواه مسلم في صحيحه والتبريزي في المشكاة والحافظ المنذري في الترغيب والترهيب.

(651) مجموع الفتاوى 28 / 152- 153.

فهذه مرتبة. (وعملوا الصالحات) وهم الذين عملوا بما علموه من الحق، فهذه مرتبة أخرى (وتواصوا بالحق) وصى به بعضهم بعضا، تعليما وإرشادا. فهذه مرتبة ثالثة، (وتواصوا بالصبر) صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات، فهذه مرتبة رابعة. وهذانهاية الكمال، فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه، شافيا من كل داء، هاديا الى كل خير"(652).

فإن قيل: لم قدم هنا الحق وأخر الصبر، في حين قدم الصبر على الرحمة في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾ [البلد: 12 - 18].

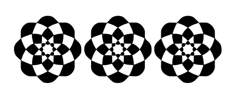
الجواب -والله أعلم-: أنه في سورة البلد تقدم ذكر اقتحام العقبة، وهي: (**فكّ رقبةٍ (13) أو إطعام في يومٍ ذي مسغبةٍ (14) يتيمًا ذا مقربةٍ (15) أو مسكينًا ذا متربةٍ**) وهذه الصفات تتطلب الصبر والرحمة بالعبد واليتيم والمسكين، فجمع بينهما لأنهما لا يجتمعان دائما، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "(ثمّ كان من الّذين آمنوا وتواصوا بالصّبر وتواصوا بالمرحمة) فذكر سبحانه التواصي بالصّبر والمرحمة. والنّاس "أربعة أقسامٍ": منهم من يكون فيه صبر بقسوة. ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع. ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الّذي يصبر على ما يصيبه ويرحم النّاس"(653). انتهى.

وأما في سورة العصر، فأخر ذكر الصبر، لأن التواصي بالحق يترتب عليه الأذى ولابد، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿**يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ**

(652) مفتاح دار السعادة 1 / 56-57.

(653) مجموع الفتاوى 10 / 47.

﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 17]، فرتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الصبر على ما سيصيبه من أذى الناس، فمن تيقن ذلك هان عليه ما يلاقي من أذى ونفرة. كما يروى أن رجلا قال لأويس القرني رحمه الله[654]: يا أويس كيف أصبحت؟ أو قال: كيف أمسيت؟ قال: "أحمد الله على كل حال، وما تسأل عن حال رجل إذا هو أصبح ظن أنه لا يمسي، وإذا أمسى ظن أنه لا يصبح، إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحًا، وإن حق الله عز وجل في مال المسلم لم يدع له في ماله فضة ولا ذهبًا، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع لمؤمن صديقًا، نأمر بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك من الفاسقين أعوانًا، حتى -والله لقد- قذفوني بالعظائم، وأيم الله لا أدع أن أقوم لله فيهم بحقه، ثم أخذ الطريق"[655].



(654) أويس بن عامر بن جزء بن مالك المرادي القرني الزاهد سيد التابعين، قتل يوم صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة سبع وثلاثين، أسلم على عهد رسول الله ﷺ ومنعه من القدوم عليه بره بأمه، وأخبر رسول الله ﷺ وأمر من أدركه من الصحابة أن يطلبوا منه الاستغفار لهم وقال: هو خير التابعين. انظر الوافي بالوفيات (3 / 319) والطبقات الكبرى (6/ 204).

(655) تفسير التستري 2 / 350.

سورة الهمزة

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الآية: 1].

إن قيل: لم قال: (ويل) منكرًا، وفي موضع آخر: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 18]، معرفًا؟

قال الإمام الرازي رحمه الله: "لأن ثمة قالوا: ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 14، 46]، فقال: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ [الأنبياء: 18] وهاهنا نكر، حتى لا يعلم كنهه إلا الله تعالى"(656).

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الآية: 2].

إن قيل: ما علاقة وصف الهماز اللماز بجمع المال وعدّه؟ قال الشيخ إسماعيل حقي رحمه الله: "قوله تعالى: (الذى جمع مالا) بدل من كل، كأنه قيل: "ويل للذى جمع مالا "، وإنما وصفه الله بهذا الوصف المعنوي لأنه يجري مجرى السبب للهمز واللمز من حيث أنه أعجب بنفسه مما جمع من المال، وظن أن كثرة المال سبب لعز المرء وفضله، فلذا استنقص غيره، وإنما لم يجعل وصفا نحويا ل- (كل) لأنه نكرة لا يصح توصيفها بالموصولات، وتنكير (مالا) للتفخيم والتكثير الموافق لقوله تعالى: (وعدده) أي عدّه مرة بعد أخرى من غير أن يؤدي حق الله منه"(657).

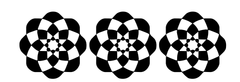
قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الآية: 3].

إن قيل: ما الحكمة في إظهار ضمير (المال) في الآية هنا وقد ذكر قبلها، فهلا قال: "الذي جمع مالا وعدده، يحسب أنه يخلده"، فيعود ضمير الهاء هنا إلى المال المقدم ظهوره؟

قال الشيخ إسماعيل حقي رحمه الله: "قوله تعالى: (يحسب أن ماله أخلده) إظهار المال لزيادة التقرير أي: يعمل من تشييد البنيان وإيثاقه بالصخر والآجر وغرس الأشجار وكرى الأنهار، عمل من يظن أنه لا يموت

(656) مفاتيح الغيب 86/32.
(657) تفسير روح البيان (17 / 417).

بل ماله يبقيه حيا، فالحسبان ليس بحقيقي بل محمول على التمثيل. وقال أبو بكر بن طاهر رحمه الله: يظن أنه ماله يوصله الى مقام الخلد، وإنما قال: (أخلده) ولم يقل يخلده لأن المراد أن هذا الانسان يحسب أن المال قد ضمن له الخلود وإعطاء الأمان من الموت، فكأنه حكم قد فرغ منه ولذلك ذكره بلفظ الماضي". انتهى[658].



(658) المصدر نفسه17 / 418).

سورة الفيل

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الآية: 1].

إن قيل: لم قال: (ألم تر) مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل؟

الجواب: قال الإمام الرازي ﷺ: "المراد من الرؤية العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر فكان العلم الحاصل به ضروريًا مساويًا في القوة والجلاء للرؤية، ولهذا السبب قال لغيره على سبيل الذم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: 31]، لا يقال: فلم قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]، لأنا نقول: الفرق أن ما لا يتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم لكونه قادرًا، وأما الذي يتصور إدراكه، كفرار الفيل، فإنه يجوز أن يستعمل فيه الرؤية.

السؤال الثاني: لم قال: (ألم تر كيف فعل ربّك) ولم يقل: ألم تر ما فعل ربك؟ الجواب: لأن الأشياء لها ذوات، ولها كيفيات باعتبارها يدل على مداومتها وهذه الكيفية هي التي يسميها المتكلمون وجه الدليل، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: 6] ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانت دالة على شرف محمد ﷺ". انتهى كلامه ﷺ(659).

إن قيل: لم قال: (أصحاب الفيل) ولم يقل: أرباب الفيل أو ملاك الفيل؟ قال الإمام الرازي ﷺ: "لأن الصاحب يكون من الجنس، فقوله: (أصحاب الفيل) يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمية وعدم الفهم والعقل، بل فيه دقيقة، وهي: أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين، فيقال: للأدون إنه صاحب الأعلى، ولا يقال: للأعلى إنه صاحب الأدون، ولذلك يقال: لمن صحب الرسول عليه السلام: إنهم الصحابة، فقوله سبحانه: (أصحاب الفيل) يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حال وأدون منزلة من الفيل، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179] ومما يؤكد ذلك أنهم كلما وجهوا

(659) تفسير الرازي 17 / 211- 212.

الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه، كأنه كان يقول: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، عزمي حميد فلا أتركه"، وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية، فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالًا منهم"[660].

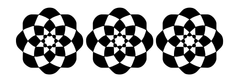
قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الآية: 2].

إن قيل: الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية، فلم سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت؟

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نعم، لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر، لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته"[661].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الآية: 3].

إن قيل: لم قال: (طيرًا) على التنكير؟ قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إما للتحقير، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر، أو للتفخيم كأنه يقول: طيرًا وأي طير، ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل"[662].



(660) تفسير الرازي 17 / 213.
(661) تفسير الرازي 17 / 214.
(662) تفسير الرازي 17 / 215.

سورة قريش

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3)﴾.

إن قيل: لم دخلت الفاء في قوله: (فليعبدوا)؟ قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لما في الكلام من معنى الشرط، وذلك لأن نعم الله عليهم لا تحصى، فكأنه قيل: إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة"(663).

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)﴾.

إن قيل: العبادة إنما وجبت لأنه تعالى أعطى أصول النعم، والإطعام ليس من أصول النعم، فلم علل وجوب العبادة بالإطعام؟

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من وجوه أحدها: أنه تعالى لما ذكر إنعامه عليهم بحبس الفيل وإرسال الطير وإهلاك الحبشة، وبين أنه تعالى فعل ذلك لإيلافهم، ثم أمرهم بالعبادة، فكان السائل يقول: لكن نحن محتاجون إلى كسب الطعام والذب عن النفس، فلو اشتغلنا بالعبادة فمن ذا الذي أيطعمنا؟ فقال: الذي أطعمهم من جوع قبل أن يعبدوه، ألا يطعمهم إذا!

وثانيها: أنه تعالى بعد أن أعطى العبد أصول النعم أساء العبد إليه، ثم إنه يطعمهم مع ذلك، فكأنه تعالى يقول: إذا لم تستح من أصول النعم ألا تستحي من إحساني إليك بعد إساءتك.

وثالثها: إنما ذكر الإنعام، لأن البهيمة تطيع من يعلفها، فكأنه تعالى يقول: لست دون البهيمة"(664).

(663) تفسير الرازي 17 / 219.

(664) المصدر نفسه 17 / 224.

فإن قيل: ما الفائدة في قوله: (من جوعٍ)؟ قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه فوائد أحدها: التنبيه على أن أمر الجوع شديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: 28]، وقوله ﷺ: "من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"[665].

وثانيها: تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة، وهي الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة وثالثها: التنبيه على أن خير الطعام ما سد الجوعة، لأنه لم يقل: وأشبعهم لأن الطعام يزيل الجوع، أما الإشباع فإنه يورث البطنة.

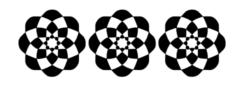
فإن قيل: لم قال: (من جوع)، (من خوف) على سبيل التنكير؟ الجواب: المراد من التنكير التعظيم. أما الجوع فلما روينا: أنه أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة. وأما الخوف، فهو الخوف الشديد الحاصل من أصحاب الفيل، ويحتمل أن يكون المراد من التنكير التحقير، يكون المعنى أنه تعالى لما لم يجوز لغاية كرمه إبقاءهم في ذلك الجوع القليل والخوف القليل، فكيف يجوز في كرمه لو عبدوه أن يهمل أمرهم، ويحتمل أن يكون المراد أنه: أطعمهم مّن جوعٍ دون جو، وآمنهم من خوف دون خوف، ليكون الجوع الثاني، والخوف الثاني مذكرًا ما كانوا فيه أولًا من أنواع الجوع والخوف، حتى يكونوا شاكرين من وجه، وصابرين من وجه آخر، فيستحقوا ثواب الخصلتين"[666].

إن قيل: إن الله تعالى إنما أطعمهم وآمنهم إجابة لدعوة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، أما في الإطعام فهو عند قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 126] وأما الأمان فهو قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، وإذا كان كذلك، كان ذلك منة على إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين؟

---

(665) رواه الترمذي وابن ماجه والبخاري في الأدب وحسنه الألباني السلسلة الصحيحة (5 / 317).
(666) تفسير الرازي 17 / 225.

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الله تعالى لما قال: (﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال إبراهيم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فقال الله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124] فنادى إبراهيم بهذا الأدب، فحين قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: 126] قيده بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ﴾ فقال الله تعالى: لا حاجة إلى هذا التقيد، بل ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾، فكأنه تعالى قال: أما نعمة الأمان فهي دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقيًا، وأما نعمة الدنيا فهي تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح، وإن كان كذلك، كان إطعام الكافر من الجوع، وأمانه من الخوف إنعامًا من الله ابتداء عليه، لا بدعوة إبراهيم، فزال السؤال"[667].



(667) تفسير الرازي 17 / 226.

سورة الماعون

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الآيات: 4، 5].

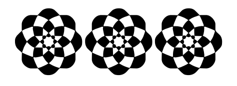
إن قيل: أيّ فرق بين قوله تعالى: (عن صلاتهم) وبين لو قال: "في صلاتهم"؟

قال الإمام الزمخشري ﷺ: "معنى (عن): أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين.

ومعنى (في): أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم، وكان رسول الله ﷺ يقع له السهو في صلاته فضلا عن غيره، ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم. وعن أنس رضى الله عنه: "الحمد لله على أن لم يقل "في صلاتهم"، وقرأ ابن مسعود: (لاهون)". انتهى[668].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الآيات: 6، 7].

إن قيل: ما المناسبة بين قوله (يراءون) وبين قوله (ويمنعون الماعون)؟ قال الإمام الرازي ﷺ: "المحققون في الملاءمة بين قوله: (يراءون) وبين قوله: (ويمنعون الماعون) كأنه تعالى يقول: الصلاة لي والماعون للخلق، فما يجب جعله لي يعرضونه على الخلق، وما هو حق الخلق يسترونه عنهم، فكأنه لا يعامل الخلق والرب إلا على العكس!"[669].



(668) تفسير الكشاف 4 / 805.
(669) مفاتيح الغيب (32 / 109).

سورة الكوثر

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)﴾.

إن قيل: ما الحكمة في قوله: (أعطيناك الكوثر) ولم يقل: آتيناك الكوثر؟ قال الإمام الرازي رحمه الله: "السبب فيه أمران الأول: أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجبًا وأن يكون تفضلًا، وأما الإعطاء فإنه بالتفضل أشبه فقوله: (إنّا أعطيناك الكوثر) يعني هذه الخيرات الكثيرة وهي الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل في الدنيا والآخرة، محض التفضل منا إليك وليس منه شيء على سبيل الاستحقاق والوجوب، وفيه بشارة من وجهين:

أحدهما: أن الكريم إذا شرع في التربية على سبيل التفضل، فالظاهر أنه لا يبطلها، بل كان كل يوم يزيد فيها.

الثاني: أن ما يكون سبب الاستحقاق، فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق، وفعل العبد متناه، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهيًا، أما التفضل فإنه نتيجة كرم الله غير متناه، فيكون تفضله أيضًا غير متناه، فلما دل قوله: (أعطيناك) على أنه تفضل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبدًا.

فإن قيل: أليس قال: ﴿آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]؟ قلنا: الجواب من وجهين الأول: أن الإعطاء يوجب التمليك، والملك سبب الاختصاص، والدليل عليه أنه لما قال سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: 35] قال له ربه جل وعلا: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 39] (هب لي ملكًا)، ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال: الأمة تكون أضيافًا له، أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك، فلهذا قال في القرآن: (ءاتيناك) فإنه لا يجوز للنبي أن يكتم شيئًا منه. الثاني: أن الشركة في القرآن شركة في العلوم ولا عيب فيها، أما الشركة في النهر، فهي شركة في الأعيان وهي عيب.

الوجه الثاني: في بيان أن الإعطاء أليق بهذا المقام من الإيتاء، هو أن الإعطاء يستعمل في القليل والكثير، قال الله تعالى: ﴿**وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى**﴾ [النجم: 34] أما الإيتاء، فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، قال الله تعالى: ﴿**وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**﴾ [البقرة: 251]، ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا**﴾ [سبأ: 10] والأتيّ السيل المنصب، إذا ثبت هذا فقوله: (إنّا أعطيناك الكوثر) يفيد تعظيم حال محمد ﷺ من وجوه أحدها: يعني هذا الحوض كالشيء القليل الحقير بالنسبة إلى ما هو مدخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة، فهو يتضمن البشارة بأشياء هي أعظم من هذا المذكور.

وثانيها: أن الكوثر إشارة إلى الماء، كأنه تعالى يقول: الماء في الدنيا دون الطعام، فإذا كان نعيم الماء كوثرًا، فكيف سائر النعيم.

وثالثه: أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء.

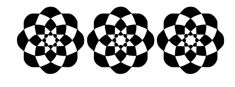
ورابعها: كأنه تعالى يقول: هذا الذي أعطيتك، وإن كان كوثرًا لكنه في حقك إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقك، وفي العادة أن المهدي إذا كان عظيمًا فالهدية وإن كانت عظيمة، إلا أنه يقال: إنها حقيرة أي هي حقيرة بالنسبة إلى عظمة المهدى له فكذا ههنا.

وخامسها: أن نقول: إنما قال فيما أعطاه من الكوثر: (أعطيناك) لأنه دنيا، والقرآن إيتاء لأنه دين.

وسادسها: كأنه يقول: جميع ما نلت مني عطية وإن كانت كوثرًا إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر، أن تبقى مظفرًا وخصمك أبتر، فإنا أعطيناك بالتقدمة هذا الكوثر، أما الذكر الباقي والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك: (فصلّ لربّك وانحر) أي فاعبد لي وسل الظفر بعد العبادة، فإني أوجبت على كرمي أن بعد كل فريضة دعوة مستجابة، كذا روي في الحديث المسند[670]،

(670) يشير إلى ما جاء عن أبي أمامة قال: قيل: يا رسول الله أي الدعاء أسمع؟ قال: "جوف الليل الآخر ودبر الصلوات المكتوبات". رواه الترمذي، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (1 / 212) وغيره.

فحينئذ أستجيب فيصير خصمك أبتر وهو الإيتاء، فهذا ما يخطر بالبال في تفسير قوله تعالى: (إنّا أعطيناك)"[671].



(671) تفسير الرازي 17 / 240 وهناك فوائد أخرى لم أذكرها لكثرتها، ينظر اللباب في علوم الكتاب لابن عادل رحمه الله 20 / 525 و526.

سورة الكافرون

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الآيات: 1 – 5].

إن قيل: ما الحكمة في تكرير هذا المعنى بقوله: (ولا أنا عابد ما عبدتم)؟

فالجواب من وجهين: أحدهما قاله الزمخشري: وهو أن قوله: (لا أعبد ما تعبدون) يريد في الزمان المستقبل. وقوله: (ولا أنا عابد ما عبدتم) يريد به: فيما مضى أي: ما كنت قط عابدا ما عبدتم فيما سلف، فكيف تطلبون ذلك مني الآن.

الثاني قاله ابن عطية وهو: أن قوله (لا أعبد ما تعبدون) لما كان يحتمل أن يراد به زمان الحال خاصة قال (ولا أنا عابد ما عبدتم) أي أبدا ما عشت، لأن لا النافية إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال بقوله: (لا أعبد) لا يحتمل أن يراد به الحال. ويحتمل عندي – القائل ابن جزي – أن يكون قوله: (لا أعبد ما تعبدون) يراد به في المستقبل على حسب ما تقتضيه لامن الاستقبال، ويكون قوله: (ولا أنا عابد ما عبدتم) يريد به في الحال. فيحصل من المجموع نفي عبادته للأصنام في الحال والاستقبال. ومعنى الحال في قوله: (ولا أنا عابد ما عبدتم) ثم أظهر من معنى المضي الذي قاله الزمخشري. ومن معنى الاستقبال، فإن قولك: "ما زيد بقائم"بنفي الجملة الاسمية يقتضي الحال[672].

وقال الإمام ابن كثير ﷺ في تفسيره: "ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد، كقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5، 6]، وكقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: 6، 7] وحكاه بعضهم –كابن الجوزي، وغيرهعن ابن قتيبة، فالله أعلم. فهذه ثلاثة أقوال: أولها ما ذكرناه أولا. الثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن

(672) المصدر نفسه (3 / 366).

المراد: (لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) في الماضي، (ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد) في المستقبل. الثالث: أن ذلك تأكيد محض.

وثم قول رابع، نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه(673)، وهو أن المراد بقوله: (لا أعبد ما تعبدون) نفى الفعل لأنها جملة فعلية، (ولا أنا عابد ما عبدتم) نفى قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل، وكونه قابلا لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضا. وهو قول حسن أيضا، والله أعلم"(674).

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

إن قيل: لم قال: (ما أعبد) فجاء بحرف: (ما) دون (من) التي هي موضوعة لمن يعقل؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن ذلك لمناسبة قوله: (لا أعبد ما تعبدون) فإن هذا واقع على الأصنام التي لا تعقل ثم جعل (ما أعبد) على طريقته لتناسب اللفظ.

الثاني: أنه أراد الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق. قاله الزمخشري.

الثالث: أن "ما" مصدرية والتقدير: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي. وهذا ضعيف.

فإن قيل: ما الحكمة في تكرير هذا المعنى واللفظ فقال بعد ذلك: (ولا أنتم عابدون ما أعبد) مرة أخرى؟

فالجواب من وجهين:

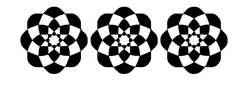
أحدهما قول الزمخشري وهو: أن الأول في المستقبل، والثاني فيما مضى.

---

(673) ينظر مجموع الفتاوى (16 / 553).

(674) تفسير ابن كثير (8 / 508).

والآخر قاله ابن عطية وهو: أن الأول في الحال، والثاني في الاستقبال، فهو حتم عليهم أن لا يؤمنوا أبدا[675].



(675) التسهيل (3 / 367).

سورة النصر

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [الآية: 1].

إن قيل: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر؟

قال الإمام الرازي رحمه الله: "الجواب من وجوه: أحدها أن النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقًا، والظاهر أن النصر كالسبب للفتح، فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه. وثانيها: يحتمل أن يقال: النصر كمال الدين، والفتح الإقبال الدنيوي الذي هو تمام النعمة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) الآية". انتهى[676].

فإن قيل: النصر لا يكون إلا من الله ﷻ قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 126] [الأنفال: 10]، فما الفائدة في هذا التقييد، وهو قوله: (نصر الله)؟

قال الإمام الرازي رحمه الله: الجواب: معناه نصر لا يليق إلا بالله ولا يليق أن يفعله إلا الله، أو لا يليق إلا بحكمته. ويقال: هذا صنعة زيد، إذا كان زيد مشهورًا بإحكام الصنعة. والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة، فكذا ههنا. أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم: (متى نصر الله)؟ فيقول هذا الذي سألتموه"[677].

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [الآية: 3].

إن قيل: لم أمر الله نبيه بالتسبيح والحمد والاستغفار عند رؤية النصر والفتح وعند اقتراب أجله؟

فالجواب: أنه أمر بالتسبيح والحمد ليكون شكرا على النصر والفتح وظهور الإسلام. وأمره بذلك وبالاستغفار عند اقتراب أجله ليكون ذلك زاد للآخرة وعدة للقاء الله[678].

---

(676) مفاتيح الغيب (32 / 140).
(677) المصدر نفسه (32 / 140).

قلت: وقد تكون النكتة في أمره بالاستغفار عند اقتراب أجله، ونهاية دعوته، كشأن سائر خواتيم الأعمال والطاعات. كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارا عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده. وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجل المواقف وأفضلها، فقال تعالى: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [البقرة: 198، 199] وقال تعالى: ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران: 17] قال الحسن البصري رحمه الله: مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل.

وفي الصحيح أن النبي كان إذا سلم من الصلاة،استغفر ثلاثا ثم قال: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام". وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فرض الحج واقتراب أجله فقال في آخر سورة أنزلت عليه: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا). ومن ههنا فهم عمر وابن عباس رضي الله عنهم أن هذا أجل رسول الله، أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه، فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء فاجعل خاتمته الاستغفار.

كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل، وخاتمة الوضوء أيضا أن يقول بعد فراغه: "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين". فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لا جهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم". ا.هـ[679]

=

(678) التسهيل (3 / 369).

(679) ينظر مدارج السالكين (1 / 169).

سورة المسد

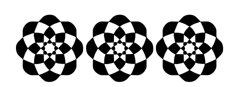
قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [الآية: 1].

إن قيل لم ذكره الله بكنيته دون اسمه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن كنيته كانت أغلب عليه من اسمه كأبي بكر وغيره ويقال إنه كني بأبي لهب لتلهب وجهه جمالا.

الثاني: أنه لما كان اسمه عبد العزى عدل عنه إلى الكنية.

الثالث: أنه لما كان من أهل النار واللهب كناه أبا لهب، وليناسب ذلك قوله: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: 3][680].



(680) التسهيل (3 / 369).

سورة الإخلاص

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾.

إن قيل: ما الحكمة في تقديم المجرور وهو (له) على اسم كان وخبرها، وشأن الظرف إذا وقع غير خبر أن يؤخر؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه قدم للاعتناء به والتعظيم،، لأنه ضمير الله تعالى وشأن العرب تقديم ما هو أهم وأولى.

والآخر: أن هذا المجرور به يتم معنى الخبر وتكمل فائدته، فإنه ليس المقصود نفي الكفؤ مطلقا، إنما المقصود نفي الكفؤ عن الله تعالى، فلذلك اعتنى بهذا المجرور الذي يحرز هذا المعنى فقدم.

فإن قيل: إن قوله: (قل هو الله أحد) يقتضي نفي الولد والكفؤ، فلم نص على ذلك بعده؟

فالجواب: أن هذا من التجريد، وهو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في عموم ما تقدم، كقوله تعالى: (وملائكته ورسله وجبريل وميكال) ويفعل ذلك لوجهين يصح كل واحد منهما هنا.

أحدهما: الاعتناء، ولا شك أن نفي الولد والكفؤ عن الله ينبغي الاعتناء به للرد على من قال خلاف ذلك من الكفار.

والآخر: الإيضاح والبيان، فإن دخول الشيء في ضمن العموم ليس كالنص عليه، فنص على هذا بيانا وإيضاحا للمعنى ومبالغة في الرد على الكفار وتأكيدا لإقامة الحجة عليهم[681].

(681) المصدر نفسه (3 / 374).

سورة الفلق

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4)﴾.

إن قيل: لم عرف النفاثات بالألف واللام ونكر ما قبله وهو (غاسق) وما بعده وهو (حاسد) مع أن الجميع مستعاذ منه؟

فالجواب: أنه عرف النفاثات ليفيد العموم، لأن كل نفاثة شريرة، بخلاف الغاسق والحاسد، فإن شرهما في بعض دون بعض[682].

قلت: فإن قيل: لم قال: (النّفّاثات) ولم يقل: النفاثين؟

فالجواب: لأن الموصوف محذوف تقديره: "النساء النفاثات"، والمراد بهن في الآية بنات لبيد بن الأعصم اليهودي فقد كن ساحرات، وأيضا فالنساء هن أكثر من يتعاطى للسحر والشعوذة، ولذلك لم يقل: "من شر النفاثين في العقد".

فإن قيل: لم قال (إذا وقب) و (إذا حسد) فقيد بإذا التي تقتضى تخصيص بعض الأوقات؟

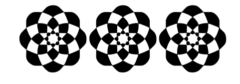
فالجواب: أن شر الحاسد ومضرته إنما تقع إذا أمضى حسده، فحينئذ يضر بقوله أو بفعله أو بإصابته بالعين، فإن عين الحسود قاتلة. وأما إذا لم يمض حسده ولم يتصرف بمقتضاه فشره ضعيف،ولذلك قال رسول الله ﷺ: "ثلاث لا ينجو منهن أحد، الحسد والظن والطيرة، فمخرجه من الحسد أن لا يبقى، ومخرجه من الظن أن لا يحقق، ومخرجه من الطيرة ألا يرجع"[683]. فلهذا خصه بقوله: (إذا وقب) فإن قيل إن قوله: (من شر ما خلق) عموم يدخل تحته كل ما ذكر بعده فلأي شيء ذكر ما بعده؟

---

(682) المصدر نفسه (3 / 377).

(683) قلت الحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة 3942، وقد كان ضعفه من قبل، ومتنه كالتالي " إذا ظننتم فلا تحققوا، وإذا حسدتم فلا تبغوا، وإذا تطيرتم فامضوا وعلى الله توكلوا، وإذا وزنتم فأرجحوا ". وأما ما ذكره صاحب التسهيل فهو بالمعنى.

فالجواب: أن هذا من التجريد للاعتناء بالمذكور بعد العموم، ولقد تأكد ما ذكر في هذه السورة بعد العموم بسبب السحر الذي سحر اليهود رسول الله ﷺ وشدة حسدهم له[684].



(684) التسهيل (3 / 378).

سورة الناس

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1)﴾.

إن قيل: لم أضاف الرب إلى الناس خاصة، وهو رب كل شيء؟

فالجواب: أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فخصهم بالذكر، لأنهم المعوذون بهذا التعويذ والمقصودون هنا دون غيرهم[685].

﴿مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3)﴾

هذا عطف بيان، فإن قيل: ما الحكمة في وصفه تعالى بـ: (رب)، ثم بـ: (ملك) ثم بـ: (إله)؟

فالجواب: أن هذا على الترتيب في الارتقاء إلى الأعلى، وذلك أن الرب قد يطلق على كثير من الناس فيقال: "فلان رب الدار"، وشبه ذلك. فبدأ به لاشتراك معناه.

وأما الملك، فلا يوصف به إلا آحاد من الناس وهم: الملوك. ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس، فلذلك جاء به بعد الرب.

وأما الإله، فهو أعلى من الملك، ولذلك لا يدعي الملوك أنهم آلهة[686]، فإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير. فلذلك ختم به.

---

(685) المصدر نفسه (3 / 378).

(686) قلت: هذا ليس على إطلاقه، فقد ادعى فرعون الألوهية، كما قال سبحانه إخبارا عنه: (قال لئن اتّخذت إلهًا غيري لأجعلنّك من المسجونين) [الشعراء: 29] وقال تعالى: (وقال فرعون يا أيّها الملأ ما علمت لكم من إلهٍ غيري فأوقد لي يا هامان على الطّين فاجعل لي صرحًا لعلّي أطّلع إلى إله موسى وإنّي لأظنّه من الكاذبين) [القصص: 38]، وهكذا أتباع فرعون في كل زمان يدعون الألوهية تارة بلسان القال، وتارة بلسان الحال.

فإن قيل: لما أظهر المضاف إليه وهو الناس في المرة الثانية والثالثة، فهلا أضمره في المرتين لتقديم ذكره في قوله (برب الناس)، أو هلا اكتفى بإظهاره في المرة الثانية؟

فالجواب: أنه لما كان عطف بيان حسن فيه البيان، وهو الإظهار دون الإضمار، وقصد أيضا الاعتناء بالمكرر ذكره، كقول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء يغص الموت ذا الغنى والفقيرا[687]

قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5)﴾.

إن قيل لم قال: (في صدور الناس) ولم يقل: "في قلوب الناس"؟

فالجواب: أن ذلك إشارة إلى عدم تمكن الوسوسة، وأنها غير حالة في القلب بل هي محومة في الصدر حول القلب[688].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فإن قيل: فإن كان أصل الشّرّ كلّه من الوسواس الخنّاس فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس النّاس، فإنّه تابع لوسواس الجنّ.

قيل: بل الوسوسة نوعان: نوع من الجنّ ونوع من نفوس الإنس. كما قال: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**﴾ [ق: 16] فالشّرّ من الجهتين جميعًا، والإنس لهم شياطين كما للجنّ شياطين، والوسوسة من جنس الوشوشة - بالشّين المعجمة - يقال: فلان يوشوش فلانًا وقد وشوشه إذا حدّثه سرًّا في أذنه، وكذلك الوسوسة ومنه: وسوسة الحليّ، لكن هو بالسّين المهملة أخصّ.

وربّ النّاس: الّذي يربّيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره، وهو ربّ العالمين كلّهم، فهو الخالق للجميع ولأعمالهم"[689].

---

(687) التسهيل (3 / 378).
(688) المصدر نفسه (3 / 380).

فإن قيل: لم ختم القرآن بالمعوذتين وما الحكمة في ذلك؟

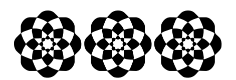
قال الإمام ابن جزي رحمه الله: "فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما كان القرآن أعظم النعم على عباده، والنعم مظنة الحسد فختم بما يطفيء الحسد من الإستعاذة بالله.

الثاني: يظهر لي، أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله ﷺ قال فيهما: "أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط"، كما قال في فاتحة الكتاب: "لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها"، فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها واختتم بسورتين لم ير مثلهما، ليجمع حسن الافتتاح والاختتام. ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام، إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها؟

الوجه الثالث: يظهر لي -أيضًا- أنه لما أمر القارىء أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة، وعند آخر ما يقرأ من القراءة، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء، وليكون القارىء محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيف لا رب غيره[690].

قلت: ولكن مسألة ترتيب السور فيها خلاف -كما ذكرنا-، بل يروى أن ابن مسعود رضي الله عنه كان لا يكتب المعوذتين[691]. وقد ذكرت هذه المسألة عند الحديث عن الحكمة في الافتتاح بالفاتحة دون سواها من السور، ولله الحمد والمنة.



=

(689) مجموع الفتاوى (17 / 516 - 517).

(690) التسهيل لعلوم التنزيل (3 / 380).

(691) مصنف ابن أبي شيبة (7 / 194) مسند أحمد (43 / 200)، فتح الباري لابن حجر (14 / 181) الإتقان (212/1 - 213).

الخاتمة:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على النبيِّ الأمين، محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمَّا بعد: فإن علوم القرآن وما يحويه من عجائب وحقائق وحجج، لا يمكن حصرها في تفسير واحد ولا في ألف تفسير، كما ولا يمكن لعالم -مهما أوتي من علم- أن يحيط بمعاني القرآن كله ولطائفه، ولكن يمكن أن يفتح -سبحانه- على من يشاء من عباده فيعطيه فهما لم يسبق إليه، كما في صحيح البخاري عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي بن أبي طالب: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة. قال قلت: "فما في هذه الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر"[692]. فهذا من فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم.

وما هذه اللطائف البيانية، والأجوبة الانتقائية، والنكت الإلهامية، التي جمعتها في هذا الكتاب إلا غيض من فيض، وبَرْضٌ مِنْ عِدٍّ. إذ تستحيل الإحاطة بها، كما قال الباقلاني: "وفي نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها، وتقصيها يطول، وعجائبها لا تنقضي، فمنها الكلام المغلق، والإشارات"[693].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فمن تدبر هذه المعاني اللطيفة تبين له بعض حكم القرآن وأسراره فتبارك الذي نزل الفرقان على عبده فإنه كتاب مبارك تنزيل من حكيم حميد لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء من ابتغى الهدى في غيره أضله الله ومن تركه من جبار قصمه الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو قرآن عجب يهدي إلى الرشد أنزله الله هدًى ورحمةً وشفاءً وبيانًا وبصائرَ

(692) أخرجه البخاري والترمذي وصححه والدارمي والطحاوي وابن أبي شيبة وابن الجارود والبيهقي وأحمد من طريق الشعبي عنه وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح). ينظر إرواء الغليل للشيخ الألباني رحمه الله (7 / 266).

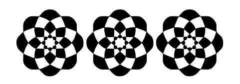
(693) إعجاز القرآن (1 / 209).

وتذكرةً، فالحمد لله ربِّ العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله"[694].

فما كان في هذا الكتاب من صوابٍ فمن الله تعالى، وما كان فيه من خطإٍ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله بريئان منه، وسبحان اللهِ وأعوذ بالله أن أكون من المتكلِّفين.

وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.



(694) مجموع الفتاوى (6 / 212).

مصادر الكتاب

- **القرآن العظيم.**
- **الإتقان في علوم القرآن**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ). المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة: 1394هـ - 1974 م.
- **اجتماع الجيوش الإسلامية**: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ). تحقيق: عواد عبد الله المعتق. الناشر: مطابع الفرزدق التجارية - الرياض. الطبعة: الأولى، 1408هـ / 1988م.
- **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: 354هـ). ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: 739 هـ). حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط. الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1988 م.
- **أحكام القرآن الكريم**: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: 321هـ). تحقيق: الدكتور سعد الدين أونال. الناشر: مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، استانبول الطبعة الأولى: (1416 هـ - 1995 م).
- **أحكام القرآن**: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: 543هـ). راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. ط: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.
- **إحياء علوم الدين**: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: 505هـ). الناشر: دار المعرفة - بيروت.
- **أخلاق أهل القرآن**: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: 360هـ). حققه وخرج أحاديثه: الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة الثالثة: 1424 هـ - 2003 م.

- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: 1420هـ)، إشراف: زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة: الثانية 1405 هـ – 1985م.
- **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1393هـ). دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان: (1415 هـ – 1995 م).
- **إعجاز القرآن للباقلاني**: أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (المتوفى: 403هـ). المحقق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف – مصر. الطبعة: الخامسة، 1997م.
- **إعراب القرآن وبيانه**: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: 1403هـ) الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية، (دار اليمامة، ودار ابن كثير – دمشق – بيروت).
- **إعراب القرآن**: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ). وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم. الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى: 1421 هـ.
- **الأعلام**: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ). الناشر: دار العلم للملايين. الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م.
- **اقتضاء العلم العمل**: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ). المحقق: محمد ناصر الدين الألباني. الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة: الرابعة، 1397هـ.
- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** (تفسير البيضاوي): ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ). المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الأولى – 1418 هـ.
- **البحر المحيط في التفسير**: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ). المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر/ بيروت الطبعة: 1420 هـ.

- **بدائع الفوائد**: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ). الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- **البرهان في علوم القرآن**: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957 م. الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ). المحقق: مجموعة من المحققين. الناشر: دار الهداية.
- **التبصرة**: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ). الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986 م.
- **التبيان في إعراب القرآن**: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى: 616هـ). المحقق: علي محمد البجاوي. الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- **التحرير والتنوير**: محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ). الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس. سنة النشر: 1984 هـ.
- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**: أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (المتوفى: 544هـ) محقق:ابن تاويت الطنجي، وعبد القادر الصحراوي، ومحمد بن شريفة، وسعيد أحمد أعراب. الناشر: مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب. الطبعة: الأولى.
- **التسهيل لعلوم التنزيل**: أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: 741هـ). المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي. الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت/ الطبعة: الأولى - 1416 هـ.
- **التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح**: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (المتوفى: 474هـ). المحقق: د. أبو لبابة حسين. الناشر: دار اللواء للنشر والتوزيع – الرياض. الطبعة: الأولى، 1406 – 1986.

- **تفسير التستري**: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (المتوفى: 283هـ). جمعها: أبو بكر محمد البلدي. المحقق: محمد باسل عيون السود. الناشر: منشورات محمد علي بيضون / دارالكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى - 1423 هـ.
- **تفسير القرآن** (اختصار لتفسير الماوردي): أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: 660هـ). المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي. الناشر: دار ابن حزم - بيروت.
- **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: 327هـ). المحقق: أسعد محمد الطيب. الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثالثة - 1419 هـ.
- **تفسير القرآن العظيم**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ). المحقق: سامي بن محمد سلامة. الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية 1420 هـ - 1999 م.
- **تقريب التهذيب**: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ). المحقق: محمد عوامة. الناشر: دار الرشيد – سوريا.
- **تهذيب التهذيب**: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ). الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند. الطبعة: الأولى، 1326هـ.
- **جامع البيان في تأويل القرآن**: محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ). المحقق: أحمد محمد شاكر. (مؤسسة الرسالة) الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.
- **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه** (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي. المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي). الطبعة: الأولى، 1422هـ.

● **الجامع لأحكام القرآن** (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة.

● **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**: أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة. الطبعة: الثانية، 1384هـ – 1964 م.

● **الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**: أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (المتوفى: 390هـ). المحقق: عبد الكريم سامي الجندي. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى 1426 هـ – 2005 م.

● **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: 430هـ). الناشر: السعادة – بجوار محافظة مصر، 1394هـ – 1974م.

● **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**: عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (المتوفى: 1335هـ). حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار – من أعضاء مجمع اللغة العربية. الناشر: دار صادر، بيروت. الطبعة: الثانية، 1413 هـ – 1993 م.

● **خواطر الشيخ الشعراوي**: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ). الناشر: مطابع أخبار اليوم

● **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756هـ). المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط. الناشر: دار القلم، دمشق.

● **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ). المحقق: مراقبة / محمد عبد المعيد ضان. الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر اباد/ الهند. الطبعة: الثانية، 1392هـ – 1972م.

- **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: 1393هـ). الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، توزيع: مكتبة الخراز - جدة. الطبعة: الأولى 1417 هـ - 1996 م.
- **ديوان الإسلام**: شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (المتوفى: 1167هـ). المحقق: سيد كسروي حسن. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، 1411 هـ - 1990 م.
- **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**: جار الله الزمخشري توفي 583 هـ. الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ). المحقق: علي عبد الباري عطية. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، 1415 هـ.
- **زاد المسير في علم التفسير**: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ). المحقق: عبد الرزاق المهدي. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة: الأولى - 1422هـ.
- **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ). الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة: الأولى.
- **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ). دار النشر: دار المعارف، الرياض - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م.
- **سنن ابن ماجه**: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

• **سنن أبي داود**: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: 275هـ). المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

• **سنن الترمذي**: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر. الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م.

• **سنن الدارمي**: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: 255هـ). تحقيق: حسين سليم أسد الداراني. الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 2000 م.

• **السنن الكبرى**: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ). المحقق: محمد عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنات. الطبعة: الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.

• **سير أعلام النبلاء**: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ). المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط. الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، 1405 هـ - 1985 م.

• **السيرة النبوية** (من البداية والنهاية لابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: 774هـ). تحقيق: مصطفى عبد الواحد. الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان. عام النشر: 1395 هـ - 1976 م.

• **شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**: ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى: 769هـ). المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه. الطبعة: العشرون 1400 هـ - 1980 م.

• **شرح العقيدة الطحاوية**: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: 792هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عبد الله بن المحسن التركي. الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت. الطبعة: العاشرة، 1417هـ – 1997م.

• **شعب الإيمان**: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: 458هـ). حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد. أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند. الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند. الطبعة: الأولى، 1423 هـ – 2003 م.

• **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. الناشر: دار العلم للملايين – بيروت. الطبعة الرابعة 1407 هـ – 1987 م.

• **صحيح الترغيب والترهيب**: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: 1420هـ). الناشر: مكتبة المعارف – الرياض. الطبعة: الخامسة.

• **صحيح الجامع الصغير وزياداته**: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ). الناشر: المكتب الإسلامي.

• **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ). مع الكتاب: أحكام محمد ناصر الدين الألباني.

• **صفة الصفوة**: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ). المحقق: أحمد بن علي. الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر. الطبعة: 1421هـ/2000م.

• **الصلاة وأحكام تاركها**: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ). الناشر: مكتبة الثقافة بالمدينة المنورة.

• **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم،. الأشقودري الألباني (المتوفى: 1420هـ). أشرف على طبعه: زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: المجددة والمزيدة والمنقحة.
الطبعة: الأولى، 1412 هـ.

• **الطبقات الكبرى**: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: 230هـ). تحقيق: محمد عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، 1410 هـ – 1990 م.

• **طريق الهجرتين وباب السعادتين**: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ). الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر. الطبعة: الثانية، 1394هـ.

• **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي (المتوفى: 744هـ). المحقق: محمد حامد الفقي. الناشر: دار الكاتب العربي – بيروت.

• **غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب**: محمد بن عُزير السجستاني، أبو بكر العُزيري (المتوفى: 330هـ)، المحقق: محمد أديب عبد الواحد جمران، الناشر: دار قتيبة – سوريا، الطبعة: الأولى، 1416 هـ – 1995.

• **الفائق في غريب الحديث والأثر**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ). المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: دار المعرفة – لبنان الطبعة: الثانية.

• **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعيالناشر: دار المعرفة – بيروت، 1379. رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

- **فتح الله الحميد المجيد**: الشيخ حامد بن محمد. قال العلامة بكر أبو زيد رحمه الله: "والمؤلف - رحمه الله تعالى - لا نعرف عنه شيئا أكثر مما ذكر، وبعد البحث علمت أنه من الشارقة في: الإمارات العربية المتحدة ". مقدمة تحقيق كتاب فتح الحميد المجيد صفحة 6 الطبعة الآولى دار المؤيد.
- **في ظلال القرآن**: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ). الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة. الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ.
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ). الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة: الثالثة - 1407 هـ.
- **الكلم الطيب**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ). تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الثالثة - 1977.
- **اللباب في علوم الكتاب**: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ). المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان. الطبعة: الأولى، 1419 هـ -1998م.
- **لسان العرب**: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: 711هـ). الناشر: دار صادر - بيروت. الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
- **مجاز القرآن**: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: 209هـ). المحقق: محمد فواد سزكين، الناشر: مكتبة الخانجي- القاهرة. الطبعة: 1381 هـ.
- **مجمع الأمثال**: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: 518هـ). المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: دار المعرفة - بيروت، لبنان.
- **مجموع الفتاوى**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ). المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. عام النشر: 1416هـ/1995م.

• **المحكم والمحيط الأعظم**: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: 458هـ] المحقق: عبد الحميد هنداوي. الناشر: دار الكتب العلمية / بيروت. الطبعة: الأولى، 1421 هـ- 2000م.

• **مختار الصحاح**: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ). المحقق: يوسف الشيخ محمد. الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا. الطبعة: الخامسة، 1420هـ / 1999م.

• **مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر**: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: 294هـ). اختصرها: العلامة أحمد بن علي المقريزي. الناشر: حديث أكادمي، فيصل اباد - باكستان. الطبعة: الأولى، 1408 هـ - 1988 م.

• **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ). المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة: الثالثة، 1416 هـ - 1996م.

• **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ). المحقق: فؤاد علي منصور. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.

• **المستدرك على الصحيحين**: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ). تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، 1411 - 1990.

• **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ). المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

• **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)**: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ). المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

• **مشكاة المصابيح**: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: 74هـ) المحقق: محمد ناصر الدين الألباني. الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة: الثالثة، 1985م.

• **المصنف في الأحاديث والآثار**: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: 235هـ). المحقق: كمال يوسف الحوت. الناشر: مكتبة الرشد – الرياض. الطبعة: الأولى، 1409هـ.

• **المصنف**: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: 211هـ). المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي. الناشر: المجلس العلمي- الهند يطلب من: المكتب الإسلامي – بيروت. الطبعة: الثانية، 1403هـ.

• **معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)**: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 510هـ). المحقق: عبد الرزاق المهدي. الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت. الطبعة: الأولى، 1420 هـ.

• **معاني القرآن**: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: 207هـ). المحقق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي. الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر. الطبعة: الأولى.

• **المعجم الكبير**: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ). المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة. الطبعة: الثانية.

• **مفاتيح الغيب** (التفسير الكبير): أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ). الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة – 1420 هـ.

• **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ). الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

• **المقنع في رسم مصاحف الأمصار**: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: 444هـ). المحقق: محمد الصادق قمحاوي. الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

• **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفى: 708هـ). وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

• **مواعظ ابن الجوزي** (الياقوتة): جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ).

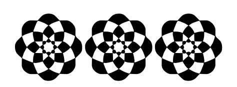
• **الموطأ**: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: 179هـ). المحقق: محمد مصطفى الأعظمي. الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي – الإمارات، الطبعة: الأولى، 1425 هـ – 2004 م.

• **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ). تحقيق: علي محمد البجاوي.الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1382 هـ – 1963 م.

• **النحو الوافي**: عباس حسن (المتوفى: 1398هـ). الناشر: دار المعارف. الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة.

• **النكت والعيون** (تفسير الماوردي): أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ). المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

• **الوافي بالوفيات**: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: 764هـ). المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. الناشر: دار إحياء التراث – بيروت. عام النشر: 1420هـ– 2000م.



فهرس الكتاب